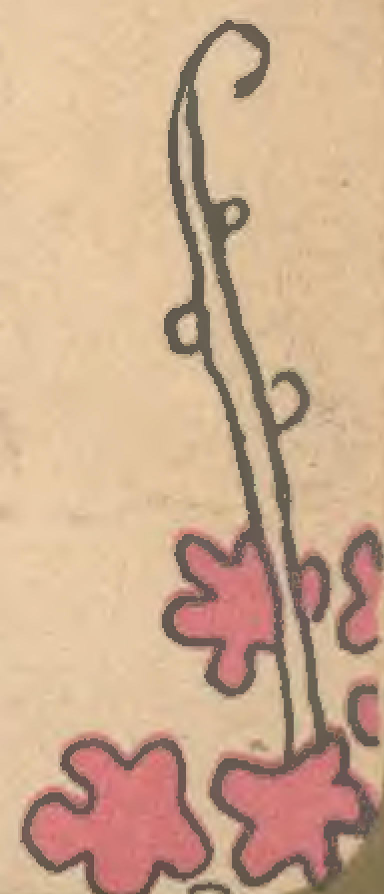
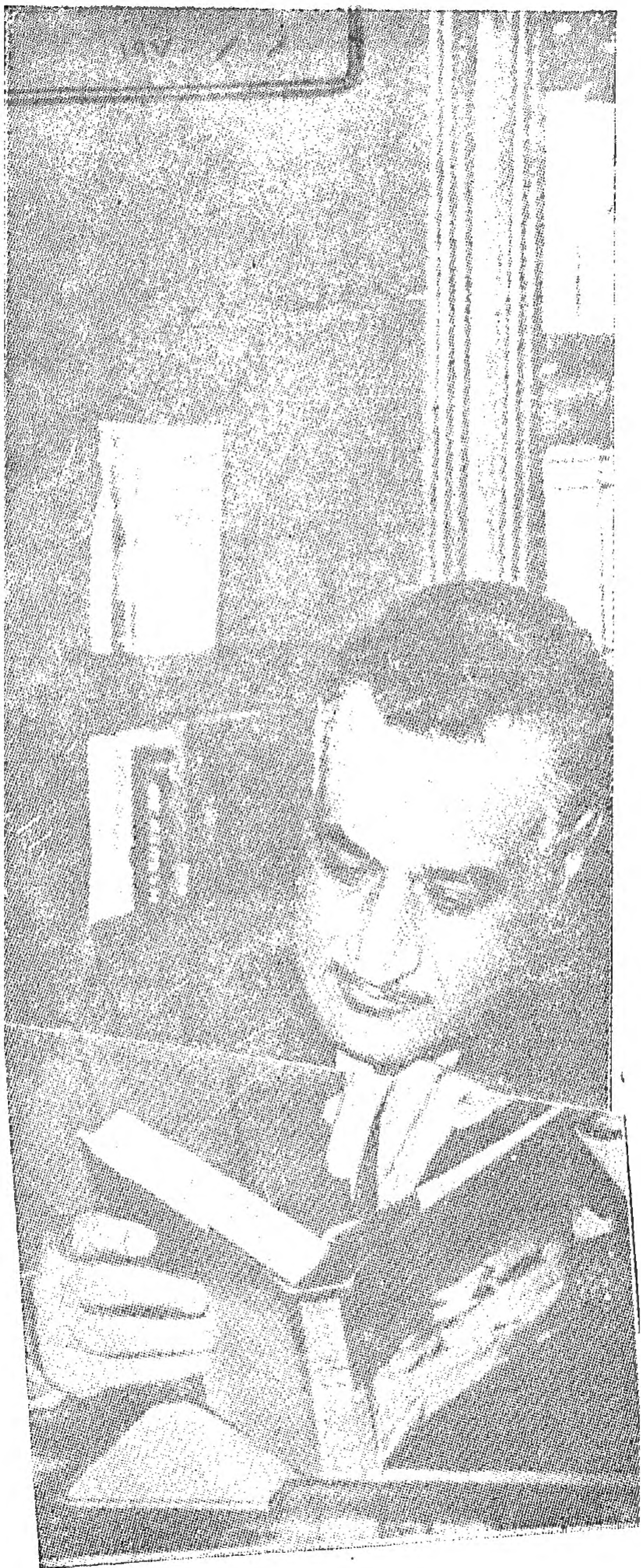


دار الثقافة الجديدة

أ. أجاريشيف



ناصر

أ. أجاريشيف

الناشــــر
دار الثقافة الجديدة
٣٠٢ شارع صبرى ابو علم ـ القاهرة
تليفون ٥٨٤٧٠١ ـ ٥٨٧٨٠

أ. أجاريشيف

ناصر

ترجمة:

د. سلوى أبو سعده

أحمد شرف

هذه ترجمة لكتاب :

NASSER

للكاتب السوفيتي : *A. Agdrichev*

١

يستهدف هذا الكتاب التعريف بشخصية عبد الناصر المتعددة الجوانب باعتباره زعيماً سياسياً ورجل دولة . ولكن فى بداية الحديث عن حياته لانجد غير كلماته هو ذاته — التى وجهها لصحفى سوفيتى سنة ١٩٦٢ ـ كشاهد على أهمية هذا البحث : لقد قال :

إننا نريد أن نقترب أكثر وأكثر من الاتحادالسوفيتى . فى هذا يكمن سر نجاح النمو التقدمى فى بلدنا . إننا نفهم جيداً ، أنه بدون مساعدة الاتحاد السوفيتى للجمهورية العربية المتحدة لن نستطيع حل أى مشكلة من مشاكلنا المعقدة سواء على الصعيد الاقتصادى أو على الصعيد السياسى . . .

لقد كان ناصر صديقاً مخلصاً للإتحاد السوفيتى ، ولهذا فمن الأهمية بمكان فهم كل ماوراء أى تحرك لهذه الشخصية السياسية الفذة . وذلك من خلال استعراض سيرته الشخصية .

تميز القرن العشرين بالتقدم الضخم فى المجالات الاجتماعية والسياسية . وكان من أصداء الثورة الروسية امتداد حركة التحرر الشعبى . حيث انتهت بسقوط الامبراطورية العثمانية . ولقد تجاوبت

الأحداث فى مصر مع ذلك . باعتبارها إحدى الولايات التركية آنذاك ، وتحولت إلى محمية بريطانية فى سنة ١٩١٤ ، ولكن جاءت ثورة ١٩١٩ لحركت المجتمع المصرى بأسره .

ولقد كان السلطان أحمد فؤاد على رأس النظام المصرى آنذاك . حيث كان يستريح فى الصيف على شاطىء المنتزه بالإسكندرية وينعم بشذى أدغال الأرز المحيطة به . وفى الشتاء كان السلطان أحمد فؤاد يعيش فى القاهرة بقصر القبة خلف أسوار حجرية عالية ، أو فى قصر عابدين ذى الأسوار الحديدية المحصنة حيث تقع على مسافة غير بعيدة منه المعسكرات الإنجليزية ويقوم بحراسته مجموعة من الحراس الفارعين الذين يختالون فى بزاتهم الحمراء . وإذا أراد التجوال فهناك « الكاريته الحمــراء » أو « الرولزرويس الحمراء » تحت أمره . وإذا خرج للصلاة يوم الجمعة وذهب إلى المسجد امتد البساط الأحمر تحت قدميه ليسير أمام الناس . أما الورود الحمراء فقد اعتبرت الورود العائلية للأسرة المالكة فى مصر .

ولكن هذه الزهور الحمراء بعينها أتت باللعنة على أحمد فؤاد شخصياً وذلك حينما اندلعت المظاهــرات الصاخبة فى شوارع القاهرة والإسكندرية تلوح بالأعلام الحمراء خلال ثورة سنة ١٩١٩ .

لقد اطلع الشعب المصرى وشاهد تورتة عيد جلوس الملك

تزينها طبقة من الكريم الوردى تعلوها وتحتها طبقة خفيفة من المهلبيا وفى نهايتها من أسفل طبقة من البسكويت المحلى بالكارميلا الزرقاء .

إننا إذا أخذنا الناس بزيهم نجد السلطان والحاشية التى تتكون من الباشوات والبكوات يرفلون فى طرابيشهم الحمراء ويؤكدون أنهم بذلك يحتلون قمة المجتمع المصرى . أما الغالبية العظمى من الشعب المصرى فهم الفلاحون الذين يرتدون الجلاليب الواسعة . وبين هاتين الفئتين من السكان تقع طبقة غير محددة المعالم من الموظفين الذين يتميزون بارتداء الملابس الأوربية .

لقد كان الباشا والبيه يعتبران حسب ماجرت عليه العادة من سلالة نبيلة . أما باقى المصريين فيعتبرون من أصل فلاحى .

وحتى الحرب العالمية الأولى كان يعمل الأوربيون وخاصة الإنجليز والفرنسيون فى المشاريع والمؤسسات الحكومية . ولم يشغل المصريون المواقع الوظيفية إلا فى وقت الحرب فقط وفى خلال هذه السنوات نمت البورجوازية الوطنية المصرية وتحصنت . وتكونت فى البلاد لجنة صناعية حربية مكنت من قيام بنك وطنى وبدأت مصر الدخول إلى طريق النمو الرأسمالى .

إن كل هذا الذى كان يجرى فى البلاد انعكس اجتماعيا على أسرة جمال عبد الناصر .

لقد أتى والد جمال عبد الناصر من بين صفوف الفلاحين ولكنه استطاع أن ينال قسطاً من التعليم سمح له بأن ينتظم فى صفوف المصريين حديثى العهد بالوظائف . أما والدة جمال فكانت إبنة تاجر ينحدر هو الآخر من الفلاحين . وهكذا كانت أسرة جمال عبد الناصر تمثل اتحاداً بين عنصرين أحدهما مستخدم حكومى والآخر يمثل البورجوازية الصغيرة .

وإذا نظرنا إلى جمال عبد الناصر من جهة أبيه نجده من بين عائلة مبارزة . لقد كانت عملية اغتصاب أراضى الفلاحين بصعيد مصر تجرى بمعدلات سريعة . وكان جزء من هؤلاء الفلاحين يهاجرون إلى المدينة . أما هذا الذى يبقى فى الريف فإن الظروف الصعبة تثقله . وهناك جزء آخر ينشط فى البحث عن طريق جديد . لقد أدركوا أهمية إرسال بنيهم إلى المدارس . حيث أن هذه هى الطريقة الوحيدة للهروب من الفقر ، وإذا نظرنا إلى قرية بنى مر نجد أنها ومنذ ١٨٩٠ قد شهدت قيام بعض العائلات بخدمات ومشاريع تطوعية حيث فتحوا بها كتابات يتعلم فيه الأطفال تحت رعاية « مولانا » الكتابة وقراءة القرآن . ولقد كان من المبادرين بهذا العمل جد والد جمال وهو خليل سلطان . وبعد ذلك أصبح ابنه الحاج حسين أبا وقرر أن ينال ولده عبد الناصر قسطاً من العلم المعاصر .

وحينما بلغ الفتى خمسة عشر عاماً أرسله أبوه الحاج حسين إلى أسيوط وألحقه بإحدى المدارس المسيحية هناك . ومع أن المبشرين كانوا يخشون تأثير ذلك وسط السكان ، إلا أنهم لم يستطيعوا رفض طلب رجل ذى قيمة فى الريف كالحاج حسين رغم أن ولده يعتبره مسلماً .

لم يكن من السهل على فلاح مصرى فقير أن يحمل عبء ستة أطفال ، ومع ذلك فقد استطاع عبد الناصر أن يتحمل العيش نصف جائع ويتحمل الغربة عن مسقط رأسه وأنهى مدرسته . إن هذا كان يعنى تحقيق أحلام الحاج حسين فى ابنه كاملة . عند ذلك إلتحق عبد الناصر بالخدمة فى إحدى الوظائف البريدية بمرتب شهرى قدره ثمانية جنيهات مصرية . وهكذا ورغم أن الحاج حسين شخصياً ظل طوال حياته يرتدى الجلباب الفضفاض ويمشى وراء المحراث ، وجد إبناً له هو عبد الناصر يرتدى السترة الرمادية وسيظل كذلك .

وفى الإسكندرية حيث تسلم عبد الناصر عمله . كان يعيش هناك مجموعة كبيرة من الصعايدة القادمين من صعيد مصر . لقد كان هؤلاء القوم يتميزون بحبهم الشديد لأعمالهم وبالتمسك بالشرف كما أنهم يتميزون بحدة المزاج وصرامة الخلق . هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الصعايدة النازحين إلى المدن الكبيرة كانوا يعيشون بالكاد . ذلك أنهم بحكم وجودهم كأبناء ريف ألفوا عيش وعمل

الريف ومن الصعب عليهم الانتقال مرة واحدة إلى حياة المدينة ولهذا كانت ألفتهم تتم خطوة بخطوة . لقد كانت الضرورة تحتم عليه ألا يعرف غير الصعايدة . فقد كانوا دائما على أتم إستعداد لمعاونة بعضهم البعض كما تقضى تقاليدهم الراسخة . وكان الصعايدة يجتمعون كل يوم بعد الغذاء فى إحدى المقاهى حيث يستريحون ويتبادلون الأخبار . إن عادتهم تلك مازالت باقية هكذا حتى اليوم .

لقد درج سكان القاهرة والإسكندرية على الاستهزاء بهؤلاء « الصعايدة » الوافدين إلى مدنهم ويطلقون عليهم دائماً النكات . ومما يقولوه أن هؤلاء الصعايدة المنتشرين لايصدهم غير البحر . ولم ينظروا أو يقدروا حبهم للعمل وطاقاتهم الفنية ، بالقياس إلى إبن البلد . بل ظلوا فى نظرهم هؤلاء السذج الطيبين أن إحدى النكات تصور كيف استطاع أحد القاهريين الماكرين أن يبيع الترام للصعيدى القادم من بلدته وهو مملوك أصلا للدولة .

اشتغل عبد الناصر كوكيل لبوستة محطة سكة حديد سيدى بشر فى الإسكندرية ووطد علاقاته ببنى بلدته وعاش عيشة نمطية لأبن الصعيد المقيم بمدينة كبيرة وقد تزوج عبد الناصر من فهيمة بنت محمد حماد هذا فى سنة ١٩١٧ . ومحمد حماد هذا صعيدى وفد إلى الإسكندرية من مصر العليا واستطاع بسرعة أن يبرز بين الناس ويشغل بينهم دورا مسئولا .

وفى ١٠ يناير سنة ١٩١٨ استقبلت عائلة عبد الناصر مولوداً أسموه « جمال » وفى الحال أرسل عبد الناصر خطاباً متعجلا يبشر فيه باستقباله لمولوده الأول . وقام كاتب قرية بنى مر بتسجيل الوليد فى سجلات مواليد القرية .

تقع قرية بنى مر على بعد أربعة كيلو مترات من مدينة أسيوط ، هذه المدينة التى لعبت فى زمانها دوراً هاماً فى تاريخ البلاد كلها . ولا يرجع ذلك لكونها مجرد مدينة تقع فى بقعة ريفية غنية ولا لمجرد كونها طريقاً للقوافل بين مصر العليا والسفلى . ولكن لأن فرعون مصر إخناتون أنشأ عاصمته قرب أسيوط الحالية منذ حوالى أربعة آلاف سنة وجعلها عاصمة لمصر الموحدة . فمنذ ذلك التاريخ تعتبر أسيوط رمزاً لوحدة البلاد .

لم يخطىء كاتب القرية حينما سجل جمال على مواليد بنى مر ولم يتجاوز الحقيقة بذلك فجمال يستطيع أن يسمى بنى مر ببلدته ووطنه الأول ففيها ولد أبوه وفيها عاش جده حتى نهاية أيامه وفيها توجد المقابر التى تضم رفات كل أسلافه وأجداده .

وحينما بلغ جمال الثالثة من عمره انتقل أبيه عبد الناصر للعمل فى أسيوط وهكذا حان الوقت كى يرى الحاج حسين حفيده وأن يرى بقية أعمامه ابن شقيقهم وهكذا نزل الطفل جمال إلى بنى مر ليلعب تحت أشجار النخيل — تحت رعاية جده — مع أطفال

القرية يلعبون ويجرون فى الحقول حيث ولد الحاج حسين . وحينما بلغ جمال الرابعة من عمره أرسلوه إلى المدرسة الأولية بأسيوط ودخل فصلا تحضيرياً استطاع أن يتلقى فيه ألف باء اللغة العربية .

وفى ١٩٢٣ انتقل عبد الناصر مرة أخرى إلى قرية صغيرة إسمها الخطاطبة تبعد حوالى ٣٦ كيلو متراً من الشمال الشرقى القاهرة وتقع حالياً بالقرب من منطقة جديدة إسمها مديرية التحرير وتحولت إلى مدينة صغيرة . لقد كانت الخطاطبة فى العشرينات مجرد قرية صغيرة تقع على الحدود الصحراوية لوادى النيل . وفى مدرسة الخطاطبة التى أنشئت أساساً لأبناء موظفى السكة الحديدية كان يشترط قبل أى شىء حفظ الطفل للقرآن كله من بدايته حتى نهايته وكانوا يبدأون فى حفظه بالسور القصيرة . إن هذا لم يكن التعليم الذى يريده عبد الناصر لولده .

وخلال سنة واحدة كان عم جمال — خليل — الذى تلقى تعليمه بمساعدة أخيه عبد الناصر يقيم فى القاهرة . وهكذا حان الوقت بالنسبة لخليل كى يرد جميل أخيه الأكبر عليه . وفى إحدى الأمسيات الحارة من أيام سبتمبر سنة ١٩٢٥ كان شقيق عبد الناصر يقطع رصيف محطة القاهرة جيئة وذهاباً فى إنتظار القطار الذى سيصل بإبن أخيه ، هذا الولد الذى يعتبره شرفاً إبنه هو كان خليل قد قضى أحسن سنوات شبابه خلف أسوار السجن لمشاركته فى

فى ثورة ١٩١٩ . ولم يستطع تكوين عائلة ولم يكن بالتالى لديه أولاد . وللحقيقة فقد ربى طفلا لرفيق له استشهد فى أحداث ثورة ١٩١٩ . وهكذا انضم جمال منذ ذلك التاريخ ليعيش مع عمه سوياً مع ابنه بالتبنى محمود .

لقد سافر جمال البالغ من العمر ثمانية أعوام وحده من الخطاطبة إلى القاهرة بالقطار . وخرج مع عمه من مبنى المحطة ليستقل حنطوراً إلى منزلهما .

كان خليل يعيش فى وسط القاهرة القديمة. لقد سارا من المحطة على طريق ترابى أمام حائط حصين يبدو نصف مهدم . وأخذ العم يقص على ابن أخيه بإفاضة عن صلاح الدين هذا الزعيم الذى أسقط حكومة مصر الممقوتة . ولم يستحوذ لنفسه على ممتلكات الأغنياء ولكنه وجهها لتدعيم الدفاع عن المدينة ضد الصليبيين . لقد كان خليل يعرف التاريخ جيداً . ولكن ابن أخيه لم يكن فى ذلك الوقت يدرك أن عمه يمد جسرا بين الماضى والحاضر .

وعلى الفور سأل الفتى ومتى كان أغنياء مصر وملوكها يهتمون بالشعب ؟ لقد كان العم يدرك ما تكبده جمال من عناء السفر وانتظر أن يتناول عشاءه وطلب منه أن يستريح ولكن الفتى لم يوافق على ذلك إلا بعد أن وعده عمه بأن يأخذه معه فى المساء إلى جولة بالحى .

وخلال يومين أصبح جمال يذهب إلى مدرسة « النحاسين » التى تسمى باسم الشارع الذى تقع فيه . إن هذا الشارع يضم ورشاً لصناعة الحلى الذهبية والفضية وصناعة الأشياء الثمينة ويعيش فيه الصاغة والنجارون والسمكرية والمبيضون والحدادون . وفى الأزقة الضيقة المتربة كانت واجهات المحال تتلألأ بالمصوغات . وهناك كان الحواة ينشرون ثعابينهم وحياتهم ويظهرون كل حيلهم . وفى أيام الأعياد الشعبية كان الدراويش يذكرون أمام جامع الحسين وفى الميدان المطل عليه .

لقد كان عم جمال يعمل بضع ساعات يومياً يكون فيها الفتى الصغير مسئولا عن نفسه . ولهذا غالباً ما كان يخرج مع محمود ليتجولا بالشوارع ، ويتناولا غذاءهما فى المطاعم الشعبية الرخيصة ، ويقضيا الوقت الطويل فى الاستماع إلى أحاديث الشيوخ .

وذات مرة شاهد الصبيان عربة عسكرية انجليزية تظهر فجأة وتجرى بأقصى سرعة وهى تدور بأحد المنحنيات وتحدث ضوضاء وارتباكا بين المارة فى الشارع مما جعلهم يتفادونها مذعورون ، ومرقت السيارة من أمامهما على القنطرة مخلفة وراءها سحابة من الدخان والتراب . تبين الصبيان من خلالها فتاة ترقد على الأرض مخضبة فى دمائها ، عند ذلك هرع الصبيان إلى عمها وجعلا يقصان عليه ما رأياه وهو يستمع إليهما فى صمت وبعد تفكير أخذ

يقص عليهما : إن هذا سوف يستمر طالما بقى الوضع هكذا إلى أن يظهر ذلك الشخص الذى يطرد الإنجليز ويصحح هذا الأمر .

وفى نفس هذا المساء جلس العم خليل يحكى للفتى ويقول : هكذا كان الحال بالنسبة لوالد محمود ، وكيف أنهما كانا مشتركين فى المظاهرات سوياً وفى النهاية كيف سقط والد محمود برصاصة انجليزية .

هنا فاض الدمع من عينى الصبى وبعد ذلك أغفل بعينيه وراح يفكر وكأنه يدخل مع فرسان صلاح الدين وهم عائدون من خلال بوابة القاهرة شامخة رءوسهم بالنصر والشعب يهلل فرحاً ثم يحلم بأنه يرى مصر خالية من أى انجليزى ويتخيل المدرس وقد وقف مستبشراً فى المدرسة يهنئهم ويتخيله كذلك وهو يضع له أعلى التقديرات فى شهادته المدرسية .

وفى المدرسة التى كان يدرس بها جمال كان هناك مدرسون غلاظ يضربون التلاميذ ولهذا كان يسود التوتر ، وكثيراً ما تثور المشاغبات والمشادات بين التلاميذ ، وقد استوجبت هذه الأمور انخراط بعض التلاميذ فى تكوين شرطة مدرسية تتولى فض مثل هذه المنازعات . ورغم ذلك فقد كان جمال يميل إلى العزلة والصمت وكان دائماً يبدو للغير زميلا ثقيلا غير ودود وللأسف فإن أحداً ممن عرف جمال فى هذه المرحلة لم يترك أية مذكرات تلقى مزيداً من الأضواء على هذه الفترة من حياته

إن بعض كتاب السير الغربيين صوروا جمال عبد الناصر حينما كان طفلا بأنه كان متقــــلا على المستوى النفسى وميالا إلى الوساوس والوهم . إنهم بذلك يعبرون عن حقدهم وعدائهم الشخصى تجاه قائد حركة التحرر الوطنى العربية ، على سبيل المثال قد حاولوا رد الإصلاحات التقدمية التى أجراها عبدالناصر وكذلك الدور الذى لعبه فى الثورة إلى أنه كان بمثابة شىء من التنفيس عن الكبت الذى لاقاه فى الطفولة وهذا فى رأيهم حال كل من يفعل هذا فهو تعس ولا يملك طفولة سعيدة . إن عدم موضوعية مثل هذه الاستنتاجات تتضح إذا رجعنا إلى القاهرة القديمة حيث يمكن كل يوم رؤية جمال يتجول فى حواريها الضيقة حيث عرف هناك أولا كيف يعيش غالبية الناس .

لقد كان على جمال أن يتعلم فى المدرسة اللغة العربية ومبادىء علم الحساب على يد مدرس يعتبر صديقاً قديماً لوالده ، هو محمد جمعة . حيث تعارفا سوياً فى الإسكندرية .

فى هذه الفترة كما يتذكر جمعة ويقول : لم يكن لدىّ حتى غطاء الرأس ولقد دعانى عبد الناصر لأعيش فى ضيافته وعشت فى بيته شهراً كاملا وكأننى أحد أفراد الأسرة . بعد ذلك جاءت زوجتى التى أحبت عائلة عبد الناصر ، إن هؤلاء أناس كانت تربطنا بهم صداقة قوية . وقد كنت مثالا للتمسك بالأخلاق الأزهرية

ولهذا كان عبد الناصر حريصاً على أن يعلم ولده اللغة العربية والحساب . ولم يكن جمال مثل بقية الأطفال الآخرين . فى إحدى المرات كنا فى ضيافة أحد موظفى وزارة المعارف الذى وعد بأن يعطى عشرين قرشا للتلميذ الذى يستطيع أن يجيب بطريقة صحيحة على سؤال سيسأله :

— « نفترض أننا كنا نسير فى الصحراء وضللنا الطريق ، وكان لابد أن نعرف الاتجاه بواسطة بوصلة وأن علينا أن ندفع عشرين قرشا لكل اتجاه نعرفه من الاتجاهات الأربعة فكم قرشا يجب أن ندفعها إذن ؟ »

— أجاب الأطفال : ثمانون قرشاً .

— ولكن جمال أجاب وحده : عشرون قرشاً فقط .

— وسأل الموظف : لماذا ؟

— لأنه إذا عرفنا أحد الاتجاهات فإنه يمكن تحديد الاتجاهات الأخرى دون أن ندفع نقوداً .

وعادة ما كان الكبار يجدون جمال مستغرقاً فى التفكير وكثير السرحان على الأكل وأثناء المذاكرة . وأحياناً ما كان جمال الصغير يضع الرجال الكبار فى مآزق بأسئلته .

لقد سأل مرة أباه : إننا لا نرعى الغنم ومع ذلك نأكل لحمها ،

فلماذا الراعى ذاته يأكل الفول ؟ ولكن عبد الناصر لم يستطع إلا أن يقول هذه سنة الكون ياولدى . ولكن الصبى ذا السبع سنوات لم يقبل ولم يقتنع بهذا الرد . ومع ذلك ظل هذا الفتى يوجه المزيد من الإسئلة لأبيه ورغم هذا فلم ينهر الوالد ولده ، مجارياً بذلك عادات « أهالى الصعيد » الذين كانوا يعاملون الأطفال وكأنهم رجال يافعون . وعادة ماكان جمال يسافر فى الإجازات أو فى الأعياد إلى منزل والده فى الخطاطبة حيث كان متعلقاً جداً بوالدته التى كانت دائمة الكتابة له حيث كان خطابها يؤنسه فى وحدته ، كما أن جمال كان حريصاً على إرضاء أمه ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ولكنها كفت عن الكتابة فجأة منذ أبريل سنة ١٩٢٦. وهنا تلقى جمال خطاباً من والده يقول له فيه بأن والدته أصبحت مثقلة بأعباء المنزل وأنها مشغولة بالاشراف على أخويه الصغيرين عز العرب والليثى . وعلاوة على ذلك أخبره والده بأن أمه قد ذهبت إلى الإسكندرية لزيارة أقاربها .

وعندما عاد جمال الى الخطاطبة لقضاء الاجازة الصيفية علم بأن أمه قـــد ماتت فى الاسكندرية عندما ذهبت إليها للعلاج أثر المرض الذى ألم بها عقب الولادة .

لقد صرح جمال عبد الناصر ذاته بعد ذلك فى إحدى المقابلات معه بأن موت أمه يعتبر «ضربة موجعة ألمت به ولم ينمح أثرها عنه».

عندئذ طلب جمال من أبيه أن يسمح له بالسفر لزيارة والدة أمه فى الإسكندرية ، ذلك لأن الفتى كان يعرف أن أمه تسعد دائماً حينما تكون فى بيتهم . ووافق عبد الناصر بل ورحب بذلك لأنه رأى فى تلك الزيارة عاملا قد يهدىء من روع ولده .

لقد كان بيت الجد فى الإسكندرية من هذه البيوت التى ينطبق عليها حينذاك الأوصاف التى تتضمنها الكلمة الفرنسية « بيوت محترمة » . فلقد كان مثالا للنظافة والنظام ، لقد ذهب جده إلى المحطة ليستقبل حفيده فى عربة « أتوموبيل » . لقد كان جمال من سنة واحدة فقط هنا فى منزل جده سعيداً بالعيش فيه ومعجباً به أيما إعجاب حيث كان مع والدته فى ضيافة جده ، وكان يلعب ويلهو مع خالتيه ، ولكن فى هذه المرة فإن الولد يشاهد على غير عادته ، دائم الملل . لقد كان فى القاهرة حراً ، أما الآن فإن جدته تلاحقه كظله . إذا أراد أن يأكل وضعت له من الأكل مايفوق طاقته وشهيته وتلح عليه . وإذا أراد أن يخرج للتمشية صحبته إلى وسط المدينة وجلست به فى إحدى المقاهى المملة ، وإذا ألقى بسؤال فلا أحد يستطيع الإجابة عليه . ولقد كان مغرماً بأن يذهب إلى الميناء ليرى السفن وكيف تفضى بحمولتها ، ، وأن يرى البحارة فى ثيابهم البيضاء التى تشبه فستان إبنة خاله المحلى بالدانتيل ولكنه عندما يطلب ذلك يردون عليه بأن هناك زحمة وقذارة .

لقد عمل والدا أمه محاولة لكى يستبقياه عندهما وفعلا قاما بكتابة خطاب لوالده فى هذا الشأن قائلين «بأن المدارس فى الإسكندرية لن تكون أقل من المدارس فى القاهرة» ولكن جمال نفسه أراد العودة إلى الخطاطبة مفضلا إياها وعاقداً الأمل على القاهرة التى يحبها حيث هناك عمه خليل الذى ينتظر أن يلقاه لكى يوجه إليه بعض الأسئلة التى يدخرها . وقبل بداية السنة الدراسية عاد إلى والده فى الخطاطبة .

وانتهت مرحلة الطفولة بالنسبة لجمال سريعاً . فبعد معرفته بموت أمه رآه والده ذات مرة يحفر حفرة ليست بعيدة عن المنزل فنهره والده ونهاه عن هذا العمل . ولكن جمال عاود الحفر بعدما انصرف والده ، وعندما عاد وجد الحفرة بدت أكثر عمقاً فسأله — وماذا ستفعل بعد ذلك ؟ — وأجاب الفتى أريد أن أعرف ما الذى يقع تحت هذه الأرض التى يسير عليها الناس . لقد حاولت السلطات المصرية آنذاك — ما استطاعت إلى ذلك سبيلا — أن تقوم بتشتيت موظفيها وتغيير أماكنهم دوماً كى لا تعطيهم الفرصة لتوطيد علاقاتهم . وبالرغم من أن عبد الناصر كان موظفاً صغيراً بالبريد فإنه لم ينج من هذا . بل لقد تحول فعلا إلى ما يشبه المرتحل دوماً وعلى مدى حياته .

فبعد الخطاطبة انتقل إلى السويس وفى هذه الأثناء تزوج مرة ثانية . لقد ساعد ذلك على أن يبتعد جمال عن الأسرة إلى حد ما .

فهو مازال يعيش ويدرس بالقاهرة . وحالا ظهر له أخ جديد هو « شوقى » وأخذ عدد إخوته يتزايد إلى أن أصبحوا سبعة إخوة . وكان جمال لايذهب إلى العائلة إلا فى الأجازة الصيفية فقط . ولكن الوالد أصبح أيضاً أكثر إنغلاقا حيث اشترى لنفسه بندقية وأخذ يكرس كل وقت فراغه لرغباته ، حتى أن كل العائلة لم تكن مشوقة لعودته إلى المنزل ماعدا جمال وحده المنغمس فى تفكيره دائماً ، والذى لايلاحظ أحد . وأخذت إمرأة أبيه تلومه وتؤنبه على عدم تصديه لوالده وتصحيح مساره ، وهكذا بدأت تسود العائلة علاقات متوترة .

ولكن جمال بدأ يشعر بمدى ظلم هذا اللوم . إنه يحب أباه ولقد كتب فيما بعد « أن عبد الناصر كان محباً لعائلته . وفجأة رحل عمه خليل عن القاهرة ولم تكن فى السويس مدارس صالحة لجمال . ولقد قرر والده أن ينقله إلى حلوان فى المدرسة الداخلية ، ولكن لم يطل المقام بجمال فى مدرسة حلوان حيث بدأ والده عبد الناصر يفكر فى إرساله إلى الإسكندرية . وهكذا أصبح جمال يعيش مع جدته فى الإسكندرية حيث التحق بمدرسة رأس التين الثانوية التى تقع على مسافة قصيرة من قصر الملك الصيفى .

إن الإسكندرية بما فيها من أحواض لبناء السفن وأسواق مالية وتجارية للقطن كانت تعتبر مركز مصر التجارى الذى يضم صناعة النسيج فى ذلك الوقت . وكانت المـــدينة تصيب كل قادم عليها

بالضوضاء والهموم . وكان يعيش الأوروبيون فى قلب المدينة أساساً من الناحية الشرقية منها فى أجمل بقاع منطقة الشرق الأوسط حيث كان يوجد قصر المنتزه الملكى . وفى غربها كان يوجد الفنار البحرى القديم قرب قصر آخر للملك . وفى الجنوب كانت توجد أحياء العرب الفقراء . هذه هى الإسكندرية كما رآها جمال .

لقد كانت الإسكندرية تعتبر مقصداً للقاهريين الذين يملكون القدرة المالية ليقضون فيها وقت الصيف مستمتعين بحياة البحر هناك مما كان يدفع بسكان الإسكندرية القادرين على الهجرة من مدينتهم فى هذا الموسم هروباً من الضوضاء حيث يذهبون إلى شاطىء مرسى مطروح الذى يتمتع بالهدوء وجمال البحر بصورة أكثر ، هنا تعلم جمال السباحة حيث كانت جدته تسمح له بالذهاب إلى « البلاج » حيث يشتد التيار البحرى المتجه نحو الشاطىء . وفى مرسى مطروح كان جمال مطلق الحرية بصورة كاملة . وفى إحدى المرات بعد أن تعلم العوم بطريقة ليست سيئة ذهب إلى البلاج وكان يوماً يعتبر من أكثر أيام السنة التى يبدو فيهـا البحر هائجاً حيث تصخب الأمواج حتى فى الخليج ، ولم يستطع جمـال أن يقاوم رغبته فى النزول إلى البحر واستهوته فكرة النضال ضد هذا الموج العاتى وكسر عنفوانه ، ثم أغلق عينيه لتفادى ضوء الشمس المبهر ولكنه لاحظ أنه لا يوجد حوله أى سابح ، ورويداً رويداً وجد الجو حوله مطبقاً بالصمت صمت البحر حيث لا يسمع غير هدير الأمواج وصفير الرياح ،

والتفت جمال حينما كان على قمة موجة إلى الشاطىء فوجد نفسه بعيداً عنه .

هكذا أدرك جمال أنه لا أمل له فى العودة إذا ألم به الذعر . حقاً إن العوم إلى الشاطىء صعب للغاية ولكنه جمع كل إرادته على هدف واحد هو العوم وفعلا بدأ العوم لا أحد يسمع صياحه ولم يره أحد يطل من الماء . ووصل أصدقاؤه على الرمل وأخذوا ينادونه . وبطريقة صبيانية أخذت الجماعة تمرح ، ولاحظ جمال ما يحدث فأدار رأسه عنهم وخلال بضع دقائق من العوم كان بينهم .

حينما عادت الأسرة إلى الاسكندرية من مرسى مطروح ، سمحوا له بالعوم فى الشواطىء المحلية .. لجدته الآن أصبحت آمنة على صغيرها المحبوب . وهكذا أضحى سباحاً ماهراً . وفى إحدى الأمسيات ، خرج جمال للتمشية على الشاطىء فوجد جمعاً غفيراً من الناس يتجهون إلى ميدان محمد على . وأراد أن يعرف ماذا يجرى فذهب هو الآخر إلى الميدان حيث وجد شخصاً يخطب من شرفة البورصة وحينما تحقق فيه جمال وجد فيه أحد الطلاب الذين يعرفهم جيداً ولم يستطيع جمال أن يدرك كلمات الخطيب لكنه فهم إنها مظاهرة مضادة للإنجليز .

وبدأ تحرك المظاهرة وبعد قليل سمع جمال صفير عربات البوليس ، وفى هذه اللحظة كان البوليس يمسك به ويلق به فى عربة

مقفلة حيث قادوه إلى مكان الحجز .

لقد أفاق ناصر من هذا الأمر لينظر حوله حيث وجد جمعاً من الشباب هو بالتأكيد أصغرهم سناً ، وسأل جاره من الذى نظم هذه المظاهرة ؟ فنظر هذا الشخص إلى جمال حيث لاحظ بريق عينيه وأجابه بأن المتظاهرين أعضاء فى « مصر الفتاة » ولم يعرف جمال أى حزب يكون هذا .

وفى هذا اليوم لم يجد عبد الناصر ولده جمال قد حضر للغذاء ولا على العشاء ، إن هذا لم يحدث أبداً . كما أن جمال يبلغ دائماً عن تأخره إذا ذهب إلى الأصدقاء أو تأخر فى المدرسة للعمل . ولهذا قلق عبد الناصر للغاية وبدأ يتصل بكل الجيران والمعارف يسأل عن نجله ، ثم أخذ يطلب البوليس بالتليفون ومع ذلك لم يستطع أن يجد ضالته هنا أو هناك .' فقط وفى صبيحة اليوم التالى إكتشف إسم ولده بين المقبوض عليهم فى المظاهرات . وفهم عبد الناصر ماذا جرى وشعر بالغم الشديد وقد أصابه . أهو يعلم ولده من أجل هذا . كى يعمل بالسياسة وهو فى هذه السن الصغيرة لا بد أن هذا من تأثير أخيه خليل . هكذا أخذ يفكر عبد الناصر وهو يتجه إلى البوليس .

لقد كانت سجون مصر مكتظة بمن فيها . لهذا وجد عبد الناصر أن فى ذلك مايعظه لكى يصحح تربية إبنه ، وحينما ذهب أمر المأمور

باخراج إبنه على اعتبار أنه مازال صغيراً . وكانت تقاليد المدينة تفرض عليه «كصعيدى» ألا يعاقب ولده جهاراً ولهذا كتم غيظه حتى أصبحا منفردين وهنا أصبح الحديث غير سهل إلى أن قرر عبد الناصر أن جمال يجب ألا يذهب إلى المدرسة عقاباً له حيث تنعدم فرصته فى لقاء هؤلاء الأصدقاء المريبين وأن دراسته يجب أن تستمر فى القاهرة .

ولم يعتذر جمال كما لم يعترض ولكنه فهم أنه يجب عليه أن يتعمق فى التاريخ كى يعرف شيئاً عن هذا الحزب « مصر الفتاة » الذى قابل أعضاءه فى المظاهرات ليعرف ما الذى دفعهم لهذا ؟ إذن فى القاهرة ... وليكن فى القاهرة ...

ولكن فى القاهرة لن يستطيع جمال أن يفعل ما عقد عليه العزم فلقد قرر والده فى نهاية الأمر أن يضع عينه عليه حيث نقله إلى مدرسة محمد فريد وهناك لن تستمر دراسته وحيداً ، فسريعاً ما ينتقل الوالد للعمل بالقاهرة . وهكذا اضطر جمال إلى تغيير مدرسته مرة أخرى وأصبح عبد الناصر يعمل بمكتب بريد باب الشعرية بالموسكى حيث توجد منطقة تركز ضخم بورش الحرفيين والأسواق الشرقية واستأجر الوالد شقة مكونة من أربع غرف بالدور الثانى . وأصبح يتقاضى ١٢ جنيها شهرياً . وبعد دفع إيجار الشقة كان الباقى قليلا على التغذية خاصة فى أسرة كهذه تعتبر كثيرة العدد .

والتحق جمال بمدرسة النهضة وظل يدرس بها حتى سن الثامنة عشرة . فى هذه الفترة برز اهتمام جمال بالسياسة . وأصبحت أحب مادة دراسية له فى المدرسة هى التاريخ وازداد شغفه بالقراءة والمعرفة ، وخطوة خطوة بدأ يقرأ الكتب . فقد قرأ كتابا عن حياة نابليون وآخر عن الإسكندر المقدونى ، ويوليوس قيصر ، وغاندى ، وروسو ، وفولتير . وبدأ جمال يزيد من إطلاعه فقرأ رواية فيكتور هوجو « البؤساء » وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز . وكتب جمال فى مجلة مدرسية مقالا تحت عنوان « فولتير رجل الحرية » أبدى فيه إعجابه الشديد بفولتير وكتب يقول « إن فولتير وروسو قد قاما بالتحضير للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ » .

وكان المنهج الدراسى يحتوى على مقتطفات من الأدب الأوروبى وبالطبع فإن الشباب يهتمون مبدئياً بإنتاج الكتاب العرب . لقد أحب جمال وحفظ شعر أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وقرأ كتابات توفيق الحكيم ورواياته ، الذى ظل كاتبه المحبوب طول عمره . ولقد كان أكثر روايات الحكيم تأثيراً فى شبابه هى «عودة الروح .

ولقد كان جمال حينما يقرأ يمسك بقلم رصاص فى يده حيث يخطط فى الكتاب على كل ما يثيره . فى قصة عودة الروح لاحظ هذا المكان ، الذى يتكلم فيه عن « أنه من الضرورى أن يأتى ذلك الوقت لدى المصريين الذى يظهر فيه من بينهم قائد يستطيع أن يقود الشعب ويدفع به للكفاح من أجل الحرية والبعث الوطنى » .

إن فكرته عن البطل الشعبي جذبت جمال ولقد كتب فيما بعد فى كتابة « فلسفة الثورة » يقول « أننى لا أعرف لماذا يبدو لى دائماً أن بلادنا تبحث عن ذلك البطل الذى يلعب دوره الوطنى » .

وفى نهاية قصة هذا الكاتب المصرى نجده يصف الموقف فى بيت قاهرى ، يأتى الطبيب لزيارته فيجد فى حجرة واحدة خمس أسر مرصوصة بجوار بعضها .

— ما هذا ؟ معسكر ؟

« يريد الطبيب أن يعرف ما الذى دفع هؤلاء الناس للعيش بهذه الكيفية »

— إحنا كده كويسين ؟ يسمع إحدى الإجابات عليه . المنبعثة بصوت صريح . ويرى كيف أن هذه الوجوه الشاحبة تفيض بالبشر لمجرد أن الخمسة مرضى سويا ويتبعون نظاماً واحداً ويأخذون جميعهم دواءاً واحداً وأن قدرهم واحد . إن هؤلاء السكان الذين يعيشون فى حجرة أسوأ من حجرات المعسكرات يحسون أنفسهم شعب .

هنا يعيش بطل الرواية ـ الطالب محسن ـ إن سماته وقدره يذكران بجمال الصبي ، ناصر الشاب ، الذى يجب أن يكون متعاطفا مع محسن ومع نمو أفكاره الوطنية التى يجب أن تجعل من روحه ومنه بناءاً أكثر ثباتاً ورسوخا من الهرم .

وفى هذا الوقت كان الوعى المضاد للإنجليز يزداد انتشاراً ففى يونيو سنة ١٩٣٤ جرت فى القاهرة معركة حقيقية بين البوليس والعمال . وقام الشعب كله بالإضراب إحتجاجاً على ظلم وجور البوليس . وحينئذ عقد حزب الوفد(١) مؤتمر وطنى طالب فيه بالإصلاحات الديمقراطية . وتستر الملك خلف الإنجليز الذين أجابوا بالرفض . فانفجر كل الشعب المصرى بالغضب .

وفى هذه الأثناء اختير جمال فى وفد الطلبة والتلاميذ الذى سيطوف ببيوت كل المشاهير والشخصيات المعروفة فى البلاد للإهابة بهم ومناشدتهم الاشتراك فى المظاهرات . وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ بدأت فى البلاد موجة جديدة من الاضرابات والمظاهرات .

وعندما حل الخريف فى ذلك العام جاءت الأمطار مبكرة عن مواعيدها وإشتدت برودة الجو وزادت المياه بالنيل واشتد فيضانه . وفى أحد هذه الأيام الخريفية إجتمع فى فناء مدرسة النهضة الطلبة والمدرسون والتهب الحماس واشتد الحديث فقام جمال وخطب ودعا إلى ضرورة الخروج للتظاهر . ولكن المدرسين فى البداية حاولوا إدخال الطلبة إلى فصولهم ولكن كلمات جمال التى وجهها كانت قريبة من الجميع مما دعا المدرسون إلى الاسراع بتأييد موقف الطلبة . وفتحت بوابة المدرسة حيث خرج الجمع الغفير بالصياح والهتاف .

---

(١) حزب بورجوازى ديمقراطى كان يكافح من أجل استقلال مصر .

لقد اقترح جمال أن تسير المظاهرة عبر النيل من فوق الكوبرى وأن تلتحم بطلبة الجامعة المشتركين فى المظاهرات . وعرف كذلك أنهم سيكونون بمثابة الوفود المرسلة التى ستراها المدارس الأخرى فتخرج بدورها فى نطاق المظاهرة . ولكن البوليس لم يكن غافلا حيث قام بفتح الكوبرى فى وقت مبكر ,وذلك بهدف جعل الرجوع لا يتم إلا بواسطة السفن الشراعية النهرية . حينئذ اقترح العبور بواسطة هذه السفن إلا أن الشرطة عملت على منع الرجوع ، وانهال المتظاهرون عليهم قذفاً بالحجارة فى وقت كانت فيه القوات الإنجليزية تساعد قوات البوليس وانطلق عيار نارى وعلى أثره سقط أحد التلاميذ مخضباً فى دمائه . وقام رجال الشرطة بتطويق المتظاهرين والقبض على الكثير منهم . وهنا انبعث صوت قوى حيث صاح ناصر: إلى « بيت الأمة » واتجه كل المتظاهرين صوب هدف واحد واستطاع جمال مع بعض رفاقه السير بعيداً وتفادى البوليس .

إن البيت الذى كان يعيش فيه الزعيم الثورى سعد زغلول كان معروفاً لدى الجميع ببيت الأمة . لقد قاد هذا الزعيم أكبر حركة جماهيرية سياسية فى مصر بعد سنوات الحرب العالمية الأولى . لقد كان على المصريين معاونة القوات الإنجليزية فى الحرب مقابل أن تمنح بريطانيا الاستقلال الكامل لمصر . ولكن حينما انتهت الحرب ولم تف بريطانيا بوعدها ، تكون وفد بعثه المصريون إلى

مؤتمر باريس الذى كان منعقداً بين الأطراف المنتصرة فى الحرب لتقسيم العالم فيما بينهم . وكان على رأس هذا الوفد تلك الشخصية القادمة من متوسطى الفلاحين : سعد زغلول . ومنذ ذلك التاريخ ظلت كلمة الوفد ـ تسمية لأكبر حزب سياسى مصرى . قام بتأليفه رفاق سعد زغلول حيث تم القبض عليه ونفيه إلى جزيرة مالطة . مما مهد لاندلاع ثورة سنة ١٩١٩ فى البلاد .

وفى النهاية وإزاء ذلك قامت بريطانيا وبصورة شكلية بإسقاط الحماية عن مصر وإستبدلتها « بالاستقلال» وغدا السلطان أحمد فؤاد أول ملك على البلاد . وفى نفس الوقت احتفظت بريطانيا بسيطرتها على الجيش والبوليس لتأمين مصالحها فى البلاد . كما إستمر إذعان الملك لإدارة الإنجليز .

ومات سعد زغلول فى سنة ١٩٢٧ ووجد الملك والإنجليز أنفسهم مضطرين لاستدعاء الوفد لتكوين حكومة وفدية برياسة زعيم الوفد فى ذلك الوقت النحاس باشا . ولكن هذه الحكومة لم تمكث طويلا حتى سقطت . ذلك أن المندوب السامى البريطانى لم يرتح إلى ما أجرته هذه الحكومة من إصلاحات . ولكن مالبث النحاس باشا أن أصبح رئيساً للوزراء مرة أخرى وذلك فى يناير سنة ١٩٣٠ حيث طالب فى المفاوضات الدائرة مع بريطانيا بالدعوة إلى خروج القوات البريطانية من مصر . وتوقفت المفاوضات وقام الملك فؤاد بإعطاء مقاليد الأمور لأحد الأشخاص الأقوياء

وهو المليونير المصرى إسماعيل صدقى باشا الذى اشتهر بالعسف والإضطهاد ومصادرة الحريات والأفكار المتحررة .

... لقد احتشد الناس أمام المنزل الذى كان يعيش فيه من قبل الزعيم سعد زغلول إنتظاراً لأن يخرج عليهم النحاس باشا خطيباً .

ونسى جمال ، شأنه فى ذلك شأن الجميع ، أنه منذ الصباح الباكر لم يتذوق الطعام . لقد سدت كل الشوارع المحيطة بجماهير المتظاهرين وانتظم الميدان الفسيح أمام البيت ، حيث قام سرادق ضخم تقف فيه أرملة سعد زغلول وزعماء حزب الوفد .

وحينما بدأ النحاس باشا فى إلقاء كلمته ظهر جنود الإنجليز يتصايحون ويهللون . وهبت الجماهير وانقضت على العصى والأعمدة الخشبية التى كانت تحمل سقف السرادق وتسلحت بها عوضاً عن البنادق ضد الإنجليز . ولم يجد الجنود الإنجليز سوى الإنسحاب ولكن أحدهم أطلق عيار نارى أردى أحد التلاميذ قتيلا عند الكوبرى .

وأحس جمال بضربة عنيفة على رأسه وسال الدم على عينيه وأنفه وعلى الفور قام زملاؤه بالالتفاف حوله وغطوا عليه بأيديهم بينما خر جمال مغشياً عليه .

وبسبب هذه الحوادث اضطرت الحكومة لوقف الدراسة لمدة شهر .

وقام الملك فى نهاية الأمر بالتراجع . وقام المصريون بالإحتفال بهذا الإنتصار . وجاءت حكومة الوفد ليوقع النحاس باشا فى أغسطس سنة ١٩٣٦ على معاهدة بين مصر وبريطانيا ، تم بموجبها الإتفاق على إنهاء الإحتلال البريطانى العسكرى لمصر ، كذلك ، وبموجب نفس المعاهدة أبقى على وجود أهم القواعد العسكرية البريطانية فى مصر بمنطقة قناة السويس . وعلى هذا فقد حققت مصر بموجب هذه المعاهدة إستقلالا صورياً وهمياً ، ولم يمض وقت طويل حتى أحس المصريون بأبعاده الوهمية : كذلك فإنهم لم يروا أى شىء قد تغير فى البلاد .

وبموجب معاهدة سنة ١٩٣٦ تم وضع قيادة الجيش المصرى تحت إمرة المصريين . ولكن تركيبه ظل كما كان فى الماضى حيث أراد الإنجليز . لقد اعترفت المفوضية البريطانية بطريقة لا لبس فيها بأن الجيش المصرى الذى أنفقت بريطانيا حوالى ٥٠ عاماً فى إعداده فى وضع يرثى له . حيث يتميز بكتائبه الإحدى عشر بالتسليح والإعداد السىء . ففى سلاح المدفعية لا توجد الذخائر والطلقات الكافية . كما غابت عنه الدبابات وأسلحة الدفاع الجوى . وكون حوالى ٣٤ طاقم طائرة كل السلاح الجوى المصرى ، وليس لديهم أى خبرة قتالية أو أى خبرة للقذف أو للمعارك الجوية ولقد كان جنود الجيش يأتون من بين فقراء الفلاحين ، ولا يوجد أى فرق بين حياتهم قبل وبعد الإلتحاق بالجيش . كما كان الضباط يختاورن

من العائلات الكبيرة المعروفة حيث يأخذون الخدمة فى الجيش كوسيلة لشغل الأوضاع الإجتماعية الراقية .

لقد كتب جمال بحزن شديد لأحد أصدقائه ويدعى حسن النشار « إن الموقف اليوم أصبح حرجا ، ولقد وصلت مصر إلى طريق مسدود . وإننى لأشعر أن البلاد أصبحت توجد فى وضع ميئوس منه وفى خيبة أمل واضحة » واستطرد متسائلا « من ذا الذى يستطيع أن يزيح عنا هذا الشعور ؟ إن الحكومة المصرية تعتمد على الفساد والمحسوبية . فمن ذا الذى يغير هذا الوضع إذن ؟ من ذا الذى يستطيع أن يصيح بالاستعمار ويقول له قف . دون أن يخر صريعاً كالكلب أين نجد وطنية سنة ١٩١٩ ؟ أين هؤلاء الرجال المستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل استقلال الوطن ؟ أين هذا الشخص المسئول الذى يعمل لبناء الوطن ؟ أين العزة والكرامة ؟ أين الوعى والروح الوطنية ؟ أين هذه التى تسمى الحركة الشبابية ؟ إن كل هذا ضاع وتلاشى ، والأمة تغط فى النوم وكأنها شخص يعيش فى خندق . من الذى يستطيع إيقاظها . ومن الذى يستطيع محو هذا النحس المقيم حتى الآن ، لست أدرى من هؤلاء وكيف سيكونون ؟ »

هكذا كان وضع البلاد فى سنة ١٩٣٦ ، حينما كان جمال مقبوضاً عليه لبضعة أشهر قبل إتمامه للدراسة فى المدرسة الثانوية . لقد بذل عبدالناصر أقصى مافى وسعه من أجل أن يتم ولده الدراسة ، ولهذا عمل بأقصى إمكانياته لكى يفرجوا عن إبنه ويصرح له بدخول

الإمتحان . حيث تمكن جمال من إتمام الدراسة بالمدرسة . ولم يكن مطروحاً أمامه أى خيار عما سيفعله فى المستقبل حيث كان يحلم بطريق واحد وهو أن يكون ضابطاً . وما لبث جمال إلا وقد مثل أمام لجنة القبول بالكلية الحربية .

— إسمك ؟

— جمال عبد الناصر :

— ماعمل والدك ؟ سأله ضابط بعد فترة صمت وهو ينظر إليه متفحصاً وقد اتكأ على مقعد وثير مغطى بسماط أحمر .

— يعمل فى مصلحة البريد .

ولكن الضباط الجالسين على المقاعد الوثيرة تبادلوا النظرات .

— وسأل أحدهم : فى منصب كبير ؟

— لا إنه مستخدم عادى — أجاب جمال والحمرة تعلو وجهه .

— ماهو محل ميلادك ؟

— محافظة أسيوط قرية بنى مر .

— إذن فهل أنتم فلاحون ؟

وجهها الضابط وعمل جاهداً على ألا يظهر أحاسيسه . وفى نفس الوقت ظلت عيناه متعلقتان بجمال مهتمة بفضول واضح لمعرفة الجواب .

— نعم ، قالها جمال بهدوء .

— هل يوجد فى عائلتك أى ضابط ؟

— لا يوجد .

— ولماذا اخترت أنت أن تلتحق بسلك الخدمة العسكرية ؟

— كى أهب حياتى لبلادى .

أردف الضابط : هكذا قال الجميع ، شىء عادى . ولكن مالبث أن صاح : ولكن لماذا هذه الجملة بالذات تتردد على شفاه هؤلاء الشباب . بعد ذلك لف الحجرة صمت شديد ربما كان فيه الممتحنون يفكرون ويتساءلون : لماذا هم لم يعطوا حياتهم للوطن ؟ ويخدمون فقط من أجل الترقى إلى الرتب الكبيرة .

— هل تملكون شيئاً ؟

— لا يوجد ، أجاب جماو وهو يحس بالإرتباك .

— هل هناك أحد أوصى عليك ؟

— لا يوجد .

— هل اشتركت فى مظاهرات الطلبة ؟ وكان السؤال الأخير والحاسم . الذى وجهه رئيس اللجنة .

— نعم .

— وهو كذلك — ودق رئيس اللجنة على المكتب بأصبعه وقال : تستطيع أن تنصرف .

وعبثاً أخــذ جمال وأسرته يبحثون عن اسمه فى كشوف المقبولين بالكلية الحربية . لقد كان هناك أمل فى الماضى . ولكن الآن ضاع الأمل وأصبح السؤال الذى يعذبه : ما هو العمل بعد ذلك ؟ المدرسة وقد أنهاها ، أبواب الكلية الحربية وها هى قد أوصدت فى وجهه ، وأقاربه يريدون الضغط عليه من أجل أن يدخل كلية (مدرسة) الشرطة لهم معجبون بالبزة السوداء وبمركز ضباط البوليس الذين يأتمرون بأمر الجنرال الإنجليزى راسيل .

لقد تذكر جمال الصدام بين الطلبة والتلاميذ مع البوليس ، هذا الصدام القريب الذى شارك فيه هو شخصياً ومازال بوجهه آثار جروح تركتها طلقة رصاص البوليس ، شخص واحد فقط فى العائلة هو الذى يؤيد جمال أنه الحاج حسين جده ذلك الرجل الذى يعضد وجهة نظر حفيده فى عدم الانضمام إلى البوليس ، ولا حتى هذه المساندة تعفى جمال من البدلة السوداء ولكن الأساس يرجع إلى هـذه الأحداث السابقة حيث كان مقبوضاً عليه . لقـد عرف ناصر أن هذه الأحداث هى التى حالت بينه وبين الكلية الحربية . ولكن جمال حسب كذلك أنه لن يحوز مطلقاً ثقة الشرطة فالكل سيعتبرونه طالما ينحدر من أصلاب الفلاحين مجرد إنسان دخيل عليهم ، إن أبناء كبار الملاك فقط هم الذين يستطيعون أن ينضموا إلى صفوف الضباط ، هكذا فكر جمال فى الحل العسكرى بالنسبة له . لذلك وجد أنه لابد من البحث عن طريق آخر .

إن القانون فى البلاد العربية ودراسته تمكن الكثيرين من المشاركة النشطة فى الحياة السياسية للبلاد ، فعلى سبيل المثال المحامون هم الذين يمتلكون الحق فقط فى الحصول على تصريحات لإصدار صحف ومجلات ، وفى الولوج إلى المنظمات الاجتماعية والأحزاب ، ومنذ الوهلة الأولى نجد أن جمال قد شارك منذ سنوات عمره الأولى فى الكفاح الذى خلق مجموعة من الشباب الثورى ، وبأخذ هذا فى الحسبان فإن كلية الحقوق بجامعة القاهرة تعتبر ميزة له فى هذا المجال ، بل وتفضل فى ذلك الكلية الحربية ، حيث أنها تعتبر أحد الحقول الديموقراطية الهامة فى مصر آنذاك .

وفى مصر فى الثلاثينات كان هناك كثير من أبناء الفلاحين يتلقون التعليم بالجامعة حيث يذهبون فى الإجازة الصيفية لمعاونة أهاليهم بالحقول ، وفقط فى نهاية سبتمبر حينما يجنون القطن يقوم الأهالى بتسويقه وقبض النقود ثم يعطون المصاريف الدراسية : ولهذا السبب نجد أن السنة الدراسية تبدأ فى مصر عادة فى الأيام الأولى من أكتوبر ، وعليه فإن جمال لم تفت فرصته فى الالتحاق بالجامعة ودخل كلية الحقوق حيث ساعدته نوعية الدراسة على إشباع هوايته فى الاطلاع ولكنها رغم ذلك لم تمح حلمه فى أن يلتحق بالسلك العسكرى . فبعد أن أمضى نصف عام دراسى فى الجامعة عرف أن الكلية الحربية تطلب دفعة إضافية .

فى هـذه المرة نشط جمال لاتباع أسلوب آخر حيث قرر أنه يؤمن دخوله إلى الكلية الحربية باستنادة على أى شخصية كبيرة . وفعلا استطاع بمساعدة عمه خليل التوصل إلى وساطة لدى ممثل سكرتير وزارة الحربية الجنرال إبراهيم خيرى باشا . ورغم أن جمال كان يمقت هـذا المسلك إلا أنه وجد أنه الطريق الوحيـد . ولقد عمل بالمثل العربى الشهير « اغمض من بصرك إذا دخلت بيت العميان » لقد أخذ اللواء خيرى جمال إلى منزله ودار بينهما حديث مفتوح وطويل . وكان اللواء خيرى شخصياً مهتما بتربية كوادر وطنية من الضباط لذلك استمع بجمال بإمعان شديد وأعجب بهذا الشاب وبجديته ، لذلك وعده بتعضيده فى الدخول إلى الكلية الحربية .

لقد شهدت قاعات المحاضرات وساحات التدريب بالكلية فى الثلاثينات ولأول مرة فى التاريخ طلبة مصريين قادمين من أصلاب الفئات الوسطى بالمجتمع . فلم يكن جمال وحـده . ولكن وجـد بجواره عبد الحكيم عامر وأنور السادات وحسين الشافعى وخالد محى الدين وابن عمه زكريا محى الدين وآخرين ممن كونوا بعد ذلك قيادة ثورة ١٩٥٢ ، ودخلوا أساساً الكلية الحربية فى هذه السنوات المشار إليها . إن ناصر ورفاقه كونوا عناصر جـديدة فى حد ذاتها بالنسبة للنوعيات المتواجـدة بالجيش آنذاك . يتحلون بالطاقة

والوعى الوطنى ، كما أنهم مستعدون لأن يهبوا شبابهم من أجل تحقيق استقلال وطنهم .

ومنذ أن التحق جمال عبد الناصر بالكلية الحربية فى مارس سنة ١٩٣٧ وهو يضع نصيب عينيه هدفا « محدداً » وهو أن يكون طالباً متفوقاً لكى يتخرج كأحسن ضابط . وفعلا مالبثت قيادة الكلية أن اختارته كرقيب لدفعته . وفى سنة ١٩٣٨ عين رقيباً على الدفعة الجديدة حيث تعرف على أحسن فرد فيها وأكثرهم انضباطاً وصار فيما بعد أقرب الناس إلى قلبه ، ذلك هو عبدالحكيم عامر . وفى الوقت الذى أطلق فيه الطلاب على جمال « جيمى » وسموا عبد الحكيم عامر « روبنسون » وذلك لصبره وحبه للمغامرة . وبسرعة وأثر امتحان مفاجىء كوفىء جيمى بأن أخذ رتبة « الأنباش » عريف . لقد كان المنهج الدراسى للدفعة فى الكلية الحربية آنذاك يستغرق ثلاث سنوات ولكن فى سنة ١٩٣٨ احتاج الجيش إلى مجموعة من الضباط الجدد مما دعى قيادة الكلية إلى اختصار هذا الكورس بالنسبة لدفعة جمال ، وخلال ستة عشر شهراً فقط كان جمال يتقدم لاختبار الإمتحان النهائى للتخرج . ولقد حصل عبد الناصر على مجموع كلى بنسبة ٧١٪ وهو يعتبر أعلى تقدير فى الدفعة وبيان درجاته كالآتى : « فى العلوم والرياضيات أخذ ٨١٪ وفى القيادة والتنظيم حصل على ٩٥٪ وكانت أقل درجاته فى التاريخ

العسكرى حيث حصل على ٦٨ ٪ (ولقد كان هذا غريباً ذلك أن التاريخ كان مادته المفضلة فى المدرسة الثانوية) » .

لقد كان جمال أثناء دراسته بالكلية الحربية يقضى معظم وقته فى المكتبة وكان مما قرأه بعض الكتب باللغة الإنجليزية . ولقد ركز معظم قراءته فى التاريخ العسكرى والسياسى حيث قرأ كثيراً من التراجم عن نابليون وبسمارك وكمال اتاتورك ولقد كان «جيمى» شغوفاً بالاطلاع فى المشاكل الاقتصاديةالخاصة بالشرق الأوسط.

وفى صيف سنة ١٩٣٨ بعث جمال برسالة إلى جده وباقى أقاربه فى بنى مر يخبرهم بأنه بمجرد أن يتخرج سوف يعمل ويعيش قريباً منهم بمعسكر منقباد .

وها هو الملازم جمال عبد الناصر يذهب إلى مكان خدمته فى تلك البقعة التى يهفو إليها قلبه والتى تستحق بجدارة صفة الوطن . لقد وقف ينظر من خلال شباك عربة القطار العسكرى ويتذكر طفولته ببنى مر ومنزل جده ، وأخذ يسرح فى ماضيه ويتذكر بل ويكاد يشم رائحة الخبز المنزلى الساخن حينما كان يحشو به جيبه ومنظر وداعه لاترابه الصغار من أولاد الفلاحين . وكيف كان جمال يسعد وهو يذهب ممتطياً ظهر الحمار إلى أسيوط لزيارة والده . آه لهذه السنوات التى عايشها بنفسه والتى يراها الآن حينما يرى الفلاحين الذين يكدحون فى الحقول « بجلاليبهم » الفضفاضة . لقد كتب

جمال بعد فترة من الزمن إلى صديقه حسن النشار يقول : « بالأمس بدأت خدمتي العسكرية بمنطقة منقباد ، هذه البقعة الرائعة والشاعرية التي تحتل ركنا من المعمورة ، فحول المعسكر تنتشر الجبال والرمال الصفراء كما تحيط بها الأراضي الخضراء والرياض التي تنساب فيها القنوات الهادئة ، ففي الشمال تجد الحقول وفي الجنوب تشاهد سلسلة من الجبال . ترى عندها الصحراء الشرقية وكأنها قد مدت يدها لتصافح بها يد الصحراء الغربية ، وإنه لمن دواعي السعادة لي بأن أخبرك أن شخصيتي كما هي لم تتغير ، فجمال الذي يعيش الآن في منقباد هو جمال بذاته الذي تعرفه من قبل — ذلك الشخص الذي ما زال يبحث عن بواعث الأمل التي ما تلبث أن تتلاشى كموجات السحب » .

لقد أصبح كثير من الذين عايشوا جمال في منقباد أصدقاء له ، ولقد استمرت هذه الصداقة ودخلت إلى مجال العمل حيث التحق بعضهم بتنظيم « الضباط الأحرار » فيما بعد .

واعتقد جمال أن الجيش المصري سوف يهب في النهاية للكفاح من أجل الحرية وتنظيف البلاد ، ولقد دعم عقيدته هذه نظرته للتاريخ المصري وإلمامه به ، فها هو محمد علي القائد المشهور الذي استطاع في النصف الأول من القرن الماضي أن يحرز عدداً من الانتصارات الضخمة على الجيش التركي ولم ينهزم قط إلا حينما

عضدت الجيوش الأوربية الجيش التركى لكى تجهز على قوته الوليدة ، ألم يفر نابليون شخصيا من مصر ؟.

فى سبعينات القرن الماضى تكونت فى الجيش مجموعة ثورية حيث أطلق عليها أعضائها أنهم « مجموعة الضباط الأحرار » فكم هى تسمية رائعة « الضباط الأحرار » هكذا كان يفكر جمال — هؤلاء الضباط الذين انتظموا حينئذ للدفاع ضد التسلل البريطانى فى مصر وللمطالبة ببعض الاصلاحات التقدمية كما أنهم كافحوا بإخلاص لإرساء قواعد النظام الجمهورى بالبلاد آنذاك » .

ولم يدع جمال أى فرصة أو لقاء يمر عليه حينما يقابل زملاءه إلا ويذكرهم بانتفاضة عرابى باشا ، أول من قال بأن الجيش يجب أن يكون فى خدمة الشعب ، لقد كانوا دائمى التحدث عما حدث يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ حينما قاد أحمد عرابى باشا قواته واتجه إلى ميدان عابدين حيث يوجد القصر الملكى الذى يسكنه الخديوى الجبان توفيق الذى ظهر من شرفة القصر وبجواره القنصل الانجليزى العام حيث سألهم الخديوى قائلا :

— لماذا أتيتم إلى هنا ؟

— وكان عرابى باشا يقف مستنداً على سيفه .

— لقد أتينا لكى نعرض مطالب الشعب والجيش العادلة .

قالها عرابى وهو يمسح بيديه على شاربه .

— أية مطالب ؟ قالها الخديوى والعجب يرتسم على وجهه .

— نحن نطالب بتغيير الوزارة التى يمقتها الشعب وندعوا إلى دعوة البرلمان .

هنا حاول القنصل الانجليزى أن يشجع الخديوى .

— ما أنتم إلا عبيد إحساناتنا وليس للعبد الحق فى المطالبة بأى شىء !

قالها الخديوى وهو يصيح وقد انتابته الهيستريا .

— لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا ، ولانستعبد أو نورث بعد اليوم هكذا هتف عرابى باشا .

لقد كان جمال يفكر دائماً ويتخيل ذلك الوقت الذى يستطيع أن يقف فيه هو ورفاقه بشجاعة ضد الظلم والاستبداد مستكملين بذلك الكفاح الذى بدأه عرابى باشا .

لقد أخذ جمال وضعه فى منقباد وسط الحامية التى تتكون من ثلاثة آلاف من الشباب الظامئين لعمل الضباط بعد مللهم من عيشتهم الكئيبة والمملة ، وكان الجميع يقضون أوقات فراغهم فى النقاش العنيف حول مصير ومستقبل البلاد ، وأحيانا كان جمال يأخذ

بعض أصدقائه ويذهبون إلى بنى مر حيث يستقبلهم الحاج حسين وهو فخور بحفيده الضابط ويرحب بهم أشد الترحيب ، وكانوا غالباً ما ينتظرون عنده حتى يتناولون الغذاء الريفى الذى يسعدون به ويجعلونه مادة للتذكر والحديث عنه حينما يرجعون إلى معسكرهم .

وفى إحدى أمسيات يناير ١٩٣٩ قام جمال مع أصدقائه للتمشية فى الصحراء وعند سفح جبل الشريف بينما كانوا يجلسون وأمامهم نيران قد أشعلوها بغرض شواء أبو فروة وهم يتبادلون النكات والضحكات هب جمال واقفاً وقال بصوته الهادىء المعتاد :

— دعونا يا أصدقاء نفعل ما لا يجعل معرفتنا معرفة اليوم فقط ولكن يجب أن ننمى روح الأخوة الحقيقية بيننا .

لقد كان جمال متأكداً من أنه لا بد وأن يوضع فى القائمة السوداء نتيجة لما يطرحه من أفكار تحررية وسط ضباط الحامية وبطريقة مكشوفة وأن هذا الوضع سيحمل له بعض الإجراءات التى ستؤثر على دوره فى الترقى العسكرى . بل لم يقف الأمر عند هذا فإن رئيسه طلب نقله إلى السودان الذى كان يقع آنذاك تحت الإدارة المصرية الانجليزية . كذلك فقد أضيف إليه فى هذا الطلب عبد الحكيم عامر .

وفعلا ما لبث الأصدقاء إلا وقد انتقلوا إلى الخرطوم فى القيادة العسكرية المشتركة ، حيث اعتبروهم هناك من الضباط المغضوب

عليهم . لقد وجدوا أنفسهم فى وحدة عسكرية يحب قائدها الشرب ولكنه يكره أن يشرب وحده . لذلك فإن الضباط يجدون أنفسهم بحكم التقاليد العسكرية مضطرين لأن يكونوا ندماء له .

وفى إحدى الليالى تم دعوة الملازمين الصغيرين للمشاركة فى الاحتفال بعيد ميلاد القائد الذى لاحظ عزلة هؤلاء .

إن منظر الضباط الزرى وعيونهم الزائغة كانت تبعث فى جمال الشعور بالتقزز ، لقد كان يحاول أن يتماسك بصعوبة ، ولهذا أجاب بلطف وإن كان ممزوجا بدرجة من الشدة الكافية بأنه لا يستطيع أن يشرب . وفى هذه اللحظة انغلق باب « الميس » بشدة . وهنا رمق القائد هذا الضابط المبتدىء بنظرة من قدميه حتى رأسه ورفع إليه الكأس وأمره بالشرب . ووقف جمال ممتقع اللون وهو يحمل بيده الكأس ويراقب القائد الذى أخذ يفرغ فى جوفه الكأس تلو الآخر ، أخذ ناصر يتلفت حوله ثم لمس عامر فى مرفقه وقال له أنظر ثم أشار إلى الشباك حيث كان أحد الأصدقاء يثب من خلال النافذة لكى يجد نفسه بعد ذلك فى الشارع . وخلال بضع دقائق أخذوا يضحكون وهم يشقون طريقهم إلى السينما .

ولكن القائد فهم ذلك على أنه إهانة شخصيـــة موجهة له ، وذات مرة حينما ذهب عامر فى مأمورية طلب القائد جمال إلى مجلسه وأخبره بأنه سيبعث به إلى حامية بعيدة فى جبل الأولياء .

ولم يستطع ناصر أن يتابع الكلام بانتظام حيث أخذ يفكر : ماذا يجرى فى القاهرة الآن وبالطبع فإن العيش فى الخرطوم له عديد من الميزات . وقد أصبح واضحاً أن مجرد الخروج من الخرطوم هو بمثابة عقاب .

وتم هذا فعلا ، لقد ظل جمال عبد الناصر فى هذه الفترة مكدودا ولم تكن له من تسلية غير مداعبة أحد القرود حيث كان قد اشتراه من أحد مروضى القرود المتجولين وأحضره معه فى قفص .

وحينما عاد عبد الحكيم عامر من مأموريته لم يجد ناصر فى الخرطوم . ولكن وجد فقط وظيفة جديدة تنتظره فى كسلا . وفى الحال أدرك عامر أن هذه مكيدة من القائد . ولهذا قرر أن يظفر بالانتقال إلى جبل الأولياء ليكون مع جمال . وخرج من عند القائد حيث ذهب إلى نديمه رئيس الأركان وأخبره بفرح شديد من تلقيه لخبر نقله إلى كسلا ، وهنا اغتاظ رئيس الأركان ، وفى اليوم التالى وجد عامر أمرا بنقله إلى جبل الأولياء . وهكذا ظفر الأصدقاء بالعيش سويا .

فى هذه الأثناء كانت نيران الحرب العالمية الثانية قد اندلعت فى أوربا ، ووضح لدى الانجليز والألمان على السواء — فى تقديراتهم الاستراتيجية — مدى أهمية موقع مصر . وما لبثت نيران الحرب

أن امتدت إلى مصر ، وبدأت دقات طبول الحرب تدوى ، وأصبح كل شىء فى مصر موضوعا تحت تصرف القيادة العسكرية البريطانية . الصناعة والمواصلات وحتى الناس — وقامت الحكومة المصرية بقطع علاقاتها بألمانيا ثم بعد ذلك بإيطاليا ، فى الوقت الذى كان فيه الملك فاروق — الذى حل مكان أبيه فؤاد — وعدد من الوجهاء المحيطين به ، يتعاطفون مع هتلر .

لقد كان الرأى العام فى مصر فى أغلبيته مضادا للفاشية حيث التفت الجماهير حول حزب الوفد المصرى ، وإن لاحظ الكثير من المحايدين أنه كان يوجـــد لدى بعض الوطنيين قدر كبير من السذاجة ، انعكس فى تفكيرهم بأنه طالما يحتل الجيش الانجليزى مصر فإن أى مساعدة أو عون يقدم لألمانيا الفاشية أو لإيطاليا ، سيساعدهم على تحرير بلادهم من الاستعمار الانجليزى ، وبالطبع لم يكن هؤلاء يفهمون بصورة جيدة طبيعة الأيديولوجية الفاشية ووحشيتها ، وقد لعب العملاء الألمان دوراً نشطا فى مصر آنذاك للتأثير على هذه الأدمغة والرؤى الخاطئة ، وتمكنوا فعلا من إقامة اتصال ما مع « مصر الفتاة » التى بدأت تقوم ببعض الأعمال التخريبية ضد الانجليز .

وفى عام ١٩٤٠ تمكنت القوات الإيطالية من اقتحام مصر من ناحية الحدود الليبية بادئة باستخدام أسلحتها الميكانيكية وفى

مقدمتها الموتوسيكلات ثم الدبابات والمشاحنات وباقى الآلات الحاملة للمشاة والمدفعية ، حيث قامت باحتلال قرية صغيرة اسمها سيدى برانى ، وبعد ذلك خرجت متوجهة إلى مطروح من خلال الطريق الأسفلتى وذلك فى طريقها إلى الاسكندرية ، ومن هذا الطريق يمكن بعد ذلك الهجوم على قناة السويس ، ولم يكن لدى الانجليز فى ذلك الوقت القوة الكافية للمقاومة الفعالة ، لهذا أمر الجنرال ويفل بالتراجع وتلغيم الطريق وتفجير الطريق الأسفلتى وردم الآبار فى هذه المنطقة ، وقد أنقذ الانجليز وجود الجنرال الإيطالى المتردد جراتسيان حيث لم يتجاسر على مواصلة الهجوم ، بالإضافة إلى هذا قام الأسطول الانجليزى بسرعة لملاقاة العدو فى سيدى برانى ، وفى نفس الوقت هبت القوات الألمانية لمعاونة الإيطاليين وذلك تحت زعامة الجنرال روميل الذى كان يستخدم الدبابات ذات المدفعية الثقيلة ، وبدأ الفاشيون فى شبه هجوم جامح .

فى هذه الأثناء قامت دوائر القصر فى القاهرة بتنظيم مظاهرات خرجت تهتف « تقدم ياروميل » ، هنا حرك الانجليز الدبابات للالتفاف بالقصر الملكى مطالبين إياه بتشكيل وزارة جديدة من حزب الأغلبية «حزب الوفد» وبالطبع خضع الملك على الفور .

ومرة أخرى عاد النحاس باشا إلى السلطة ، ولكنه فى هذه المرة تقلد هذا المنصب بأوامر الانجليز ، لقد أدرك الانجليز أنه لا بد من وجود حكومة تحظى بالمساندة الشعبية كى يستتب الأمن

والنظام فى هذه الأوقات العصيبة ، ولقد قام النحاس باشا على الفور بإجراء عـــدد من الإصلاحات حيث خفض الضرائب على الفلاحين ، وأباح تكوين النقابات وأقر مجانية التعليم الابتدائى .

وحينما وقعت هذه الأحداث كان جمال عبد الناصر بعيداً عن الوطن حيث كان فى جبل الأولياء ولم يستطع أن يقدر الموقف تقديراً سليما ، وكان ناصر يؤيد ذلك الموقف الذى تكون فيه مصر على الحياد ولكنه كوطنى متحمس أثارته طريقة تعيين الوزارة الوفدية التى جاءت إلى الحكم بواسطة الانجليز الذين لا يحرصون إلا على مصالحهم بالطبع ، وفى اليوم الذى كان فيـه الانجليز يوجهون إنذارهم النهائى إلى الملك فاروق انتقل ناصر إلى مصر .

أثناء ذلك تعقد الموقف العسكرى على الجبهة ، فنى مايو ١٩٤٢ قام روميل بشن هجوم على القوات الانجليزية اضطرها فيه للانسحاب إلى العلمين التى شهدت فيما بعد المعركة الفاصلة التى اندحر فيها جيش روميل .

٢

ذات يوم وصل ضابطان مصريان من مرسى مطروح والتقيا بناصر وقالا له أنهما قد حضرا إليه بناء على أمر من أنور السادات، فتفحصهما ناصر وبعد ذلك استمر فى رعايتهما. وبمجرد عودته إلى مصر بدأ يلتف حوله مجموعة من ضباط الجيش من الذين تجمعهم وحدة الموقف والنقمة على الاستعمار الإنجليزى. فى ضاحية أبو زعبل التى خدم فيها ناصر بمجرد رجوعه من السودان تمكن من الالتقاء بمجموعة من شركاء الرأى الذين وجدوا فيه أيضاً شريكا لهم. ولقد عرف ناصر أثناء ذلك أن السادات مقبوض عليه. ولقد استطاع البوليس أن ينشر عملاءه، وفى هذه الفترة ما كان ناصر يغفر لنفسه لو أن مجموعة الضباط الوطنيين قد سقطوا فى يد البوليس. ولهذا أخذ يتلمس الظروف ليعرف من الضباط ما إذا كان أحدهم يمتلك شقة بالقاهرة ليدبروا فيها عملية التقائهم، وفعلا تمكنوا من الحصول على منزل أحد الشيوخ بالأزهر.

وفى صباح اليوم التالى توجه ناصر إلى العنوان المذكور، وقبل أن يدخل البيت أخذ يستكشف المكان بمنتهى الحرص. لقد كان المكان يبدو مريحاً له. فالبيت يقع بجوار أحد المساجد

فى حى شعبى قريب من الأزهر ونادراً ما يتجول فيه الإنجليز . ومع ذلك فقد كان مالك المنزل يعتبر أحد الموالين لرجال السلطة .

وظل ناصر ينتظر فى حجرة صغيرة خانقة كان لا بد لمن يصل إليها أن يعبر ممراً شبه مظلم بعد أن يجتاز السلم للطابق الثانى . إلى أن أتى زملاؤه وهكذا ، وفى تلك الحجرة المحبوسة الهواء اجتمع خمسة أشخاص . .

وبدأ جمال الاجتماع مهنئاً بانضمام ضابطين جديدين ثم طلب إغلاق الباب ، ثم قام بتقديم الزملاء الجدد للقدامى وبالعكس وذلك حتى يتعرفوا على بعضهم :

— لقد قلتم لى أنكم تودون المشاركة فى الكفاح من أجل حرية الوطن . هكذا قال ناصر . ورد الضباط بالإيجاب وبالإيماء برؤوسهم علامة على الموافقة .

— هل تفهمون ماذا سيعنى هذا وكم سيتكلف من أعباء ؟

— نعم نحن نعرف هذا جيداً ونعلم أيضاً أن بعض رفاقنا الآن معتقلون .

— حسناً . إذن دعونا نتناقش سوياً فى هذا . قال ناصر هذه الكلمات ثم استطرد بأن تسمية « الضباط الأحرار » تصلح تماماً كإسم للتنظيم القائم فعلا فى الجيش . حيث يتسع لكافة العناصر

الوطنية والتى تهتم بعالم الأفكار وتتبنى منه مايصلح لتحرير الوطن ، كما أن هذا التنظيم على استعداد لتدعيم كافة الاتجاهات الوطنية وأن ليست هناك أيديولوجية معينة ينجذب إليها ناصر فى هذه الفترة .

ثم أضاف ناصر قائلا لأحد الضباط بأنه تنظيم يقوم على ثلاثة مبادىء أساسية هى :

أولا : الصداقة التى يجب أن تسود بين جميع الضباط الأحرار بصورة أكثر من رابطة الدم .

ثانياً : السرية التامة .

ثالثاً : الحب غير المحدود لشعبنا ووطننا .

وهكذا أقدم ناصر على أعمال قد يدفع حياته ثمناً لها حيث أخذ يستغل وجوده بالقاهرة ويقوم بالتحدث مع الضباط الذين تربطهم به معرفة قديمة ، وبصفة خاصة هؤلاء الذين يحسون بالاستياء من الأوضاع السائدة ويفاتحهم على أنه ممثل لتنظيم «الضباط الأحرار» الذى يكافح من أجل تحرير مصر .

وهكذا خطوة بخطوة تمكن من ضم بعض الأعضاء الجدد إليه ، وبعد ذلك أدرك ناصر أنه يجب على تنظيم الضباط الأحرار أن يبدى نشاطاً أوسع خاصة فى جمع التبرعات لأسر الرفاق المعتقلين . ولقد كان جمال يخشى الانتقال مرة أخرى إلى مكان آخر مما سيؤثر

فى عمل التنظيم ، ولكن سريعاً ما عين محاضراً فى الكلية الحربية وفعلا تسلم ناصر وظيفته الجديدة وأصبح عليه الآن أن يستعد لدخول امتحان أركان حرب ، وبدأ يسهر الليالى بالمكتبة ، وكان جمال فى نهاية الحرب قد أصبح نقيباً « يوزباشى » .

لقد أصبح جمال بذلك شخصاً مشغولا تحفل حياته بكثير من الأعباء ، فعليه أن يستعد للامتحان من جهة ، ومن جهة أخرى عليه أن يواصل عمله فى تنظيم الضباط الأحرار ، ولهذا كان لا يظفر بأى وقت من الفراغ . فى الوقت الذى تمارس فيه كل هيئة التدريس بالكلية حياتها بلا أى طائل وبعدم مبالاة واضحة ، فمنهم من ينفق وقته فى لعب القمار والورق ، ومنهم من يقضى كل وقته فى مطاردة النساء ويستمتع بمصاحبتهن فى الرقص .

ولكن ناصر كان يشغله شيء واحد هو استقلال وطنه ، فقط كان يسمح لنفسه ولمرة واحدة فى الأسبوع بأن يذهب إلى صديقه القديم عبد الحميد كاظم المتقد وطنية ، والذى كان جمال قد تقرب منه أثناء إقامته مع عمه خليل فى القاهرة ، وقد جمعتهم الظروف مرة ثانية حيث تقابلا بعد أن تسلم جمال عمله كمدرس فى الكلية الحربية . وكان عبد الحميد كاظم يسكن فى منشية البكرى ويمتلك ورشة متواضعة لصناعة البسط والسجاجيد ، حيث يقوم فيها بتجديد السجاجيد العجمى المشهورة والسجاجيد المصرية ذات

النقوش والزخارف الفاطمية ، والسجاجيد الأخرى ذات الأنسجة المشجرة وارد أسبانيا .

سنوات عديدة مرت على معرفة ناصر بعبد الحميد كاظم ، وهاهو ذا الأخير قد أصبح الآن أرمل وزوج إحدى بناته ، أما الأخرى « تحية » فكان جمال يعرفها ولكنه لم يرها منذ كانت صغيرة ، ولكنها الآن قد شبت وتحولت إلى فتاة جميلة سوداء العينين ، وكانت تحية قد تلقت قدراً من التعليم الكافى بالقياس إلى عامة فتيات مصر انذاك ، ومع ذلك فقد كانت تربية تحية قائمة على بعض الأسس القديمة ، فلم تكن تجرؤ — شأنها فى ذلك شأن كافة النساء اللاتى يعشن حولها — أن تحضر مجالس الرجال أو مناقشتهم . ولكنها تستطيع فقط أن تحضر للحظة أمام الضيوف ، ولهذا فإن كاظم لم يعبأ بأن ناصر صديق له حينما قدم إليه تحيه ثم أمرها على الفور بأن تغادر الحجرة .

وكثيراً ما كان جمال يصطحب معـــه عبد الحكيم عامر أثناء زيارته لعبد الحميد كاظم وكانا يقضيان وقتهم فى النقاش حول ماضى مصر وحاضرها ومستقبلها . وفى هذه الأثناء كان كاظم ينادى ابنته ساعة النقاش واحتدامه لكى تعد لهم الشاى ، وكانت تحية تدخل حينئذ خافضة عينيها لكى تقدم الشاى للضيوف ، وفى إحدى المرات كانت تحية تقدم الشاى فلمست يدها يد جمال الذى نظر إليها فلاحظ

عليها الارتباك الكامل والارتعاد الذى بدا فى عينيها . فى هذه اللحظة تذكر أمه لسبب لا يدريه .

ومرت عدة أسابيع ولم يذهب جمال لزيارة عبد الحميد كاظم ، وفى أحد الأيام بينما كان الرجل يقترب من بيته الحبيب لمح شخصاً غريباً يجلس فى رداء ضابط وقد خلع سترته ووضعها على مسند الكرسى الذى اتكأ عليه وفى يده كوب من الشاى .

— استمر فى جلستك . هكذا طلب كاظم من جمال ، ولكن جمال تململ فى جلسته ومع ذلك لم يلحظ كاظم أى شىء ولم يلبث أن دخل إلى المطبخ حيث حضر ومعه الشاى .

— هنا سأله جمال : إذن أين تحية اليوم ؟

— فأجاب كاظم : لقد ذهبت لزيارة أختها . واستمر فى التحدث إلى الضابط الذى لم يبدى أى ميل لمقاطعته فى الحديث .

ومضى أسبوع وأتى جمال إلى زيارة كاظم ، وفى هذه المرة — وكالعادة — أحضرت تحية الشاى وعيناها تفيضان بالحزن .

عندئذ قرر جمال ألا يذهب مرة أخرى إلى بيت كاظم ، ولكن عينى تحية الحزينتين كانتا تطاردانه دائماً خاصة حينما يخلو إلى نفسه وتلح عليه فى تذكر أمه .

وما هى إلا ثلاثة أسابيع حتى ذهب ناصر ليشرب الشاى مع

صديقه القديم كاظم ، ولكن هذه المرة كان مصمما على شيء جديد ، لم يسمح فيه لنفسه هو والآخرين أن يأخذوا رشفة شاى إلا وقد فاتح كاظم فى خطبة ابنته تحية له .

— هنا أجابه كاظم على الفور بأنه يرحب بذلك .

— ولكن جمال أردف : ألا تأخذ رأى تحيـة فقد لا يعجبها الضابط ، وأنها هى شخصياً لا تريده ؟

ولقد كانت عادات المصريين آنذاك لا تسمح للشـباب أن يفاتحوا بعضهم بعضاً فى أمور زواجهم ، كما كان الزواج عن حب من الأشياء النادرة جداً هذه الأيام ، وغالباً ما كان الأبوان يقومان باختيار العروس لإبنتهما .

ولهذا قال كاظم :

— « إن تحية ليس لها رأى فى مثل هذه الأمور » ولكن جمال تمسك بهذا المبدأ وقال :

— أسألها وسيكون الأمر كما تريد هى .

وعلى الفور سألها والدها ، أجابت تحية وهى خافضة ناظريها وغير قادرة على النظر إلى الرجل بـ « نعم » .

بعد ذلك تم إعلان خطبتهما وأصبح الاثنان قادرين على الجلوس

معاً بمفردهما ، وخلال شهرين كان عرسهما ، ولقد كانت أول هدية قدمها جمال لتحية بعد زواجهما هى شراؤه « جرامافون » لأنها كانت تحب الموسيقى وكان الاثنان يصطحبان بعضهما ويتجولان لشراء الاسطوانات التى يسمعانها سوياً فى المساء .

وقال لها جمال : لا يهمك حينما تتوافر لدينا نقود سوف أشترى لك بيانو .

وهكذا ولأول مرة لمس جمال أنه ومنذ وفاة والدته قد أصبح يملك بيتاً . فكان بمجرد انتهاء عمله يسرع إلى زوجته حيث كانا قد أخذا شقة منفردة تحتوى على أربع غرف وتقع فى حى منشية البكرى ، وكانت تحية تخرج بنفسها وبسعادة واضحة لشراء حاجيات منزلها وتقوم بإعداد أحب الأطباق لجمال .

وأحياناً ما كان يأتى أقاربه لزيارته فى منزله فتقابلهم تحية بالترحاب وتبدى لهم كامل الاهتمام ، ولهذا كان هؤلاء الأقارب كثيراً ما يكثرون من زياراتهم لبيت جمال . كذلك فقد تزوج عبد الحكيم عامر هو الآخر ، وقام جمال بشراء سيارة ليست كبيرة سوداء اللون وماركتها أوستن ، وكانوا جميعاً يذهبون للتجوال بالعربة بالمدينة فى المساء .

وسرعان ما توفى عبد الحميد كاظم ولكنه مات وهو على يقين

بأن ابنته تحية على وفاق وسعيدة مع هذا الضابط «جمال عبد الناصر» . وبعد ثلاثة أشهر من زواج جمال وتحية اكتشفت تحية أن هناك ثمة أشياء غامضة تجرى حولها بالبيت وتدعو إلى الشك ، ومع ذلك لم توجه بشأنها أى سؤال ، وظلت تؤدى مهامها كربة بيت وهى مشغولة بهذا إلى أن جاء الأطفال فتعاونت هى وجمال على تربيتهم . ففى سنة ١٩٤٥ ولدت أولى أولاهم هدى ، ثم جاءت منى ، بعد ذلك هنأوا جمال بمولد نجله خالد ، ثم عبد الحميد ، إلى أن جاء أصغر أولادهم عبد الحكيم الذى ولد بعد قيام الثورة فى سنة ١٩٥٥ .

بعد ذلك توقفا عن الإنجاب رغم أن تحية لم تكن تعمل ، ولكنها كانت دائمة الحرص على أن توفر الهدوء والسكينة لبيتها من أجل زوجها ، وهذا ما كان جمال يحتاجه بالضبط ، فلكم كان مظهره يوحى بالتعب حينما كان يجلس إلى عجلة قيادة عربته الأوستن الصغيرة وهو يتجول أحيانا وحتى بزوغ الفجر ليوصل أعضاء منظمة «الضباط الأحرار» .

بدأ الاقتناع فى الجيش يتزايد بأن الانجليز لن يتأهبوا للخروج من البلاد رغم انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فشوارع الليل لا تخلو من السكارى منهم الذين يتسكعون ويتمايلون وهم ينتقلون من بار إلى آخر ويواصلون السباب والشتائم على المصريين .

لقد كان أنور السادات وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية حبيساً

فى السجن وخرج لتوه ولـكنه ظل موضوعا تحت مراقبة البوليس ومع ذلك فقد قام جمال بمقابلته عدة مرات .

وفى النهاية قام ناصر الذى يتمتع بديناميكية القيادة لكل منظمة الضباط الأحرار بتقسيمها إلى خمسة أقسام، أحدها يختص بالشئون الاقتصادية ، والثانى بالأمن ، والثالث بالدعاية والتثقيف ، ورابع لـكفاح الشخص « الذاتى » ، والأخير خاص بالإرهاب .

وكان القسم الاقتصادى يختص بالقضايا المـالية للتنظيم ، أما قسم الـكفاح الذاتى فـكان يختص بجمع المعلومات والتخابر . وقسم الأمن يقوم بالتعرف على الضباط الجدد .

وقسم الدعاية كان يقوم بإعداد المنشورات وإصدارها — أما قسم الإرهاب فلقـد كان عملياً متوقفاً عن العمل ، ذلك أن ناصر كان يعتبر أن الإرهاب لن يأتى بالنتيجـة التى من أجلها تم تـكوين التنظيم .

وكانت كل خلية من خلايا تنظيم الضباط الأحرار تتكون من ٣ — ٥ أشخاص لا يعرفون غير بعضهم فقط والشخص المكلف بتشكيل الخلية ، وكان ناصر وعبد الحـكيم عامر هما فقط الشخصان اللذان يقومان بتنسيق أعمال الخلايا من حيث اللقاءات والإعداد والتـكوين ، وحتى قيام الثورة فى سنة ١٩٥٢ كان عدد الأشخاص

الملتصقين بالتنظيم حوالى ألف شخص . على رأسهم عدد من الأشخاص النشطاء ليس أكثر من ثلاثة أفراد . وكان كل ضابط فى التنظيم يدفع إشتراكاً شهرياً ، وبهذه الاشتراكات تمكن ناصر من إنشاء ورشة سرية لتحضير القنابل .

وأخذ الوضع فى مصر يزداد حرجاً مع كل عام يمر . فلم يكن يمض يوم على القاهرة دون أن تشهد واقعة اعتداء على الضباط والجنود الإنجليز . وتخويف المسئولين الحكوميون الكبار من مجرد السير فى الشوارع . حتى أن رئيس بوليس القاهرة « راسل باشا » اعترف بأنه كان يحس بالخوف من مجرد السير فى اتجاه المدينة . ولقد لعبت « جماعة الإخوان المسلمين » المتعصبة دوراً خاصاً فى هذه الأعمال الإرهابية ، وكانت هذه الجماعة ترتبط ببعض عناصر الضباط الأحرار . ومع نهاية الحرب العالمية الثانية استمرت جماعة الإخوان المسلمين فى إصدار صحيفتها التى ارتفع توزيعها إلى أكبر عدد من النسخ فى البلاد . واتهمت هذه الصحيفة الملك بخرق تعاليم الإسلام ونظامه — وإفساد ونسيان مصالح الشعب . ففى كتابه « ثورة وادى النيل » يذكر أنور السادات أنه اقترح ذات مرة على ناصر أن يأخذ بأسلوب الإرهاب المسلح ، الذى كان الأسلوب الرئيسى لجماعة الإخوان المسلمين ، ونسف السفارة الإنجليزية ، ولكن ناصر لم يوافق على ذلك مع أنه لم يكن معترضاً على التعاون مع الإخوان المسلمين .

وذات مرة تعرف ناصر على طالب جامعة القاهرة خالد محي الدين . الذى أثار فوراً إهتمام زعيم الضباط الأحرار . لقد كان خالد وطنياً متحمساً ، بالإضافة إلى أنه كان يمتلك نظرة ثورية للحياة ، وضاعف من إعجات ناصر به ، أنه علم بأن خالد إلى جوار كونه طالبا فهو ضابط فى سلاح الفرسان « المدرعات » وأنه فى أجازة فقط من الجيش لكى يؤدى الامتحان فى الجامعة .

— إن الجيل الجديد من الضباط أكثر تعلما منا — لاحظ عبد الناصر ذلك وسأله متى سترتدى رتبك العسكرية من جديد ؟ .

ولكن خالد ذكر بأنه لا يريد ذلك مطلقاً واستطرد قائلا :

— أنا لا أحب الحرب وأنا ضد الجيش .

— وهل أنت أيضاً ضد الجيش الذى يحارب من أجل تحرير شعبه ؟

— أنا لا أقبل الدكتاتورية العسكرية — كما لا أقبل حكم الظلم والاستبداد — أجاب خالد .

— ولكننا لم نجتمع من أجل الوثوب على السلطة .

— قال ناصر وهو مستغرق فى تفكير عميق — دع السياسيين

يشغلون بالسياسة . ولكن فلنصحح لهم المسار وبعد ذلك يعود الجيش إلى ثكناته » . هذا ما نبتغيه وحسب — ذلك لأن السلطة مرفوضة لدى المصريين الوطنيين الواعين .

لقد رغب ناصر فى أن يتكلم أكثر إلى هذا الضابط الغريب الذى يرتدى بزة مدنية ويحتفظ ببطاقة طالب فى جيبه .

— فلتأت إلى مرة ثانية — قال ناصر ذلك — ضرورى أن تأتى . إعطنى وعداً بذلك .

هذا هو خالد الذى أحبه ناصر لدرجة أن اسمى ولده الأول على اسمه ، فأصبح خالد بعد ذلك ضيفاً وزائراً دائم التردد على منشية البكرى . وأخذ يحمل معه لناصر الكتب التى تتحدث عن الموضوعات الأيديولوجية والاقتصادية ، ويكلمه ويحكى له عن الاتحاد السوفيتى ، وأعطاه ما يقرأه عن ثورة أكتوبر . لقد وجد جمال فى الكتب الإجابات على كثير من الأسئلة التى كانت تعذبه .

وعرف خالد جمال على الكاتب المصرى الماركسى راشد البراوى الذى قام بعمل أول ترجمة لكتاب رأس المال لكارل ماركس إلى اللغة العربية . وبعد ذلك جاء لجمال بالاقتصادى المصرى أحمد فؤاد . لقد كان لخالد مجموعة كبيرة من الأصدقاء . وكان ناصر يسمع ويسأل . ولكن جمال فى الوقت ذاته وباعتباره مولوداً لأسرة

تمت بأواصر الصلة للفلاحين المصريين لم يكن يستطيع أن يتصور الدور التاريخي للطبقة العاملة .

وغالباً ما كان يجتمع الأصدقاء فى شقة ناصر ، وألفت تحية زيارة خالد . كما ألفت زيارة الجميع من قلبه . وكانت كثيراً ما تتلقى الرسائل التى يقوم بتوصيلها أحد أصدقاء جمال إلى المنزل فى غيابه وتسلمها لزوجها بمجرد وصوله .

وفى كل مرة ، كان يفتح ناصر فيها الصحيفة ــ حيث يقرأ أخبار الإضرابات وأعمال المواطنين ضد المحتلين ــ يأسف لأن عمل الضباط الأحرار لا يسير بالسرعة والحسم اللذين يريدهما .

لقد راجع مواقع التنظيم فى كل مكان وأخذ يرتب المعلومات عن كل عضو فيه ، وماذا يفعل التنظيم وأعضاؤه فى البلاد . وفى إحدى المرات قام وزير الحربية حيدر باشا بالشكوى إلى قريبه عبد الحكيم عامر من سوء الانضباط داخل الجيش حيث قال له :

— إن الجنود بل وحتى الضباط يخدمون وكأنهم متبرمون من جزاء وقع عليهم ، ولست أدرى ماذا سيحدث حقاً حينما يأخذون أمراً هاماً .

هنا قرر عبد الحكيم عامر من فوره أن يستغل هذه اللحظة ولا يجعلها تمر هباءاً حيث قال له :

— يمكنني أن أوصي سيادتك بمعرفة ضابط شاب حازم وممتاز . وفعلا وجد صلاح سالم نفسه مطلوب بطريقة رسمية إلى قيادة الأركان .

لقد علم ناصر بميل صلاح سالم نحو اليسار . ومع ذلك لم يكن زعيم التنظيم يعبأ بمثل هذه الأمور حيث كان يرى أن أهم شيء في الشخص الذي يوكل إليه عمل هام هو أن يكون مجرد شخص شريف ووطني مخلص . وفي هذا الصدد كان جمال يثق بصلاح سالم باعتباره شخصاً يحتلي بمثل الصفات ، ولنفس السبب رحب عبدالناصر بانضمام بعض الضباط الماركسيين إلى التنظيم . وفي النهاية أصبح تنظيم الضباط الأحرار يملك اتصالا ببعض المنظمات السياسية الأخرى التي تعمل ضد الإنجليز .

وهكذا وجد تنظيم الضباط الأحرار نفسه مرتبطاً بصورة مباشرة من خلال بعض أعضائه بالإخوان المسلمين وبالجماعات الماركسية وكذلك يملك اتصالا ما بالوفد .

وعلى سبيل المثال استعار جمال عبد الناصر فيما بعد ، مطلب موقف الحياد بالنسبة لمصر من برنامج الوفد . واعتمد على هذا الشعار في محاربة الإمبريالية . ولكنه عندما أعلن ذلك في مؤتمر باندونج رفض فكرة الحيادالبورجوازى السلبي ، وأكد أنه يتمسك بالحياد الايجابي الذى بمقتضاه يرفض الدخول في نطاق سياسة

الأحلاف العسكرية مع الدول الاستعمارية . وبمقتضى تلك السياسة أيضاً تقف مصر وتساند بنشاط نضال الشعوب والبلاد الأخرى من أجل استقلالها الوطنى .

وحتى بداية سنة ١٩٤٦ لم تكن المظاهرات ، والإضرابات قد منعت ، ولذلك كثيراً ما اشترك العمال والموظفون والطلاب فى المظاهرات والإضرابات التى كانت تنادى بخروج القوات الانجليزية وجلائها عن مصر .

وذات مرة تحرك حشد ضخم من طلاب جامعة القاهرة يحملون عريضة ويبغون تسليمها إلى الحكومة . ولكن قوات البوليس قامت بتطويق مشارف النيل ، فلجأ المتظاهرون إلى الدوران فى اتجاه كوبرى « عباس » وأصبح واضحاً أن حراس النظام لم يكونوا قد تمكنوا بعد من تطويق هذا الطريق ، بينما على الجانب الآخر من الكوبرى أخذت قوات الأمن تظهر فى صفوف متراصة .

وكانت السماء مصفرة فى هذا اليوم من سحابات الرمال الكثيفة التى حملتها رياح الخماسين ، وعندما وصل المتظاهرون إلى منتصف الكوبرى لحقتهم أوامر مفاجئة بأن « يتوقفوا » . ولكنهم واصلوا التقدم ولم يتوقفوا حيث وجدوا أنفسهم مطاردين . ودوت طلقات نارية . وسقط بعض الأشخاص .. « اضربوا ! » . وأخذت الطلقات تلمع فوق رؤوس الحشد . هنا ساد الذعر والفزع . فقفز البعض من

على سور الكوبرى ملقياً بنفسه فى النيل . ومع ذلك ظلت فرقعة النيران تدوى .

وفى هذه اللحظة انبعث صرير معدنى وبدأ الجزء الرئيسى من الكوبرى يتحرك فى بطء وينفصل فى اتجاه النيل. وأصبح من عليه من المتظاهرين وكأنهم ذبائح أو ضحايا فاجعة رهيبة. إن هذا الحكم الإجرامى بإطلاق الرصاص على المظاهرة السلمية أثار موجة من الاعتراض والاحتجاج فى مصر أخذت تتسع . مجبرة الحكومة على الخروج على الفور من الحكم . وامتدت الإضرابات التى جاءت بدورها بموجة جديدة من التشكيل . ووجد الأهالى أنفسهم مضطرين إلى الاشتباك مع قوات الإنجليز . وأخذت تظهر فى القاهرة المنشورات التى تتحدث عن قتلة الطلبة الأبرياء وأن هذه العملية كان يقودها سليم زكى . العميل السافر لقائد البوليس الإنجليزى « راسيل » باشا . لقد حدثت بعد ذلك محاولة حقيقية لاغتيال راسيل باشا . مما أفزع الإنجليز . وهكذا عاشت البلاد فى ظروف توتر غير عادى .

وفى هذه الظروف أخذ بعض الأصدقاء المقربين من جمال عبد الناصر يتكلمون معه حول ضرورة البدء بالاغتيالات السياسية . ولكن عبثاً حاولوا إقناعه فهو لم يرض بذلك .

وفى ظل هذا الموقف أخذت الحكومة تحضر للاحتفال بعيد

ميلاد الملك فاروق لسنة ١٩٤٦ ، وكانت خطة الاحتفالات تقضى كما حددها رئيس الديوان الملكى « رئيس التشريفات » أن يقوم الملك فاروق بالحضور إلى الجامعة لإشعال الشعلة هناك التى من المفروض أن تنتقل بالتتابع إلى وسط المدينة ، وفى هذه الحالة فإن جامعة القاهرة — التى شيدت بأموال الشعب ومع ذلك حملت اسم فؤاد والد الملك فاروق — أخليت بدقة وإتقان وزينت بالأعلام الوطنية وبصور الملك وأخذت كافة الاحتياطات اللازمة وكان مدعوا إلى الاحتفال المفتوح أعضاء السلك الدبلوماسى . كما كان من المفروض أن يشترك فى العرض قوات من الكلية الحربية وكان من ضمنها المدرس الشاب بالكلية النقيب جمال عبد الناصر . ولكن الطلبة تسللوا إلى الجامعة ليلا واستطاعوا أن يخترقوا هذا الحصار وهذه التحصينات ودمروا الزينة المرصعة بالأنوار وقاموا بإحراق صورة ضخمة للملك فاروق بملابس الاستعراضات البهية .

وفى اليوم التالى عمت المظاهرات الحاشدة مدينة الاسكندرية وعمل البوليس بكل جهده لكى يمنع الاتحاد بين العمال والطلبة ولكن لم تسعفه فى ذلك هراواته ولا حتى نيران طلقاته وحينما سقط أحد الطلاب من المتظاهرين شهيداً حمله رفاقه على أيديهم وأخذوا يجوبون بجثته الشوارع وهكذا لم يكن بد من أن تسقط الحكومة وتخرج من الحكم .

لقد رأى كل من الانجليز وفاروق أن الأحداث التى أخذت تنتشر فى البلاد ذات طبيعة خطرة . لهذا وجدوا أن المخرج يكمن فى إسناد السلطة إلى رجل حديدى ، ولذلك أعادوا إسماعيل صدقى باشا رئيسا للوزارة مرة ثانية .

وفى هذا التوقيت بدأ عمل اللجنة العليا لكل طلاب مصر ، ولم تهدأ الحركة داخل أوساط العمال . وأنشــأت فى وحدات الانتاج والمشاريع الصناعية لجان للاضراب . وفى النهاية تم تكوين اللجنة الوطنية للعمال والطلبة التى ظهرت من خلال مؤتمر وطنى وأخذت تقود حركة المظاهرات . كذلك أخذت قرارها ببدء إضراب وطنى عام .

وفى يوم الإضراب هذا ومنذ الصباح الباكر أخذت مظاهرات العمال والطلبة تجوب شوارع القاهرة . وفى نفس الوقت بدأ تنفيذ الاضراب . فتوقفت المواصلات العامة وأغلقت المشاريع فى الجيزة وفى شبرا الخيمة وفى العباسية . وعلى الفور امتدت المظاهرات إلى وسط القاهرة وأخذت تتوافد من كل جهة لكى تتجمع فى ميدان الأوبرا حيث كان من المقرر أن ينعقد هناك مؤتمراً شعبياً . لقد كانت المواكب تسير فى نظام واضح ، حتى انعقد المؤتمر الذى طالب المشتركون فيه بخروج القوات الإنجليزية من كل وادى النيل ، وإلغاء معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا . وعرض القضية المصرية على مجلس الأمن بالأمم المتحدة .

وبعد إنتهاء المؤتمر الشعبي بميدان الأوبرا رجعت مظاهرات الطلبة والعمال إلى ميدان قصر النيل وإلى معسكر قوات الاحتلال الإنجليزى الموجودة به ، ولكن انبعثت سيارة مسرعة من باب المعسكر محملة بالجنود الذين أخذوا فى إطلاق النيران التى خلفت وراءها عشرات من الجرحى والقتلى الذين تناثرت جثثهم على أرضية الميدان .

لقد ألهب هذا الحادث مشاعر كل أبناء الوطن . وفى مساء نفس اليوم أعلن صدقى باشا حظر المظاهرات . ومع ذلك إمتدت الموجة وتصاعدت وتقرر أن يكون يوم ٤ مارس ١٩٤٦ يوم حداد وطنى عام ، يعبر عنه بالاضراب الشامل . وعموما فلقد قاسى أغلب سكان العاصمة فى هذا اليوم فأغلقت المصانع والورش والمدارس والمحلات التجارية والمقاهى والمطاعم . وإذا قلنا إن هذا اليوم مر دون صخب فى القاهرة . فالعكس جرى فى الاسكندرية حيث إنبعثت المظاهرات ولجأ البوليس مرة أخرى إلى إستخدام السلاح غير أن المتظاهرين تمكنوا من إختراق حصار البوليس لهم . ومرت المظاهرات أمام أحد الفنادق حيث كان ينزل به مجموعة من البحارة الإنجليز فلمح المتظاهرون على سارية العلم علماً إنجليزياً . وتمكن أحد العمال من إعتلاء السطح حيث مزق العلم وأعطاه للمتظاهرين الذين قاموا بحرقة وداسوه بأقدامهم .

وأخذت الطلقات تلمع وتدوى وتنبعث من الأماكن التى يعيش فيها جنود الاحتلال البريطانى داخل المدينـــة ، وحاول المتظاهرون أن يستولوا على المبنى الذى يقع فيه قسم الملاحة . ولكن قوات ضخمة من البوليس أبعدتهم . وعندئذ توجه المتظاهرون إلى ميدان سعد زغلول حيث يوجد معسكر صغير للقوات الانجليزية وبمجرد أن رأى جنوده قدوم المتظاهرين حتى أطلقوا النيران فى إتجاههم . ولكن فى لحظة واحدة تحطم المعسكر فوق رؤوس الجنود . وانقلبت الاسكندرية فى هذا اليوم إلى ميدان معركة بين الشعب من جانب وجنود الاحتلال البريطانى من جانب آخر .

وفى هذه الأيام أخذ ناصر ينتقل فى كل أحياء القاهرة يريد أن يعرف ويرى كل ما يحدث .

لقد أخذ التنافس يشتد بين كل من بريطانيا والولايات المتحدة بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية للتأثير فى منطقة الشرق الأوسط حيث نقلت الولايات المتحدة إليها مركز الحركة الصهيونية الدولية وأخذت تدعمها وتقدم لها المساعدات التى تمكنها من دعم مواقعها داخل المنطقة الغنية بالبترول ، وأخذ الصهاينة يقدمون العون للدول الامبريالية لتنفيذ سياستهم الجشعة فى منطقة الشرق الأوسط ، ويؤلفون العصابات العسكرية التى تهاجم المواطنين العرب فى فلسطين وتستخدم معهم أساليب الإرهاب العسكرى ، وأخذ الصهاينة

يروجون أنهم يعودون إلى مقدساتهم الدينية وإلى جبل صهيون وإلى أورشليم أرض الميعاد .

وأخذت الطائفة اليهودية الموجودة فى فلسطين تعد العدة من أجل إغتصاب الأرض التى تدعى كذبا أنها لها ، على أساس الحق التاريخى اليهودى فيها . وذلك كما يشهد الكاتب الصحفى الإنجليزى جون جريج « كان السلاح والأدوات اللازمة لإنتاجه تأتى سرا إلى فلسطين ، مخبأ فى أجهزة البيانو التى تصل من الولايات المتحدة الأمريكية لقد كانت القضية الفلسطينية معروضة أمام الأمم المتحدة وفى مناقشتها طالب الاتحاد السوفيتى بضرورة إنهاء السيطرة الانجليزية من عليها ورفع الحماية وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة وموحدة على أساس فيدرالى يكفل مختلف الحقوق لكل من العرب واليهود على قدم المساواة . وفى الوقت الذى كان فيه الاتحاد السوفيتى يطالب بإنشاء الدولة الديمقراطية الفلسطينية كانت كل من بريطانيا والولايات المتحدة تستمران فى حبك الدسائس . وكانت الدول العربية وعلى رأسها مجموعة من الأنظمة الرجعية — آنذاك — لا تشجع الاقتراحات السوفيتية . بينما العصابات الصهيونية تزيد من نشاطها الإرهابى . فى كل هذه الظروف قام الإتحاد السوفيتى بالدعوة إلى إنهاء الحماية الإنجليزية من على فلسطين وقيام دولتين مستقلتين إحداهما عربية والأخرى يهودية .

لقد قابل الصهيونيون قرار الأمم المتحدة بالتقسيم باستياء بالغ

لأنهم كانوا يأملون فى مزيد من الأرض ومساحة أكبر منها حتى يتمكنوا من إقامة الدولة اليهودية عليها ، ولهذا ومع إقرار التنظيم من قبل الأمم المتحدة فإن الصهاينة ظلوا مستمرين بل وأخذوا يجهزون لصدام جديد مع العرب . لقد كان يخدم فى المواقع القيادية فى الجيوش العربية بعض العناصر الاستعمارية مثل عميل المخابرات الجنرال جلوب الذى قاد الفيلق الأردنى فى القتال .

وكان مثل هؤلاء أعداء حقيقيون لمصالح العرب . ولقد عرف الصهيونيون جيداً كيف يقبون على مثل هذه العناصر التى تخدم مصالحهم . وفى مايو سنة ١٩٤٨ تم إعلان قيام إسرائيل التى آلت السلطة فيها إلى الصهيونيين . وقد تسببت الدوائر الامبرالية البريطانية والأمريكية من جهة والدوائر اليمينية الحاكمة فى إسرائيل من جهة أخرى فى قيام الحرب بين العرب وإسرائيل .

وفى هذه الأثناء كان يوجد بالعاصمة المصرية حوالى ١٥ ألف يهودى وفى الإسكندرية حوالى ١٤ ألف يهودى . لقد أتى كل هؤلاء من بلاد مختلفة واحتلوا المواقع البارزة فى جهاز الإدارة المصرية وفى الحياة الإقتصادية للبلاد ، وآخرون أتوا إلى مصر مع بداية القرن العشرين من روسيا ورومانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وتركيا . وكان كل هؤلاء يعتبرون مصر مكاناً آمناً وملائماً لهم . وكان الإنجليز يتخذون اليهود عن طيب خاطر للخدمة فى مستعمراتهم

وفى مشاريعهم هناك . كل هذا مهد السبيل لقيـــام علاقات ضيقة إلى حد ما فى زمن الحرب العالمية الأولى بين كل من قيادة الحركة الصهيونية وبين الحكومة البريطانية . وبغض النظر عن أن اليهود كانوا يعيشون حياة طيبة فى مصر ، إلا أن الصهيونيين ومنذ زمن بعيد يتطلعون لأن يأخذوا جزءاً من الأرض المصرية .

لقد اقترح تيودور هرتزل الذى يلقب «بأبى الصهيونية الروحى» فى فترة الحرب العالميـة الأولى على وزير المستعمرات البريطانى تشمبرلن مشروعا يسمى بمشروع العريش على أن تمنح بريطانيا المنظمة الصهيونية ٦٣٠ ميلا مربعاً من أراضى سيناء لكى يقوم عليها الوطن القومى لليهود . ونالت هذه الخطة استحسان المندوب السامى الانجليزى لمصر آنذاك اللورد كرومر . ومع ذلك فلقد ظهر الوفد الصهيونى الذى يضم هرتزل شخصياً فيما بعد على ضفاف النيل . هذا الوفد الذى قدم إلى مصر ليؤمن هدفه بموافقة الخديوى . لقد سافرت فعلا مجموعة من الصهيونيين إلى العريش لدراسة المشروع على الطبيعة ورافق الوفد الصهيونى ممثل شخصى لكرومر .

ومع ذلك رفض الخديوى المشروع المقترح من قبل هرتزل وعندئذ استخدم الصهيونيون العلاقات المتشابكة للطائفة اليهودية فى مصر واتصالاتهم الواسعة فى الضغط على الخديوى .

وبعدها أعلن الخديوى عن استعداده لإعادة النظر فى قراره

السابق . لقد أحرز الوفد الصهيونى بذلك انتصاراً واضحاً ، ولكن سرعان ما تحال الخديوى من وعده .

ومع ذلك فلم تذهب زيارة هرتزل للشرق الأوسط هباء . فإثر زيارته لمدينة الإسكندرية تأسست أول منظمة صهيونية تحت اسم « بن صهيون » هذه المنظمة التى رفعت شعار المطالبة « بانشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين » . وبعد ذلك بعام تأسست جماعة صهيونية أخرى تحت اسم « زابيرزيون » ضمت بصفة رئيسية اليهود القادمين من روسيا . ورغم تكوين هذه المنظمات الصهيونية، فلم يحل أحد دون إنشائها فى مصر . بل أكثر من هذا ، حينما اندلعت الحرب العالمية الأولى ودخل الصهيونيون إلى جانب انجلترا ، أصدر السلطان التركى أوامره بإغلاق كافة المنظمات الصهيونية وحظرها فى كل الولايات العثمانية . كذلك أمر بإغلاق البنوك «الانجلو-صهيونية» ومع ذلك لم يستجب أحد فى مصر لذلك . وحينما بدأ إرسال الحشود الصهيونية إلى فلسطين وإدخالهم فى صفوف المنظمات الإرهابية التى تم إنشاؤها، بدأ يهود مصر البحث عن ملجأ لهم فى مصر يغذى صفوف تلك المنظمات الإرهابية العسكرية ، وفعلا شرع أثرياء الصهيونية الموجودين فى مصر فى المشاركة فى بناء هذا الملجأ المبتغى . وتقرر إنشاء فيلق تحت اسم فيلق باتيرسون ، وهو اسم ذلك الشخص الذى عمل الصهيونيون تحت قيادته لتأمين مصالح بريطانيا فى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى .

وبالطبع لم يكن فى استطاعة جمال أن يعرف أبعاد هذا المخطط فى نهاية الأربعينيات ، خاصة وأن المنظمات الصهيونية لم تكن تكشف عن طابعها فى ذلك الوقت .

ولكن على الجانب الآخر لم يكن خافياً على جمال أو بعيداً عن ملاحظته ذلك الاهتمام الواضح الذى تبديه إرادة المستعمر الإنجليزى فى إعطاء المزيد من المزايا كل يوم لكبرى الأسر اليهودية العاملة فى قطاعى التجارة والصناعة والمالكة للشركات فى هذين القطاعين أمثال : رولو ، موسيرى ، قداح ، عدس ، قطاوى ، شيكوريل ، جاتينيو ، جرين ، مزراحى . لقد عرف من خلال ما حكاه الكبار كيف أن أسرة قطاوى مثلا تسيطر على كثير من الشركات والبنوك وأن لها ممثلا فى شركة قناة السويس وأنها ترتب بيدها وزارة الماليه ، وكذلك عائلة شيكوريل التى تحتكر وحدها تجارة التصدير بل ويمتد احتكارها للتأثير فى السوق الداخلى للقطن المصرى . بل أكثر من هذا حينما كان يدخل جمال داراً للسينما تطارده الإعلانات التى توضح أن الأفلام المصرية تنتج بواسطة شركات تملكها الأسر اليهودية .

لقد كان الصهيونى روبرت سيمون رولو يسيطر ويقود أضخم الشركات المصرية الصناعية والذى استطاع أن يحوز على لقب «سير» . كذلك هناك رجل أعمال آخر من هذه العائلة ويحوز كذلك على

لقب« سير » هو روبير جاك رولان . إن هذين الرجلين نالا شكر الصهيونيين على تدعيم مواقعهم داخل الصناعة المصرية .

كذلك أصدر الصهيونيون فى القاهرة « المجلة الصهيونية » وبعد ذلك سميت « مجلة إسرائيل » وقد صدرت بثلاث لغات . وعلى صفحات مجلتهم هذه أخذوا يروجون دعواهم عن الأرض العربية وأحقيتهم فيها ، مستغلين آلام اليهود فى سنوات الحرب العالمية الثانية وملوحين بها . فعلى سبيل المثال أراد الصهيونيون أن يأخذوا شبه جزيرة سيناء التابعة لمصر لإنشاء الوطن القومى لليهود . وهاهم آنذاك يعلنون نيتهم فى إنشاء « إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات »

وحينما وجه رئيس الاتحاد العربى فى القاهرة فؤاد عباس رساله احتجاج إلى السفارة البريطانية بشأن نشاط المخطط الصهيونى فى فلسطين بدأت الصحافة تضطهد شركته ، ذلك لأن كثيراً من من الصحف كانت تعتمد على التمويل المادى من الصهيونيين .

أما ليون كاسترو المسئول عن المنظمة العامة الصهيونية للسلام فى مصر فقد أعلن أن فلسطين يجب أن تكون كلها لليهود أما المنظمة الصهيونية المسماة « كيرن كايميت » وتعنى « الصندوق اليهودى القومى » فقد ظلت تعمل فى جمع التبرعات من أجل

شراء الأراضى فى فلسطين و توطين اليهود هناك. وسرعان ماوقع المعبد اليهودى فى مصر تحت تأثير ليون كاسترو . ومن فوق منبره أخذت تنبعث الدعوات المفتوحة والعلنية التى تروج للصهيونية . وهكذا بلغت ذروة المأساة حينما قدمت الأموال المنهوبة من عرق الفلاحين المصريين لتمكين الصهيونيين من شراء الأرض فى فلسطين .

لقد بدأ المصريون يفهمون آنذاك أن الصهيونيين الأغبياء سوياً مع المستعمرين الإنجليز ينهبون الوطن و يتاجرون بمصالحه .

فى مايو سنة ١٩٤٨ ترقى ناصر إلى رتبة الزائد « صاغ » وتقدم إلى كلية الأركان لنيل صفة أركان الحرب . وفى ذلك الوقت أخذت إسرائيل تنظم مجموعة من الاستفزازات ضد الأقطار العربية ووجدت الدول العربية (سوريا ـ لبنان ـ شرق الأردن ـ العراق — مصر) نفسها مضطرة لأن تعلن التعبئة العامه ، وكانت أولى المعارك لصالح العرب ولكن سرعان ما بدأوا يخسرونها . لقد دخلت مصر المعركة وهى غير مستعدة حيث أرسلت جيشاً يتكون من عشرة آلاف جندى . كان إمداده بالذخائر والمأكولات غير منضبط وكانت وسائل اتصاله غير فعالة و تضاربت أوامر قادته . ورغم ذلك فقد استطاع الجيش المصرى أن يسيطر فى البداية على غزة ثم على بير سبع وأخذ يزحف إلى أن التحم

بفيلق شرق الأردن . ولكن ذلك لم يدم طويلا . ذلك أن القيادة الإسرائيلية بمساعدة من الجنرال جلوب علمت بالخطط العربية وسرعان ما بدأ الجيش الإسرائيلى فى تنفيذ هجوم معاكس إنتزع بواسطته الجزء الأكبر من الأراضى الفلسطينية .

فى هذا الوقت تلقى ناصر أمراً بالتوجه إلى الجبهة ، وفى إحدى الأمسيات ظهر فى صالة محطة السكة الحديد ليستقبل القطار المتجه إلى العريش وهو يحمل فى يده حقيبة صغيره ، رتبت أشياءها زوجته تحية ، التى بكت عند رحيله ، شأنها فى ذلك شأن كل السيدات اللاتى يودعن أزواجهن حينما يتجهون إلى ساحة الحرب .

وفى عربة القطار تقابل ناصر مع كل من عبد الحكيم عامر ، وزكريا محى الدين ، فهما الآخران متوجهان إلى الجبهة ، ولكن إلى قطاع آخر ، أو وحدة أخرى ، وجلس الضباط الثلاثة وأمامهم خريطة ، ولكن حتى تلك المعلومات الضرورية لكى يحددوا بها أماكن كتائبهم لم تكن كافية ، وفعلا لم يستطيعوا ذلك ، على ضوء ما تسلموه من أوامر ومعلومات .

وفى مطلع النهار وصل القطار إلى محطة العريش ، وخرج الركاب شبه النيام ، ومن بينهم كثير من الضباط ، ونزلوا على الرصيف الرملى . ولم يكن هناك أى شخص فى إستقبال جمال

أو عبد الحكيم أو زكريا . لقد ولى أو سار كل من يملك أن يقول لهم ماذا بعد . وأخيراً ظهرت عربة جيب قديمة ومتربة .

— ها أنا قد جئت بأوامر لمقابلة سيادتكم !

قالها الملازم لجمال وهو يرفع يده بالتحية حيث أردف : إن كتيبتنا موجودة فى الفالوجا .

وسلم جمال على أصدقائه مودعاً . . ثم دخل العربة . وما هى إلا لحظات حتى أخذت السيارة تنهب الطريق وسط تلال صفراء .

ولاحظ جمال أن الضابط الذى جاء لإستقباله لم يحلق ذقنه أو شعره لمدة طويلة ، وأن ملابسه غير نظيفة وغير مطابقة للأصول العسكرية فى مثل هذا المجال ، فلفت نظره لذلك . وأجاب الملازم :

— نحن نعيش فى أكثر الظروف صعوبة يا سيدى الصاغ .

واستطرد قائلا : المياه لا تكفى ، والهجمات الإسرائيلية مستمرة . والمراسلات البريدية مع ذوينا منقطعة . والكثير منا لا ينام بعض الليالى .

لذا أتيت لإستقبال سيادتك على هذه الحال فنحن نسير طوال الليل فى طريق متعرج وموحش . وسأله جمال :

ـ هل تناولت فطورك إذن ؟

وأجاب الضابط .

ـ لا .

وكانت لدى جمال فى حقيبته مجموعة من السندويتشات التى أعدتها له تحية فأخرجها وأكلوا سوياً .

كان الوضع فى الفالوجا أسوأ مما حدثه الضابط عنه . والجنود مرهقون فى المعارك المتواصلة والفالوجا تقع تحت الحصار .

وهكذا ارتبط تفكير عبد الناصر فى مصير وطنه بأحداث حرب فلسطين فكان دائم الرجوع إلى تجربة تلك الحرب وخير شاهد على ذلك أن كثيراً من صفحات كتابه « فلسفة الثورة » تنبض بتلك الحقيقة . إن ناصر ورفاقه فى الثورة لم ينسوا أبداً الكلمات التى قالها أحد أبطال هذه الحرب ، وهو الفقيد « أميرلاى » أحمد عبد العزيز الذى أكد لهم قبل إستشهاده فى أغسطس سنة ١٩٤٨ « تذكروا جيداً أن هذه الحرب كان أولى أن نخوضها فى مصر ذاتها » [وكان يقصد خيانة وإفلاس النظام اليمينى الحاكم] .

وفى يوليو أصيب جمال بشظية فى معدته ، وحينما نقل إلى المستشفى بدا وكأنه سيموت . ذلك أنه نزف كثيراً من دمائه

واستمر فى حالة سيئة لمدة طويلة . ولكن بفضل بنيته القوية تغلب على هذه الصعوبات وسرعان ما استرد صحته وشفى نهائياً . وبعد إجازة قصيرة فى القاهرة عاد مرة أخرى إلى جبهة القتال .

وفى أكتوبر سقط ما يقرب من ثلث الجيش المصرى فى مصيدة بين الفالوجا وعراق المنشية . وأصبح الموقف غير مبشر بالأمل . .

وأعطت الحكومة المصرية أوامرها للقيادة العسكرية بضرورة إيقاف المقاومة وتسليم الفالوجا . ولكن هذه الأوامر أثارت ناصر وبقية الضباط الذين يتصفون بالوعى والوطنية . لقد كان جمال موقناً أن الجنود فى كتيبته على إستعداد للاستمرار فى مقاومة العدو ، ولهذا قرر ألا يطيع تلك الأوامر .

وجاء شهر ديسمبر وظهرت السحب الرمادية المنخفضة فوق الصحراء . وأخذ المطر ينزل رذاذاً خفيفاً بدت معه الملابس القطنية خفيفة لا تقاوم البرد . كذلك الحال بالنسبة للمأكولات الموجودة فى مؤخرة الجيش بدت هى الأخرى غير كافية . وفى هذه الظروف ، أخذت القوات الإسرائيلية تغير المرة تلو المرة على المواقع القريبة من عراق المنشية . ولكن المصريين رغم ذلك لم يستسلموا ، وفى ٢٣ ديسمبر شنت القوات الإسرائيلية هجوماً جديداً تمكنت خلاله من الإستيلاء على نصف الفالوجا . وأخذ

الإسرائيليون يقتنصون القرى الواقعة تحت سيطرة القوات المصرية جزءاً وراء الآخر . وعند ذلك إتصل ناصر عن طريق جهاز اللاسلكى بكتيبة زكريا محى الدين وطلب منه تأمينه بمعاونة المدفعية .

— لكن هذا سوف يضعنا تحت الضرب ، هكذا أوضح زكريا .

— وما العمل ؟ لابد لنا من الخسارة ، أجاب ناصر .

وخلال بضع دقائق عبرت الطلقات اللامعة من فوق رؤوس المدافعين عن الفالوجا .

وأعطى ناصر أوامره للكتيبة ببدء الهجوم . وتكبد العدو خسائر فادحة ، وفى الصباح ظهرت أمام الفالوجا عربة إسرائيلية وهى ترفع راية بيضاء .

ومن خلال مكبر الصوت إنطلق صوت :

— ضابط إسرائيلى يريد أن يتقابل مع مصرى !.

أوقفوا الضرب. قالها ناصر وركب هو وضابطين ورقيب العربة الجيب .

— أنا ممثل قيادة هذه المنطقة . ومعى أوامر بأن أوضح لكم أنكم محاصرون بصورة كاملة وستؤسرون حتما وعليكم أن تسلموا

أنفسكم — نطقها الضابط الإسرائيلي بالإنجليزية وهو يرفع من نبرات صوته ويطل برأسه خارج العربة .

— نحن نعرف موقفنا جيداً . ولكن لدينا وفى أيدينا السلاح وسوف نقاتل حتى النهاية . أجاب ناصر بلهجة حاسمة .

إنتقل الضابط الإسرائيلي إلى التخاطب باللغة العربية ، وحينما أصر ناصر على رفض الإستسلام بدأ الضابط الإسرائيلي يطلب إتاحة الفرصة حتى يتم إخلاء المصابين والقتلى من أرض المعركة إلى المؤخرة ، ولم يرفض ناصر ذلك ، ومثل هذه المقابلات تكررت فى بعض الحالات .

وأصبح أمر هذه المقابلات معـــروفاً بواسطة النشر ، فلقد ظهرت على صفحات الجريدة الإسرائيلية « جويش أوبزيرفر » بواسطة الضابط الإسرائيلي الذى قابل ناصر وكان ذلك الضابط ، برتبة نقيب أثناء تلك المقابلات ، ثم خدم بعد ذلك برتبة عقيد فى الجيش الإسرائيلي فى أركان إيجال آلون ، واسم هذا الضابط هو موردخاى كوجن . كذلك نوه عبد الناصر عن تلك المقابلات شخصياً فى كتابه « فلسفة الثورة » . ويلاحظ إيجال آلون أن تلك المقابلات أعطته فى حينها إنطباعاً عن قوة ناصر .

لقد تأثر ناصر ورفاقه بهزيمة الجيش المصرى تأثراً بالغاً . وأدركو

العلاقة بين حصار الفالوجا وحصار الدول الأمبريالية لوطنهم وبدأ ناصر يعى بدقة وتحديد ذلك الرباط الموجود بين الأمبريالية والصهيونية العالمية . ولم يعد عنده أى شك فى أن الحكومات العربية الرجعية ما هى إلا مجرد صنائع طيعة لتحالف جبار .

وبعد عودته من الجبهة قرأ ناصر أحد أعمال الصهيونى المعروف ويتسمان الملقب « بأبى إسرائيل » تحت عنوان « التجربة والخطأ » . لقد أكد هذا الكتاب النتيجة التى وصل إليها قائد منظمة « الضباط الأحرار » كيف يمكن مواجهة هذا الاتحاد ؟

لقد حلت خيبة الأمل المريرة بعد الهزيمة . ولم يهتم الملوك العرب بمصير الفلسطينيين . ولكن الكثيرين من الجنود والضباط الوطنيين احتفظوا بروحهم المعنوية المرتفعة ووقفوا موقفاً مختلفاً .

إن الهزيمة وخيانة الجنرالات والخبراء الأجانب أجبرتهم على التأمل فى مستقبل الوطن . إن جلوسهم فى الحفر فى صحراء فلسطين قد جعلهم يبحثون بعناء شديد عن المخرج من هذا المأزق الذى تعيش فيه الشعوب العربية .

لقد انتظر المصريون بعد إنتهاء حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ حدوث أى تغيير فى البلاد . فقبل الحرب كان هناك الكثيرون

ممن يرون ثمة بارقة أمل تتعلق بشخص الملك . ولكن الآن أصبح الجميع على يقين من أن الملك يقضى الوقت خلف طاولة الروليت . وحينما منى الجيش بالهزيمة ، تكشفت الحقيقة أنه ليست تلك هى الطريقة الصالحة لقيادة البلاد .

فى حفر صحراء سيناء الفلسطينية « جبل صهيونى » وتحت وابل الرصاص الإسرائيلى فهم ناصر ورفاقه أن الشعوب العربية مصيرها واحد . وأنها جميعاً تقف إزاء عدو واحد ألا وهو الاستعمار وأن الكفاح العام يجب أن يعمل على إقامة الوحدة فيما بينها .

لقد استمر ناصر صامداً فى الفالوجا حتى يناير سنة ١٩٤٩ . وفى هذا الوقت بدأت فى جزيرة رودس المباحثات بين الدول المتحاربة . الإسرائيليون يأملون أن تمكنهم الهزيمة الكاملة التى لحقت بالعرب من إملاء شروطهم . وتقديراً للموقف قرر ناصر البدء بتوجيه ضربة مفاجئة . وكان الهجوم الناجح من الفالوجا .

وأخيراً إنتهت مباحثات رودس إلى عن توقيع الهدنة وأسفرت نتيجة الحرب الفلسطينية عن ضم إسرائيل لستة آلاف كيلومتر مربع من الأراضى العربية فى فلسطين ، ولمنع تم الإستيلاء على كل الأراضى المخصصة لقيام الدولة العربية فى فلسطين « حسب

قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة ، المترجم» . سارعت مملكة شرق الأردن بوضع قواتها فى الضفة الغربيـــة لنهر الأردن ، ومصر فى غزة .

ولكن الأمر لم يتوقف عند حـد تقسيم فلسطين إذ أسرعت إسرائيل فى اتخاذ مجموعة من الإجراءات التأديبية ضد الفلسطينيين الذين يعيشون فى الأراضى المحتلة حيث أرغمهم الاضطهاد الدموى على هجر أراضيهم والبحث على ملجأ لهم فى الأقطار العربية المجاورة وفى مكان القرى العربية أخذت تقام المستعمرات « الكيبوتس » الإسرائيلية وأصبح هناك ٨٠٠ ألف فلسطينى يعيشون كلاجئين فى الخيام داخل مخيمات تنصب فى الصحراء .

وفى هذه الأوقات استقبلت القاهرة المدافعين عن الفالوجا بحفاوة ، وبكت «تحية» من فيض السعادة حينما رأت زوجها العائد ونفضت عنه غبار الصحراء . أما الأطفال الذين لاحظ نموهم ، فقد عاملوه على استحياء لبعض الوقت وترددوا إزاءه فى البداية .

لقد جاءت هذه الأيام بالأسى إلى ناصر . فبمناسبة إنتهاء الحرب كان من المفروض أن يجرى عرض فى القاهرة . تشترك فيه كتيبة الفالوجا التى أدت أعمالا بطولية . ولكن الملك منع الكتيبة من السير وهى تحمل السلاح الذى استولت عليه من العدو .

وفى هذا البلد أدان من خسر الحرب المنتصرين فيها . لقد أصبحوا مطعونين وطالبى ثأر . وأحس ناصر هو ورفاقه أنهم أهينوا إهانات عميقة .

وما هى إلا فترة قليلة حتى أحس ناصر بأنه فى موضع الاشتباه من قبل السلطة . لقد كان رئيس الوزراء ابراهيم عبد الهادى يتحسب منذ مدة من وجود علاقة وثيقة بين جماعة الإخوان المسلمين التى إضطلعت بأعمال الإرهاب بصفة رئيسية — وبين تلك المنظمة السرية التى كان مقتنعاً بأنها تعمل فى الجيش .

وفعلا فى مايو سنة ١٩٤٩ . إستدعى رئيس الوزاء إبراهيم عبد الهادى الرائد « الصاغ » جمال عبد الناصر إليه . لقد كان يظن أن الصاغ ناصر يعــرف بعض أفراد من « الضباط الأحرار » .

وبدون مواربة اتهم رئيس الوزراء ناصر بالاتصال بمنظمة سرية وأنه يمولها بالأسلحة ، ولـكن ناصر أجاب بأنه خلال الفترة الماضية ولمدة حوالى سنة كان على جبهة القتال فى فلسطين ، ولهذا فليس بمقدوره أن يعلم أى شىء عن المنظمات التى تعمل فى القاهرة .

وسأله رئيس الوزراء :

— ولكنك كنت على معرفة بمحمود لبيب عضو منظمة الإخوان المسلمين ؟

وأجاب ناصر :

— طبعاً — وبدون خوف استطرد قائلا — كنا نقاتل سويا فى فلسطين .

— ولكن من الذى عرفكما ببعضكما ؟ سأله إبراهيم عبد الهادى وهو يظن أنه قد حاصر ناصر بهذا السؤال وأحكم عليه الحلقة .

وأجاب ناصر :

— النقيب أنور السياجى .

— أين يسكن ؟

— عفواً يا سيدى الرئيس ، إن النقيب أنور السياجى استشهد فى الحرب .

هنا كاد صبر إبراهيم عبد الهادى أن ينفذ ، خاصة حينما ارتسمت إبتسامة على شفاه جمال عبد الناصر ، وقال محتداً :

— هل تضحك على ! وأنا رئيس الحكومة والشرطة ؟

هل تفهم كيف تتعامل معى أو تفهمك الشرطة ؟

— أفهم .

ولكن رئيس الوزراء لم يكن يمتلك أى وقائع يستطيع بها أن يدلل على اتهامه لجمال عبد الناصر .

ولم تمض غير فترة وجـــيزة ، وعلى وجه التحديد فى نوفمبر سنة ١٩٤٩ حتى كانت القوات المسلحة تقرأ المنشور رقم الذى كتبه جمال عبد الناصر وقال فيه ما يلى :

« إننا نفكر ما هى العبرة التى يجب أن يستخلصها الوطن من حرب فلسطين وما هو الدرس الخطير الذى يجب أن يتلقنه أى شخص مسئول ويبسطه أمام الجيش وينبه أفراده إليه : الدرس الذى يستقيه من إعداد الجيش وتسليحه . . إن على الجميع واجب ، الحكومة والشعب عليهم أن يستخلصوا العبرة من تلك التجربة ، ولكن ما العمل وليس هناك غيرنا فى مصر قادر على ذلك . السلطات تستمـر فى عيشها وسط مظاهر الترف والسعـادة تتمتع بالأعياد بل وتخلق المناسبات لها متناسية الشعب الذى يئن تحت وطأة الفقر والجوع والمرض .

وفى نهاية المنشور التوقيع باسم « الضباط الأحرار » . ومنذ ذلك التاريخ ظهرت المنشورات داخل القوات المسلحة واستمرت دون انقطاع .

٣

فى أكتوبر سنة ١٩٥١ كان هناك ٦٠ ألف عامل ومستخدم يشتغلون لدى القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس . ولقد اجتمع هؤلاء جميعا على موقف واحد هو الامتناع عن التعاون مع قوات الاحتلال . بل أكثر من هذا اتخذت الأحزاب السياسية العاملة بالبلاد قرارا بتكوين جماعات مسلحة من الفدائيين . لقد استفاد ناصر من تلك الأجواء . واتخذ تنظيم الضباط الأحرار قراراً بضرورة المشاركة فى إمداد وتجهيز جماعات الفدائيين فى عملياتهم ضد الإنجليز فى منطقة قناة السويس . وبسرعة فائقة ما لبثت مقاومة المصريين أن إتخذت طابعاً عنيفاً مما دعا « لندن » إلى أن تزيد من عدد قواتها فى منطقة قناة السويس . لقد كان الفدائيون يشنون كل ليلة غاراتهم على الوحدات العسكرية البريطانية وعلى مخازن المؤن والذخائر وعلى تحركات العسكريين الانجليز فى المنطقة .

واستمرت قوات الشرطة المصرية « بلوكات النظام » تستمر تأييدها العلنى للفدائيين. وفى يومى ١٧ — ١٨ يناير سنة ١٩٥١ حدث

صدام بين قوات الاحتلال وقوات الشرطة المصرية فى الاسماعيلية وبعد ذلك وخلال ما يقرب من نصف شهر نشبت معركة كبيرة من الجانبين فى مدينة السويس وكفر عبده . سالت فيها دماء آلاف من المصريين . لقد قتل فقط فى الفترة من ١٦ أكتوبر حتى ٥ ديسمبر سنة ١٩٥١ فى منطقة القنال ١١٧ مصريا وجرح ٤٣٨ شخصاً . ومع ذلك لم توقف هذه الاجراءات العنيفة حركة الفدائيين .

وذات مرة وقف إثنان من الفـــلاحين يرتديان جلبابين فضفاضين أمام مدخل الإسماعيلية على الكوبرى ومعهما حمار يجره بجر عربة محملة بأجولة مليئة ببرتقال ذهبى اللون . ورغم طول وقوفهما النسبى لم يعرهما الحراس الانجليز من الجنود الذين يتناوبون حراسة الكوبرى أى اهتمام ، ولكن إزاء تلكئهما ووقوفهما وهما يقتربان من الجانب الآخر ، تقدم منهما ضابط انجليزى مهندم وسألهما عن سبب توقفهما .

— أجاب أحد الفلاحين . لا شىء غير أننا نسعى إلى القرية المجاورة لنشترى بيضا .

وما إن أغلق شفتيه بتلك الإجابة ، حتى هما بالبدء فى المسير .

ولكن الضابط قرر أن يفحص الحمولة للتحقق منها ، ومد يده ليمسك بالبرتقال الذى إنسحر بلونه الفاقع . فى تلك اللحظة اندلع

إنفجار هائل . لقد كانت تلك الواقعة فى يوم ١٩ يناير سنة ١٩٥٢ ! .

لقد كان إنفجار كوبرى الإسماعيلية بمثابة الشرارة التى اشتعل بعدها الحريق . فخلال عدة أيام هاجم الفدائيون مخازن الأسلحة فى الاسماعيلية . وبدأ الانجليز يبحثون عن كيفية تطهير المدينة . وأعد الانجليز حملة تأديبية إشترك فيها حوالى سبعة آلاف مقاتل قامت بأسر آلاف المصريين ووضعهم فى معسكرات بالصحراء .

ومع ذلك ففى اليوم التالى لتأليف تلك الحملة أغار الفدائيون مرة جديدة على مخازن الأسلحة الانجليزية . فقرر القائد العام للقوات الانجليزية فى منطقة القنال الجنرال أرسكين أن يقوم بتلقين المصريين درساً خطيراً لن ينسوه .

ففى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ دعا قوات « بلوكات النظام » الموجودة فى الاسماعيلية للإنسحاب بينما أخذت الدبابات الانجليزية تزمجر فى شوارع المدينة بعد أن تركت مخابئها وسط حدائق المانجو . وأخذ الانجليز يجوبون شوارع المدينة وبنادقهم معلقة حول أكتافهم .

وحول وحدات بلوكات النظام أخذ الانجليز يصدرون الأوامر إلى تلك القوات بأن تلقى سلاحها . هنا إتصل قائد قوات بلوكات النظام بالقاهرة تليفونيا . فأعطاه وزير الداخلية فى حكومة الوفد

فؤاد سراج الدين الأمر بالمقاومة . ولم تكن قوات البوليس هذه تملك غير أسلحة الدفاع الشخصى الخفيفة مثل البنادق ، فى الوقت الذى أحكمت فيه القوات الانجليزية الحصار حول معسكر بلوكات النظام وطوقته بدباباتها . ولكن الضابط المصرى تصرف كيفية المصريين حيث أرسل إلى الجنرال أرسكين بأنه سيقاوم حتى آخر طلقة . وهنا بدأت القوات الإنجليزية الهجوم .

واستمرت المعركة ثلاث ساعات متواصلة إستخدم فيها المصريون أسلحتهم حتى آخر طلقة بل أخذوا يستخدمون الحجارة أيضاً . وفى النهاية أسفرت هذه المعركة الدامية عن ٤١ قتيلا و ٧٢ جريحاً .

وفى لمح البصر ذاع نبأ هذه المذبحة التى قام بها الاحتلال الأجنبى فى أرجاء الوطن كله . وكما كتب جمال عبد الناصر فى واحد من المنشورات « على أرض مصر وبأيدى المحتل الأجنبى يستشهد المصريون . »

استعد الوفد للقيام بمظاهرة احتجاج فى اليوم التالى . وكان من المحتم أن يؤيدها طلبة جامعات القاهرة الثلاث . وطالب قومندان « بلوك النظام » فى القاهرة من البوليس الاشتراك فى هذه المظاهرة . وفى إجتماع طارىء عقده مجلس الوزراء تقرر فيه المطالبة بقطع

العلاقات الدبلوماسية مع انجلترا ، والقبض على مائة شخصية انجليزية معروفة ، ممثـــلة للانجليز فى مصر كرهائن . وأوصت القنصلية البريطانية فى تلك الأيام الجالية البريطانية بعدم مغادرة المنازل .

كان الملك فاروق كعادته يقضى شهور الشتاء فى القاهرة بقصر « القبة » وتطل شرفته بالقصر على منظر رائع للحقول الخضراء ، ولصفوف النخيل الممشوقة . وكان الجو مشبعا برائحة الورد ، وفى أراضى القصر كان الملك يقوم بجولات يومية فى الصباح على حصانه .

وعادة ما كان فاروق يستقبل زواره من الأجانب والوزراء فى قصر آخر — عابدين ، فى قاعة خاصة تطل نوافذها على الحديقة .

حينما ظهرت البوادر الأولى للمظاهرة أمام قصر عابدين ، كان الملك يستعد للاحتفال بمناسبة ميلاد ابنه . فخدم القصر يجربون وضع الوشاحات الحمراء التى خيطت على أكتاف الخدم النوبيين السود فارعى القامة . ووزع رئيس الديوان الملكى على المراسلة بطاقات الدعوة المطبوعة على ورق غالى مكتوب عليها أسماء عائلة الملك فاروق .

دخل يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ تاريخ مصر تحت اسم « السبت الأسود » .

هاجت الجماهير أمام القصر هاتفة :

« اعطونا السلاح ! إننا ذاهبون لندافع عن إخواننا » .

وسرعان ما إمتلأت كل الطرق المؤدية إلى القصر بالمتظاهرين الذين أتجهوا إلى ميدان الأوبرا . وهناك عند « كازينو الأوبرا » حيث كان الضباط الانجليز يفضلون الترويح عن أنفسهم فيه ، كانت راقصات فرقة بديعة ، يتلوين شبه عاريات بالرقص الشرقى . وهنا وقع الحادث ، الذى على أثره بدأت حوادث الشغب .

ويروى الشهود أنه عندما دخل المتظاهرون إلى الميدان وأمام الكازينو لمح شخص منهم ضابط بوليس مصرى يجلس وبجواره راقصة من راقصات فرقة بديعة .

فصاح أحد المتظاهرين قائلا :

« عار عليك أن تجلس هنا وتلهو مع الفتيات واخوانك يموتون فى الاسماعيلية » .

رد عليه الضابط بوقاحة . فما كانت إلا دقائق معدودة حتى كانت كراسى وترابيزات « كازينو الأوبرا » محطمة . وسرعان

ما اضطرمت النيران تصحبها صرخات استحسان الجماهير . وكان موقع قوات الاطفاء يبعد عن مكان الحادث بخطوات . وإلى أن تحركت عربات الاطفاء إلى الكازينو ؟ كانت النيران قد تطايرت إلى المبانى المجاورة وفى النهاية بدأ رجال الاطفاء عملهم . فى هذه اللحظة قام أحد المتظاهرين بقطع خراطيم الاطفاء .

وبعد بضع ساعات اشعلوا النيران فى دار سينما ريفولى « ومترو » وطاف أناس فى المدينة ، ممسكين بالمشاعل فى الأيادى وأحرقو المحلات ، ودور السينما ، والبارات ، والفنادق والنوادى المملوكة للأجانب . وتصاعد الدخان من شرفة محلات «شيكوريل» كما أحرقوا محل «جروبى» ومبنى « باركلايز بنك » وشركة كريزلر للسيارات .

اقتحمت مجموعة أشخاص النادى البريطانى بغتة ، حيث كان يجلس فيه أربعة أفراد . سكبوا البنزين على الكراسى والمناضد . وأحرقوا النادى . وعندما حاول البريطانيون الأربعة الإفلات إلى الشارع ، أعادوهم ثانية إلى النادى ، أعيدوا إلى الموقد . كما حاول أحد البريطانيين الموجودين فى الطابق العلوى الهبوط بحبل من الملايات ، فوقع على الرصيف محترق القدمين ، بعد اشتعال النيران فى الحبل .

فندق « شبرد » بالقاهرة مبنى على الطراز العربى ، وكان مشهوراً

فى العالم أجمع . حيث فرشت فى صالاته أغلى الموبليات ، المطعمة بسن الفيل . ويرتدى الجرسونات فيه القفاطين البيضاء ، حاملين القهوة العربية فى فناجين غالية من الخزف . وأمام مدخله عادة ما كان عشرات الحرفيين يبيعون مصنوعاتهم . دخله نفس هؤلاء الأشخاص ، فأدخلوا النزلاء حجراتهم ، وانتزعوا ستائر النوافذ . وفى الحال تحولت الموبيليا إلى حطب ، صب عليه البنزين وأشعلوا فيه النيران .

ويلتصق بالفندق مبنى كان مكانا تجتمع فيه الطبقة العليا فى المجتمع القاهرى . كان هذا المبنى هو نادى المهاجرين الروس . وفيه حضر الملك بنفسه بعض حفلاته . وكان الضباط البريطانيون الشباب منهم يعتبرون أن حمل بطاقة عضوية النادى الروسى ميزة . وأمكن الحفاظ على المبنى من فى الحريق .

وأنقذ السور الحديدى المرتفع المحيط بالقنصلية البريطانية المبنى من التحطيم ، إذ دار حوله قتالا متلاحما .

حاول عمال أحد المشاريع بضواحى القاهرة الدخول إلى وسط العاصمة لإخماد الحرائق ، أوقفتهم فى منتصف الطريق داورية انجليزية .

ولنفس هذا السبب لم يتمكن الأشخاص المرتبطون بالضباط

الأحرار ، الوصول من وسط المدينة إلى هيليوبوليس لإبلاغ عبد الناصر بالأحداث المحزنة .

مع الليل بدأت عمليات نهب عامة فى المدينة . فسرق من فترينات المحلات التحف الكريستال القيم ، وصناديق الشمبانيا والويسكى ، براويز الصور المذهبة ، أتواب القماش ، الموبيليا .

وصل الجنود . . . فأبعدوا مشعلى النار ومحرضى الشغب ، حيث زجوا فى عربات الجيب ، الواقفة فى حالة استعداد ، ولم تتمكن قوة من مائة وخمسين جنديا التصرف حيال تلك التجمعات الهائجة فى الشوارع ، والتى وصل عددها بالآلاف .

هناك من حاول استخدام غضب الجماهير لتحقيق أهدافه ، فأعد حريقاً منظماً للقاهرة . ولذا لم يحدد تحديداً قاطعاً إلى أى تجمع ينتمى مشعلوا الحرائق . فأرجع الماجور « سينسوم » . الذين كان يعمل فى المخابرات البريطانية الذنب على « الضباط الأحرار » ، على حين أنه لا الضباط الأحرار ولا الشيوعيون الذين لصقت بهم أيضاً التهمة ، ولا التنظيمات اليسارية الأخرى كانو فى حاجة إلى مثل هذا الحريق .

فاستغل الحريق ذريعة للارهاب . إن التعصب الذى تتميز به تنظيمات الإخوان المسلمين ، يمكنها من الإقدام على مثل تلك الخطوة غير العاقلة . وهو ما كان القاهريون يصدقونه . وأكد

الصحفى السويدى فوشيه الذى كان يعمل مراسلا فى القاهرة لـ « جرنال دى جنيف » وواحد من أوائل من كتبوا عن عبد الناصر بالاضافة إلى كونه شاهداً شخصياً لأحداث « السبت الأسود » أكد أن لندن استخلصت من تلك الحوادث فوائد مباشرة .

بعد حريق القاهرة أوقف نشاط « الفدائيين » . ولم يبد الملك بدوره أى نشاط حتى يقضى على أى إخلال بالأمن . كان كل شىء يشير إلى تواجد اتفاق بينه وبين المخابرات البريطانية . فكتب فوشيه بأنه كانت هناك ضمن الذين شاركوا فى الحريق وجوه معروفة بعملها مباشرة فى خدمة قوات الأمن الانجليزية .

وعن مشاركة كل من الملك والانجليز فى حريق القاهرة كتب أيضاً اللواء محمد نجيب فى مذكراته ، فهو يعتقد بدوره إن الملك أراد عن طريق هذا التدخل أن يضع أكثر الأشخاص قرابة له على دفة الحكم .

فى هذه اللحظة ، لحظة تشبث آلاف الأيدى بنوافذ القنصلية الانجليزية ، كان السفير سير رالف ستيفنسون يبدو بعضه بمنزلة العناصر . وهو لم يقرر بعد سحب القوات من قناة السويس . كان متردداً ، مدركاً أن القوات المصرية فى هذه الحالة يمكنها أن تلجأ للمقاومة ، حاول السفير الاتصال بالرادار ، وأجيب بعد

كذلك بأن وزير الداخلية مشغول بشراء بيت . فطلب رقم تليفون رئيس الوزراء النحاس باشا (وهو الذى تولى فى يناير سنة ١٩٥٠ رياسة مجلس الوزراء الوفدى) فكان عند رجل الميكانيكير .

بينما ثارت الملكة ناريمان ، فى قصرها عدة مرات من الفزع ، مما أساء إلى صحتها بعد الولادة . كان كل من حولها يصور لها أن القصر يحترق ، وأن اللهب سيلتهم المولود الجديد أحمد فؤاد .

وفى نافذة القصر وقف الملك فاروق يشاهد الدخان الأسود المتصاعد فوق العاصمة المصرية . وكان عليه أن يقرر ، ماذا سيفعل مع الوزارة . كان واضحا أنه لايمكن أن يظل النحاس باشا فى السلطة . فاقترح أحد الأشخاص تشكيل وزارة عسكرية يرأسها قائد مصلحة السجون السابق حيدر . ورأى الملك أن هذا ليس بالقوة الكافية لتغير الوضع .

وقال : « لا جدوى من أن أعهد إلى حيدر بمصير البلاد » .

وسكت الحاضرون بإجلال .

— « هل تستطيع أنت أن تشكل حكومة ؟ » وجه الملك كلامه للحاج اسماعيل .

سكت السياسى القديم ومدبر الدسائس .

— « أنتم جميعا جبناء . ولهذا سيشكل على ماهر الوزارة .

ولم يكن بين الحاضرين واحد يرغب فى رؤية رئيس الوزراء على ماهر .

— الأستاذ الهلالى يمكن أن يأخذ على عاتقه تلك المسئولية، قال أخيراً ذلك رئيس الديوان الملكى حافظ عفيفى .

— من هو هذا الأستاذ ؟ ، تساءل الملك بعصبية .

— « نجيب باشا الهلالى » أجاب شخص ما .

وقطع الملك الحديث قائلا : فليكن كلامكم هكذا . أنا أعرف المستشار الملكى نجيب الهلالى . أما الأستاذ الهـــلالى فأنا لم أتعرف عليه » .

كلف حافظ عفيفى بالذهاب فوراً إلى نجيب الهلالى باقتراح تكوين الحكومة . وخيل إليه وسيارته تمرق بشوارع العاصمة إلى المعادى، كما لو أن المدينة قد تعرضت لقصف جوى . حيث تتصاعد إلى السماء سحابات الدخان . وفترينات المحلات محطمة ، والسيارات محترقة . وتسمع الطلقات فى كل مكان .

وعاد حافظ عفيفى وكان الاجتماع فى القصر الملكى لم ينته بعد . فنظر إليه الجميع بتلهف .

فقال :

« اقترح الهلالى بأن يشكل الحكومة على ماهر » .

فأعان الملك : « فليكن إذا على ماهر » .

وكان على حافظ عفيفى أن يغادر ثانية القصر . وكان طريقه فى هذه المرة من خلال العاصمة إلى جزيرة الزمالك ، حيث كان يعيش الإنجليز والارستقراطية المصرية . والزمالك كان يخيم عليه الهدوء الواضح ، وكان المصرى لا يستطيع أن يصل إلى هنا إذا أبرز بطاقة خاصة . هنا كان كل شيء هادئا مريحا حقاً كما لو أن شيئاً لم يحدث .

تولى على ماهر رياسة الوزارة بمساندة الانجليز عشية الحرب العالمية الثانية . ولكن عندما استعد روميل لوثبته على إفريقيا ، فى تلك اللحظة غير على ماهر من إتجاهه ، وأصبح يعمل على « حياد » مصر . وعزله الملك تحت ضغط الانجليز . فقام على ماهر فى البلاد بحملة معادية للانجليز . وعاود الملك شجبه . فكف على ماهر عن ذلك . إلا أنه بعد إنتهاء الحرب عمل بأقصى قواه لكى يزكى فى أعين الانجليز . وكان كل المحيطين بالملك يخشونه . ولكنه الآن والآن بالذات أصبح مفيداً ليس فقط للانجليز بل وللملك أيضاً .

دخل حافظ عفيفي منزل على ماهر مساءاً . مقترحاً عليه باسم جلالة الملك منصب رئيس الوزراء .

فى اليوم التالى إثر مقابلته مع الملك ، وفى لحظـة وصول على ماهر عائداً إلى الفيلا مع مساعديه بعد أن أعد نداءاً للشعب ، رن جرس التليفون قال المتحدث : طلب الملك أن يؤجل على ماهر فوراً تشكيل الحكومة .

وعلق أحد أصدقائه على ذلك بقوله ، يجب عليك — وفى الحال إبلاغ جلالته هذا الشرط . . . »

— « إذا لم تشكل الحكومة الليلة ، فلن تصبح بعد ذلك رئيساً للوزارة

فطلب على ماهر حافظ عفيفى وقال له :

— « صاحب السعادة — من الضرورى تشكيل الحكومة فوراً » .

— « ولكننا اتفقنا على أن يؤجل ذلك للغد » .

— « أخبر جلالته بأنه إما أن تشكل اليوم . وإما لا . . » .

وكان فاروق مضطراً للرضوخ للانذار . وبدأ اثنان وثلاثون يوماً من إدارة حكم على ماهر ، فوقع مزيد من الاضطهادات على عاتق المصريين .

كتب الكاتب المصرى المعروف عبد الرحمن الخميسى .

« بدأ شركاء الملك فاروق بعد حريق القاهرة متابعة أثر الفدائيين الذين انضموا لصفوف المقاومة فزج بهم فى السجون . ووضعت السلطات هؤلاء الذين اتحدوا من أجل المعركة العسكرية ضد الإنجليز فى منطقة قناة السويس — تحت المراقبة والتجسس .

فانتشر البوليس السياسى ، فى المنازل ، فى المؤسسات ، الأماكن العامة ، وعثر على أعضاء المنظمات ، وتم القبض عليهم وترحيلهم إلى المعتقلات الموجودة فى الصحراء » .

وعلى الرغم من ذلك لم يقبض على عضو واحد من « الضباط الأحرار » فالسرية التى حرص عليها عبد الناصر ، كانت هى محور أمن التنظيم .

وعندئذ بدا أن آمال الملك فى « شخص قوى » يستطيع إنقاذ الموقف لا طائل من ورائها ، وفشلت كل الإجراءات التى اتخذها على ماهر ، فلم يعد الشعب يثق فى أى حكومة يمثلها الباشاوات والإقطاعيون ، وسرعان ما اضطر على ماهر إلى تقديم استقالته ، وبدأت لعبة التغيير المستمر فى الوزارات ، فتم تغيير ٦ وزارات فى فترة ما بين يناير إلى يوليو سنة ١٩٥٢ ، وفقد الملك السيطرة على البلاد .

مع بداية سنة ١٩٥٠ تكون مجلس قيادة الثورة لتنظيم « الضباط الأحرار » والذى اختير فيما بعد عبد الناصر رئيساً له ، وبدأ

الاستعداد الفعلي للقيام بانقلاب ثوري ، وقدر «الضباط الأحرار» أن البداية ستكون فيما بين سنة ٥٤ ، ٥٥ ولكن ماجرى من أحداث فى سنة ١٩٥٢ جعلت الثوار يغيرون من خططهم .

— فكر ناصر ، متسائلا : « ألم يحن بعد وقت العمل ؟ » ، هل « الضباط الأحرار » مستعدون ؟ — هل قوتهم كافية ؟ .

وأجاب بنفسه على تلك التساؤلات « لا » .

فى هذه الأيام كان يدرك عبد الناصر — أنه من الضرورى تنشيط الإعداد التحضيرى .

ورد « الضباط الأحرار » على حريق القاهرة بمنشور جاء فيه :

— « يأمل الخونة فى إحراز نصر بمساعدة الجيش ، بينما دور الجيش هو المعركة من أجل الحرية والاستقلال ، وإذا ماخرج الجيش إلى الشارع فلمقاومة الخونة فقط ، ولا يجب أن تطلق بندقية واحدة ضد المتظاهرين ، وأن لا يقبض على متظاهر واحد بمساعدة الجيش ، هذا ما يجب أن يدركه الجميع ، ومنذ اليوم فالجيش مع الشعب وسيقف معه إلى النهاية » .

رأى ناصر أن رياسة قيادة الثورة يجب أن تكون لشخص عسكرى برتبة عالية ، حتى يفيد فى كسب احترام الشعب والجيش .

وتساءل : أحد « الضباط الأحرار » .

— ما رأيك فى اللواء المصرى ؟

— « أليس مسناً » . علق بذلك عبد الناصر .

واقترح البعض اللواء فؤاد صادق ، المعروف بنزاهته وبطولته التى برزت فى الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨ ، قرر عبد الناصر إرسال صلاح سالم للتشاور مع صادق ، واتضح أن اللواء المبجل يطمع فى أن يصبح قائداً للأركان ، قال له سالم أنه يمكن العثور فى الجيش على مجموعة من الأشخاص يمكنهم أن يحققوا له مثل هذا الأمل ، وفجأة رن التليفون ، ورفع صادق السماعة وخرج ليتحدث فى حجرة أخرى ، وبعد دقيقة عاد وهو مشرق الوجه .

— « لقد أخبرونى بأن جلالته يرغب فى تعيينى قائداً للأركان » ، قال ذلك باعتداد .

واتضح أن اللواء لا يمكن أن يصبح زعيماً لثورة .

ثم وقع اختيار عبد الناصر على اللواء محمد نجيب ، الذى حصل أيضاً على شعبية فى حرب فلسطين .

بدأ عبد الحكيم عامر يحدث نجيب تدريجياً على تنظيم « الضباط الأحرار » دون الكشف عن أهدافه ، وتصادقا سوياً مع مرور الوقت ، حتى إن عامراً أصبح يمر على نجيب فى منزله ، بينما كان عبد الناصر يؤمن بأن نجيب لا يملك كل الصفات الضرورية للقائد ، حقيقة أن عامر أكد بأن عمله فى « تربية » اللواء تسير بنجاح .

وقرر الملك — ماكان غير متوقعاً — تعيين اللواء حسين سرى عامر قائداً لحرس الحدود بدلا من اللواء نجيب ، وكان « الضباط الأحرار » يعتبرون سرى عامر عدواً خطيراً ، فها هو يحتل أحد المناصب الهامة فى الجيش .

ورغب الملك أيضاً فى أن يجعله رئيساً لنادى الضباط بالجزيرة ، وما هو ما يتم عن طريق الانتخاب ، وقرر عبد الناصر أن لحظة إظهار قوة التنظيم قد جاءت .

اصطحب عبد الحكيم معه عبد الناصر فى إحدى زياراته لمحمد نجيب ، وشعر اللواء محمد نجيب بأنهما يدرسانه ، « . . . ولكننى لم أصب بخيبة أمل » — كما تذكر هو فيما بعد — لأنى كنت قد وصلت لنتيجة وهى أن خلاص مصر مرهون بهؤلاء الضباط الشبان » .

ثم تعددت اللقاءات بين عبد الناصر وعامر باللواء محمد نجيب فى شقته ، وبالتدريج تعلموا كيف يتفاهمون معاً ، وسرعان ما اختير محمد نجيب رئيساً لقيادة تنظيم «الضباط الأحرار» ، ولكن بهدف السرية لم يشترك فى الاجتماعات السرية ولا فى عملية الإعداد للانقلاب ، وفى اللحظة التى وقع فيها الانقلاب كان اللواء نجيب لا يعرف إلا خمسة أعضاء فقط من الأعضاء التسعة لمجلس قيادة الثورة .

واتصل عبد الحكيم عامر بتكليف من ناصر باللواء نجيب وأقنعه بترشيح نفسه في انتخابات رياسة نادي الضباط ، وأقنع « الضباط الأحرار » زملاءهم بالتصويت في صالح نجيب .

وفي الاجتماع الاستثنائي اقترح ناصر أن يقفوا دقيقة تكريماً لذكرى أحـــد الضباط الأحرار ، الذي قتله البوليس بإيعاز من الحاشية ، وتكهرب على الفور الجو كله .

ظهر بعد فوز تذاكر الانتخاب أن ٨٠٪ من مجموع الأصوات كانت في صالح محمد نجيب . . بخلاف دخول عضوان أيضاً من الضباط الأحرار في المجلس وكان هذا تحدياً مكشوفاً للملك . وهو ما شعر به الملك نفسه ، وطالب بإعادة الانتخابات ، وفي نفس الوقت ألغى القرض الذي رصد لإنشاء مبنى جديد للنادي . أما اللواء محمد نجيب فعين في أحد مواقع الجيش الموجودة بالصحراء .

وسرعان ماعرف أن اللواء حسين سرى عامر مشترك في خديعة كبرى « فالذخيرة التي أودعت المخازن المصرية كانت مباعة عن طريق مهربين إسرائيليين ، ونشر « الضباط الأحرار » على وجه السرعة منشوراً طالبوا فيه بالإسراع بمحاكمة سرى عامر أمام محكمة عسكرية ، ففي الوقت الذي كان واضحاً فيه أن الملك لايرغب في معاقبة أحد قادة جيشه ، كان « الضباط الأحرار » قد قرروا إعداد محاولة لاغتيال اللواء الفاجر ، فدرسوا عادات اللواء سرى عامر وبرنامجه

اليومى جيداً ، وفى اليوم المحدد اختبأت المجموعة المكلفة بالقيام بالمحاولة فى مكان ليس ببعيد عن منزله ، وعند خروجه للشارع دوت الطلقات ، وكان ناصر مشتركا بنفسه فى تلك المحاولة ، وتمكن هو وزملاؤه من الإفلات من متعقبيهم .

ولم ينم ليلتها عبد الناصر بعد عودته إلى بيته ، فظل يدخن سيجارة وراء أخرى ، ولكنه أيقن الآن أن فكرته عن الإرهاب صحيحة — فالإرهاب يعتبر مجرد وسيلة قاصرة فى المعركة ، وأن الأعمال الخطيرة لا تفيد إلا من حيث كونها عامل يساعد البوليس فى بحثه عن أعضاء التنظيم .

وعندما أحضرت له زوجته فى صباح اليوم التالى الصحف ، أخذها منها بلهفة شديدة ، وما أن علم أن سرى عامر مازال حياً حتى هدأ ناصر قليلا ، « ... وفى الليالى المؤرقة وأنا أتذكر نفسى وأنا أجوب من طرف فى غرفة النائب العمومى إلى طرفها الآخر — كنت أسأل نفسى سؤالا : « هل يمكن تغيير مصير البلاد تغييراً حقيقياً إذا ما اغتلنا شخصاً أو آخر ؟ .. — كتب ذلك ناصر فيما بعد فى فلسفة الثورة » — وكانت إجابتى عن قناعة كاملة : يجب علينا أن نغير التكتيك .. إن جذور المشكلة تمتد أكثر عمقاً فى التربة — إنها أكثر جدية .... » .

حاول البوليس معرفة المشتركين فى تنظيم « الضباط الأحرار »

ولكن عبد الناصر كان منظماً ممتازاً للأمور السرية ، فهو على سبيل المثال لم يذكر مطلقا اسمه الحقيقى فى أى محادثة تليفونية مع زميل له فى الحركة ، وعادة ما كان ناصر يسمى نفسه فى مثل تلك الحالات بزغلول ، وكان المستجدون على التنظيم يتعرضون لتجارب دقيقة للغاية قبل أن يسمح لهم بإنجاز أية مهام . وعندما اقترح واحد من قادة إحدى المجموعات الثورية ضم منظمتـــه إلى تنظيم « الضباط الأحرار » أجابه عبد الناصر بأنه من بعد الفالوجا أبعد نفسه تماماً عن هذه الأعمال . . « أريد أن أعيش وآكل عيش فقط . » قال ذلك لأنه كان لا يعتقد فى هذا الشخص .

أدرك « الضباط الأحرار » جيـــداً مايحدث فى الجيش وفى البلاط ، استغل صلاح سالم ثقة وزير الحربية وأبلغه عن عمد معلومات كاذبة ، كما قام أنور السادات بعمل نفس الشىء فى البلاط طريق الدكتور يوسف رشاد .

حين خالد محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة مسئولا عن الدعاية فى الجيش ، كتبنا المنشورات الأولى — كما يذكر — بالاشتراك مع ناصر ، وكان علينا لطبعها ونسخ عدد منها أن نستخدم آلة طبع أحد عمال السكك الحديدية ، وعندما اكتشفه البوليس أصبحنا نطبعها فى منزل الضابط حمدى عبيد ، فكنا نذهب إليه على أننا نسمع الموسيقى ، على حين أننا فى الحقيقة كنا نقوم عنده بكتابة

المنشورات بحضور عبد الناصر ، ثم تنسخ وتوزع على الضباط ويتم توزيعها عن طريق البريد . وهى ليست بالعملية السهلة . ومع الوقت من الضرورى تكوين مجموعة خاصة تنحصر مهمتها فقط فى كتابة العناوين على الأظرف وحملها إلى البوستة . وأوكلت هذه المسئولية إلى أربعة ضباط ماركسيين .

ولكن لم يكن البوليس غافلا . وسرعان ما أضطررنا إلى تغيير مكان « المطبعة » إلى شقة سرية لإحدى المنظمات الماركسية ، التى كان لها نشاط فى مصر فى ذلك الوقت ، وهى منظمة « حديتو » . وأصبح العمل جارياً على الوجه التالى : نحضر الموضوعات ، فيقوم إخوان من « حديتو » بطبع المنشورات ، ثم نقوم نحن بتوزيعها فى الجيش ، وكان يتولى أحياناً كتابتها أحمد فؤاد أحد الماركسيين المصريين المعروفين والذى أصبح فيما بعد مستشاراً لعبد الناصر .

كان برنامج « الضباط الأحرار » يطبع فى نسخة واحدة فقط كلفت أنا بمسئولية حفظها . وعند انضمام ضباط جدد إلى التنظيم كنا نعطيهم النسخة لقراءة البرنامج ، ثم تعاد إلى مرة أخرى ، وتقوم بعد ذلك زوجتى بإخفائها .

سميت هذه الوثيقة « ببرنامج العمل » ، وتضمنت عدة مبادىء :

القضاء على الاحتلال والإقطاع ، إنهاء سيطرة رأس المال على الحكم ، العدالة الاجتماعية ، الحياة الديمقرطية ؛ إنشاء جيش وطنى قوى.

ولم يكن تنظيم «الضباط الأحرار» التنظيم الوحيد داخل الجيش فكان يعمل بجانبه تنظيم آخر يعتبر فرعا من «حدتو» وكان يرأسه أحمد فؤاد .

كان بتنظيم صغار الضباط عدد غير قليـــل من الماركسيين وكان إسم قائدهم عبد القادر طه ، الذى قتل قبل قيام الثورة بشهرين برصاص الرجعيين وأطلق المصريون اسمه بعد الثورة على أحد شوارع القاهرة .

وكانت الأفكار السياسية لتنظيم «حدتو» وهى إحدى المنظمات الماركسية العديدة الموجودة فى البلاد منتشرة بقدر كبير فى الجيش . فكان للماركسيين دور دائم حتى وسط «الضباط الأحرار».

بعد تقييم الوضع فى البلاد طالبت «حدتو» بتحقيق ثورة ديمقراطية ، وإنهاء الاحتلال الأجنبى وهو ما جعل برنامج التنظيم الماركسى قريباً ومفهوماً من «الضباط الأحرار».

وعندما قامت الثورة أيدتهـا « حدتو » منـذ اليوم الأول لقيامها .

كتب كثير من المؤرخين الغـربيين ، وكتـاب سـيرة عبد الناصر ومنهم على سبيل المثال « روبرت ستفنس » ، كتبوا عن علاقات « الضباط الأحرار » و « الإخوان المسلمين » وهى علاقات كانت فى الحقيقة قائمة . ولـكن تأثير « الإخوان المسلمين » على « الضباط الأحرار » كان أقل بكثير من تأثير التنظيمات اليسارية الديمقراطية . وفى هذا يمكن الرجوع لبرنامج العمل الذى اتخذه مجلس قيادة الثورة .

حدد ناصر بدء العملية فى مارس سنة ١٩٥٢ . ولـكن حدث أن تخلى رشاد مهنا - وهو أحد الضباط الأحرار - عن التنظيم وهرب . فوقع بذلك عبد الناصر ورفاقه تحت التهديد . فتقرر تأجيل الانقلاب إلى سبتمبر .

مع بداية يوليو إلى نهاية سبتمبر اعتاد الملك الاستجمام فى المنتزة ؛ وتصحبه إلى هناك أسرته وكل الحاشية ؛ من حلاقين ، ورجال « مساج » ، والطهاة والسائقين والحرس .

فـكان الملك يجلس مساء فى الشرفة ، مستمعاً للأوركسترا الذى يعزف بهدوء موسيقى حديثة . وكان يتردد على القصر ضيوف كثيرون ، خاصة السيدات الشابات الجميلات . وتخفت الأنوار

فى منتصف الليل ويهيم الملك راقصاً . وفى فترة السكون تلك التى اعتاد عليها الملك ينسى جلالته كل المآسى التى تحيط به .

وكان الوزراء ينتقلون إلى الإسكندرية جرياً وراء الملك . ويتوقف العمل فى المؤسسات الحكومة فعلياً فى هذه الفترة .

وغادر عبد الناصر القاهرة بجوها الحار بعد أن تسلم تصريحاً بالإجازة . وفى مكانه المريح الجديد . كان يفكر ويتأمل تفاصيل العملية . ولكن فى ١١ يوليو وصل إليه استدعاء يطلب منه العودة إلى الأكاديمية لإعداد أوراق الامتحانات . وكانت الزوجة والأولاد غير راضين عن قطع الإجازة .

أما عبد الناصر فكان سعيداً ، لأنه كان يرغب فى العودة للقاهرة سواء بهذا الأمر أو بغيره . إلا أن تنقل الضباط كان مراقباً ومتابعاً بشدة . وإذا بهذا المخرج المقبول للغاية للعودة للقاهرة .

تواجد بالقاهرة أربعة أشخاص فقط من الأعضاء التسعة لمجلس قيادة الثورة ، وسرعان ما لحق بهم العضو الخامس عبد الحكيم عامر ، الذى منحته القيادة أجازة قصيرة بسبب مرضه ، وطلب منه عبد الناصر أن « يطيل فى مرضه » .

كانت المعلومات التى وصلت من مصادر التحرى تفيد بأن الملك يعد العدة لضرب « الضباط الأحرار » فأعطى أمراً فى ١٥ يوليو

بحل مجلس نادى الضباط وعزل الضباط من مناصبهم . وكان من المتوقع إذن إجراء اعتقالات .

« والآن يتحدد السؤال : من يعتقل من ؟ » قال ذلك عامر :

فى ١٦ يوليو طالب عبد الناصر باجتماع هام لمجلس قيادة الثورة . واجتمعوا فى منزل ثروت عكاشة ، وجاء كل من جمال ومحي الدين ، وطالبا كما هى العادة بإدارة إسطوانة « شهر زاد » وسرعان ما سحرتهم الموسيقى . جلس عبد الناصر بعيون حالمة مستمعاً باهتمام وعندما انتهت ، نهض جمال وأغلق الجهاز قائلا :

« سنبدأ مع بداية الشهر القادم » . تذكر ذلك ثروت عكاشة .

نوقشت فى الاجتماع مسألة كيفية تحرك « الضباط الأحرار » فى الظروف الجديدة . فاقترح البعض القيام بعدة اغتيالات للمقربين من الملك والمحتلين الإنجليز . وكان عبد الناصر ما زال يذكر حتى هذا الوقت محاولة اغتيال سرى عامر . ورفض عبد الناصر نهائياً عمليات الإرهاب . وفى ١٨ يوليو عقد اجتماع جديد أعلن فيه صراحة أن الإرهاب لن يصل لشىء . وشرح عبد الناصر ضرورة إعداد الجيش للثورة .

واتفق على أن يذهب ناصر وعامر ويجلسا مع نجيب ويشرحا له أهدافهم . وتوجها فى اليوم التالى إلى شقة اللواء نجيب . ولكن كان عند نجيب ضيفان أحدهما ضابط شاب ، والثانى صحفى

محمد حسنين هيكل . فجلسا قليلا وسألا عن اللواء نجيب وصحته ، ثم غادر الصديقان المنزل .

توجه ناصر إلى مبنى القيادة ، ولحق به هناك عامر وكمال الدين حسين . وجلسوا يعدون طوال الليل تفاصيل خطة الثورة .

قال عبد الناصر :

« تكفينا كتيبة واحدة من ضمن النسع كتائب الموزعة فى القاهرة » .

— هذه لعبة كبيرة . علق ملاحظاً كمال الدين حسين .

— ولكن ليس لدينا إلى الآن ولا دبابة واحدة . مضيفاً عامر .

وليس لدينا سوى عشرة أشخاص من قوات الطيران » .

أضاف جمال مؤمناً على الكلام قائلا :

ولهذا فالنجاح يتوقف على سلامة توقيت تنفيذ الخطة .

وقال عامر : يجب أن يدعى أنور السادات من سلاح الإشارة .

— ولكنه فى سيناء . قال مذكراً كمال الدين حسين .

— فلنرسل له طائرة ـ قال عبد الناصر ـ وإذا لزم الأمر ليخطف حسن إبراهيم طائرة .

وطار حسن إبراهيم بعد ساعات معدوده إلى سيناء . فى نفس الوقت الذى أبلغ فيه عبد الناصر كل الأعضاء الموثوق بهم فى

تنظيم « الضباط الأحرار » ليتواجدوا فى القاهرة فى ٢٢ يوليو بدون تأخير . وأخبرهم باحتمال قيام الثورة، وطالبهم بالبقاء فى منازلهم فى الساعة الثالثة ظهراً حتى صدور أوامر أخرى .

ويروى خالد محيى الدين أن الخطة التى اقترحها عبد الناصر كانت واضحة وبسيطة . ففى الساعة المحددة كان يجب على « الضباط الأحرار » أن يدخلوا الثكنات . وأن يقبضوا على قيادات الجيش، ووضعهم تحت التحفظ . كما كان بالتالى من المهم إبعاد الذين لا علاقة لهم بالحركة وحدد لكل مشترك فى الثورة الأماكن التى يجب الاستيلاء عليها . إقترح ناصر أن تحتل كتيبة المشاة الثالثة عشرة القيادة بينما على الفرق الأخرى الاستيلاء على مطار الماظه ، والاذاعة ، والكبارى ، ومكاتب البريد والتلغراف ، على أن يتقابل الثوار جميعاً فى القيادة .

كان ناصر ينام دقائق معدودة فى تلك الأيام . وقلقت عليه زوجته، شاعرة بأن هناك ما يشغل زوجها . وكان يرد على أسئلتها بابتسامة .

وفى إحدى الليالى عندما وصل زوجها رأته وهو يضع تحت السرير سلة بها برتقال . وبكرت تحية فى الاستيقاظ كما هى عادتها لإعداد الإفطار . وقررت إعداد عصير برتقال . وعندما كشفت

السلة ، عثرت على قنابل تحت البرتقال وقالت تحية لجمال وهى تضع الافطار .

— « أظن أنك أصبحت قوى العضلات منذ أن بدأت تحمل هذه السلال » .

سكت جمال ، فهو فى البداية لم يخبر زوجته بنشاطه السرى . ولكنها كانت تستطيع أن تتنبأ بذلك .

وفى القاهرة صيفاً وتحت قيظ أيامه ينتشر الضباب . وفى المساء فقط تعمل نسمة الهواء الخفيفة على تلطيف الجو . ومع بداية حلول الظلام تضاء المدينة بأنوار الإعلانات . ويجلس المرهقون من قيظ النهار على الكازينوهات الممتدة على شاطىء النيل المنساب . وكانت الشوارع الرئيسية للمدينة مكتظة فى تلك الأيام بمن يلبسون الماس والذهب اللامع ، بينما هناك من لا بيوت لهم ينامون على الأرصفة فى الحوارى المظلمة والرطبة .

وفى المنتزة وليلة ٢٢ يوليو كان هناك عيد . إذ أتم وريث العرش أحمد فؤاد ستة أشهر من عمره . فالملكة ناريمان سعيدة منتعشة بعد استحمامها فى البحر ، وبدأت بعد أن أخذت « دوشاً » فى إصدار آخر أوامرها . فهى قد نسيت فى فترة وجودها فى البحر الاحداث الحزينة ليوم « السبت الأسود » .

عقد « الضباط الأحرار » في ٢٢ يوليو — أى فى عشية الانتفاضة آخر إجتماع ، فى شقة خالد محي الدين . حددت فيه مرة أخرى الدقائق والتفاصيل المرسومة للخطة . ووقع اختيار المشتركين فى العملية على كلمة « النصر » كلمة السر .

وأعد عبد الناصر كشف الـ ٩٩ عضواً الذين كان يجب أن يكونوا على علم بكلمة السر ، أما بخصوص الأعضاء الآخرين فى التنظيم فلم يعلموا بالثورة . وتحدث عبد الناصر فى هذا اليوم إلى الـ ٩٩ عضواً فى الحركة شخصياً . موضحاً أمامهم المهام المحددة والدقيقة . وكانت سيارته الأوستن السوداء تمرق فى شوارع القاهرة طوال اليوم .

وكان لدى أعضاء الثورة كشف آخر بأسماء العشرين لواء الذين ينبغى اعتقالهم .

منع الثوار بعد أن استتبت لهم السيطرة على الثكنات دخول الضباط حاملى رتبة رائد فأعلى .

تم الإبقاء على صلاح سالم فى سيناء حتى لا يسمح بإيفاد أية قوات من هناك لإخماد الثورة .

بينما كانت مسئولية خالد محي الدين هى الاستيلاء على منطقة

العباسية ذات الموقع الاستراتيجى الهام ، حيث كانت تتواجد ثكنات الجيش .

ويحاصر عبد الحكيم عامر القيادة العامة .

وعبد الناصر يقود العملية بأكملها .

وكان من الضرورى إبلاغ أعضاء التنظيم بالاسكندرية حيث يوجد بها الملك والحكومة والعديد من القنصليات الأجنبية ؛ وقرر ناصر إرسال أخيه إلى هناك .

وبعد الاجتماع ذهب عبد الناصر إلى السادات ، ولكنه لم يعثر عليه فى بيته . ولم يكن من الممكن انتظاره . فترك له بطاقته ، واتجه جمال لإخبار الضباط الآخرين .

واجتمع ضباط كتيبة المدرعات بمنزل ثروت عكاشه . وأعلنوا أنهم فى حاجة إلى رشاشات . ووعدهم عبد الناصر بالمساعدة .

ولم يبق إلا العثور على الضابط المسئول عن مستودع الذخيرة السرى . وكان بدوره غير موجود بمنزله .

وأكمل عبد الناصر طريقه . ووقع ما لم يكن متوقعاً ، إذ استوقفه ضابط بوليس .

ـ ما الأمر ؟ سأل جمال .

ـ الفانوس الخلفى عندك لا يضىء .

وبعد مهاترة طويلة ركب الضابط فى النهاية الموتوسيكل . واستمر عبد الناصر فى المرور على الضباط . وقرر العودة للمنزل بعد أن أرهق إرهاقاً شديداً . كانت زوجته قد نامت هى والأولاد بينما جلس أخواه الليثى وشوقى بجوار الراديو .

وأخذ جمال « دوشاً » . وأثناء ارتدائه لملابسه دق الباب ، وأيقن جمال على الفور أن الطارق عسكرى . ودخل الملازم أول سعيد توفيق وهو لم يكن ضمن كشف الـ ٩٩ ، وخشى عبد الناصر أن يعتمد كلية عليه وسأل سعيد وهو يقف أمام المدخل .

ـ جمال ماذا يحدث ؟

فهز جمال رأسه دلالة على عدم فهم معنى السؤال .

ـ ماذا سيتم مساء اليوم ؟

وعاد جمال وهز رأسه مدخلا إياه داخل الشقة .

ـ لماذا إذن ترتدى الزى العسكرى ؟

ـ هل جئت تستجوبنى ؟ سأله جمال بحزم .

ـ بل جئت لأقول لك ، يجب تأجيل الهجوم .

ـ تأجيل ماذا ؟

ـ الهجوم ـ الذى أعددته .

ـ لماذا ؟

ـ لقد ابلغوا .

ـ من ذا الذى أبلغ ؟

ـ إن فاروق يعلم بالإنقلاب . واتصل بالقائد العام .

ـ هكذا إذن . ومن أيضاً . . تكلم بسرعه ؟

وكانت تلك ورطة جديدة .

ـ أمر القائد العام باستدعاء جميع قادة الألوية والفرق فى قيادة الجيش إلى كوبرى القبة .

ـ وكيف علمت بذلك ؟ سأله جمال وهو مازال مأخوذا من كلامه .

وشرح له سعيد قائلا :

ـ إننى الضابط النوبتجى الليلة فى قيادة المخابرات وانتهزت بالكاد دقيقة لكى أحضر اليك ، إننى أستسمحك ـ بإرجاء العملية .

ـ لا . هذا مستحيل ـ أجابه جمال مصدقاً أخيراً سعيد . إن الترس بدأ يدور . هل يمكنك إعادته ؟

ـ لا ـ أجابه سعيد بطريقة مفاجئة . إنى سأبقى معك . فأنا مثلك « ضابط حر » . فطلب عبد الناصر من سعيد الإسراع بالعودة لمنزله لاستبدال ملابسه ، على أن يحمل سلاحه ، وينتظره فى المكان المحدد .

وبعد ذلك تحدث جمال لإخوته قائلا :

« إنى أملك مائتى جنيه . مائة اخذتها لنفسى ، والمائة الثانية أعطيكما إياها . فإذا حدث لى شيء فلترعوا أسرتى ...

ثم ركب سيارته واتجه إلى عامر . وفى لقائه به أخبره بالإجتماع العاجل للقيادة .

ـ لو نتمكن من اعتقالهم جميعاً وفوراً ! قال ناصر ذلك . . وكان الهجوم محدداً فى الواحدة مساءا . وتشير ساعة جمال إلى الحادية عشرة و٤٢ دقيقة . واقترح عامر « فلنذهب إلى التشكيلات . ونثير الجنود .

وكان باب الدخول الرئيسى للمدينة العسكرية مغلقاً . وعلى غير المعتاد تواجدت أعداد كبيرة من البوليس الحربى أمام المداخل لحراستها . كما أغلقت الأبواب الأخرى التى مروا عليها .

وتساءل جمال : « فعمل من هذا ؟ » .

فأجابه عامر : « فلنحاول الدخول من الجهة الأخرى » .

وتذكر جمال الآن فقط أنه لم يذهب لسعيد توفيق ، وكانت الساعة الحادية عشرة وخمسون دقيقة ، فقرر أن يكون عند كلمته وأن يعود إليه ، وبجوار جامعة عين شمس ، شاهد ناصر وعامر أمامهم صفاً من العربات المدرعة .

— إن الأعداء يتحركون بسرعة ، قال ناصر ذلك ضاغطاً على الفرامل .

— أعتقد أنهم الثوار ، قال عامر .

وتوقفا جانبا ، وعندما اقتربت العربات الأولى أدرك ناصر وعامر أنها الكتيبة الثالثة عشرة .

وعلى غير المتوقع أمر ملازم بمحاصرة عربة ناصر « الأوستن » .

— يمكنك أن تذهب من هنا .. صاح بوقاحة فى عامر وهو بملابسه المدنية .. أما أنت أيها الضابط فأنت معتقل ، وحرك المسدس أمام أنف عبد الناصر .

ففى هذه الليلة كان محظوراً تجول الضباط فى شوارع المدينة وبدأ يظهر عبد الناصر نفاد صبره ، ومر الوقت ، كان من

المفروض أن يكون القادة قد انتهوا من اجتماعهم ، ويستطيعون إعطاء الإشارة .

قال جمال للضابط : إنى أعرف قائدك .

— أنت لا تعرف أحد ، أنت لا تعرف ما هى تلك الليلة .

وفى هذه اللحظة مرت سيارة جيب .

— جمال — سمع صوتاً يناديه — ماذا تفعل هنا ؟.

تعرف جمال على القائمقام يوسف صديق قائد الكتيبة ، وكان جمال قد طلب منه فى الصباح عدم الاشتراك فى الانقلاب ، لأنه كان مصاباً بالسل ، وكان صدره ينزف عشية تلك الليلة ، ولكن يوسف كان ماركسيا ، مولع بالثورة ، وهو الآن يبتسم سعيداً ، وكان أغلب الضباط الموجودين فى الكتيبة طلبة عند ناصر فى الماضى .

قال جمال :

— لقد قبضوا علينا .

— وقائد فرقتنا أيضاً قبض عليه ، أضاف يوسف محدثاً جمال اجلس فى عربتى ، فالمجموعة المكلفة بتنفيذ المهمة مستعدة .

وتصور عبد الناصر الموقف كله فى خطوطه العامة .

فقال جمال : على كتيبتك الآن أن تعتقل القادة المجتمعين حتى الآن دون إبطاء .

وأعطى الأمر ، وتابعت الكتيبة مسيرتها ، وحاصرت مجموعة صديق القيادة ، حاولت قوات الحراسة المقاومة ، واستمر إطلاق النار عشر دقائق ، على إثره خرج القادة من المبنى رافعى الأيدى .

قال جمال :

ــ بزيادة ثمانية عن العدد المكتوب فى الكشف .

فى هذا الوقت ظهر أنور السادات ، منفذا لتكليف ناصر ، استطاع حسن ابراهيم أن يتواجد فى سيناء وأخبر السادات بأن الثورة ستقوم فى الفترة ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس ، فركب السادات القطار بعد أن ادعى للقائد أن والدته مريضة ، فوصل القاهرة يوم ٢٢ يوليو ، ولهذا لم يجده ناصر فى هذا اليوم فى بيته ، فكان من الضرورى إسناد هذه المهمة إلى ضابط آخر .

كتب السادات يقول :

ــ وصلت القاهرة فى الرابعة والنصف ، فقررت قضاء الليل مع الأولاد فى سينما صيفى ، وهى تقع على مقربة من المنزل ، على أن أتواجد صباح اليوم التالى عند عبد الناصر لأتسلم منه التكليف الموكل إلى . فى هذا الوقت حضر عبد الناصر إلى بعربته المعروفة « الأوستن » فلم يجدنى بالمنزل ، ثم عاد ومر على بعد ساعة ، وترك « كارت » مكتوبا عليه « الخطة ستنفذ اليوم . مساءا . عند عبد الحكيم عامر فى الحادية عشرة . » .

« وبعد عودتى من السينما — مستطرداً السادات — أسرعت إلى عامر ، ولكنه لم يكن موجود .

فى البداية أردت الذهاب إلى القيادة العامة ، فإذا كانت العملية ستبدأ فمعنى هذا أن الثوار سيتوجهون بالضرورة إلى هناك . فرقت فى شوارع القاهرة بأقصى سرعة يمكن لسيارتى السير بها . وبجوار نقطة حراسة العباسية أوقف ضابط العربة . وعلى الرغم من أنه ما زال ملازماً إلا أنه قال لى بصوت صارم عندما نظر إلى أكتافى :

— اذهب إلى فرقتك وانتظر فى الصباح أوامر أخرى .

تابعت سيرى إلى نقطة السوارى ، ولكن الطريق كان مغلقا ، ترامت إلى أصوات طلقات من ناحية القيادة . فأدركت أن العملية بدأت ، قررت أن أعبر مسرعاً من خلال قواتنا ، ولكن الضابط لم يسمح لى لأنى كنت لا أعرف كلمة السر ، فكان موقفى حرجاً للغاية ، فأنا لا أعرف كلمة السر ، كنت أستطيع فقط أنه اجتاز طريقى على جثة الضابط الشاب ، فماذا يمكن إذن عمله ؟

فعدت بالسيارة ، واتجهت إلى كوبرى القبة لكى أصل إلى المدخل الآخر المستشفى العسكرى ، فوجدت الطريق مغلقاً هو الآخر ، ولكن تعرف على ضابط الحراسة إذا كان ملازم ثان خدم معى فى رفح ، وأمضينا معاً فترة طويلة هناك . هدأت . .

وسرت بالعربة إلى البوابة . وبدأ الأمل يعود إلى . إذ أنه رغم كل هذا الذى حدث فسأشترك فى العملية .

وما كدت اقترب من البوابة حتى سمعت صوت صديقى الملازم يأمرنى بالتوقف . ثم اقترب منى ، محدقا فى وجهى . ولكن وجهه لم يدىء بشىء طيب ، فصديقى هذا لم يكن يعلم أننى من « الضباط الأحرار » وأمر باعتقالى .

وشعرت بضيق فى صدرى . وكان رأسى على وشك أن ينفجر . وبدون جدوى حاولت أن أشرح له ، ولم تنفع تلك الصداقة التى كانت تربطنا . . فهو لم يصدقنى لعدم معرفتى لكلمة السر ، لم أستطع أن أفكر فى شىء ، وأصوات الطلقات أصبحت أكثر وضوحاً .

وفجأة دب فى الأمل . عندما ترامى إلى وأنا واقف مع الضابط الذى اعتقلنى على الكوبرى صوت عامر . ! وانتعشت ، ومرت عربات حاملة الجنود والضباط . وكانت تلك هى قواتنا العسكرية الثائرة .

— عبد الحكيم ، عبد الحكيم . أنا أنور .

واتجه نحوى عامر . فقط فى هذه اللحظة أفرج عنى الملازم .

وسرت مع عامر . وأعطانى عامر مسدساً إذ كنت بلا سلاح .

كان عبد الحكيم فى هذه الليلة مسلحاً حتى أخمص قدميه .

قال عامر :

— استلمت القيادة العامة

* * *

لا ينام سكان القاهرة فى ليالى الصيف الحارة . ولا تهدأ الضوضاء فى الشوارع حتى ساعات النهار الأولى ، ولكن فى هـــذه الليلة انفضت الشوارع ، وخبت الأنوار فى المنازل وأسرع أصحاب المحال بالإغلاق ووضع المزاليج على أبوابهم . فى هذه الليلة زمجرت أصوات الدبابات فى شوارع العاصمة المصرية . وتحركت طوابير الجنود . وظن الناس أن الجيش الانجليزى المرابط على القناة سيدخل القاهرة .

— فى هذه الليلة المشهودة — يحكى خالد محيى الدين — كان على أن أتحرك بالكتيبة المدرعة للاستيلاء على المراكز الهامة الواقعة فى منطقة العباسية — هليوبوليس . كان الجنود يعرفوننى ، ولهذا لم تكن هناك صعوبة كبيرة فى إقناعهم بالحركة .

قلت لهم : أيها الجنود إن وطننا فى موقف صعب ، فى هذه اللحظات الحرجة يطلب منا مجلس قيادة الثورة بأن نقوم بواجبنا .

كان هذا كافياً لتتحرك الكتيبة فى ثوان تحت قيادة ضباطها . إلا أنه ظهر فى الثكنات ضابطا ، كان فى إمكانه أن يفشل العملية كلها . فما كان منا إلا أن اعتقلناه .

ونفذ السهم . وأمرت الجنود بالاستيلاء على الأماكن التى حددها ناصر . واستولينا عليها جميعاً تقريباً بدون مقاومة .

بعد أن تأكد ناصر أن العملية تسير وفق الخطة الموضوعة ، اتجه إلى مبنى القيادة وجلس إلى المكتب وبجواره التليفون . ولم يكن قد نفذ أمر قطع الاتصالات بعد . ولكنها الآن أصبحت فى أيدى الثوار ، فهم يستطيعون من خلالها معرفة ما يدور فى مناطق البلاد الأخرى . وبعد دقيقة واحدة رن التليفون . اتصل اللواء النجومى من الأسكندرية طالباً معرفة مكان القائد العام .

ــ الباشا يتفقد المواقع . أجابه ناصر .

ــ مع من أتشرف بالحديث ؟ ــ سأله اللواء الذى لم يهدأ .

ــ الضابط النوبتجى .

واستمر اللواء فى حديثه قائلا :

ــ لقد تمكنوا من إبلاغى بالتليفون بأن طلقات الرصاص تسمع فى الشوارع ، ثم قطع الاتصال . ما الذى يدور فى العاصمة ؟

لا شىء غير عادى . مهدئا إياه جمال .

وانتصر الثوار . ولكن كان ناصر يعتقد بأنه يجب الاحتراس ، خاصة وأن السلطة ما زالت فى أيدى الملك . وإن كان « الضباط

الأحرار ، الحليون قد تسلموا رسالة عبدالناصر ، إلا أنهم تشككوا في صدقها .

وكان جرس التليفون يرن بلا انقطاع . فما كان من جمال إلا أن يرفع السماعة ويرد بآلية :

— جمال عبد الناصر . من المتكلم ؟

— ماذا تفعل عندك يا جمال ؟ سأله صوت مندهشا ، وكان في هذه المرة صوت لواء سابق كان أستاذاً لجمال .

— « سيادة اللواء — من الأفضل في هذه اللحظة أن تكف عن توجيه الأسئلة . اذهب واخلد للنوم . » رامياً « بغيظ سماعة التليفون » .

وظهرت أمام مبنى القيادة العامة للجيش فرقة من الجنود . أراد اللواء المهان مهاجمة الثوار ، ولكنه أدرك أن قائد الفرقة أعلن تأييده للثورة .

وبعد دقائق عاد رنين التليفون مرة أخرى . فرفع جمال السماعة وكان المتحدث اللواء نجيب .

— « لقد اتصلوا بي من الاسكندرية يستفسرون ، ويريدون معرفة ما الذي يدور في القيادة العامة للجيش . » بادئاً نجيب

حديثه

ـ ثار الضباط الأحرار . . اليوم مساءا . ولقد أرسلت لك سيارة . .

ووصل محمد نجيب فى الثالثة صباحا . دخل وهنأ جمال بالنصر ثم جلسوا للتشاور حول الموقف فى البلاد .

* * *

تم تكليف على صبرى قائد مخابرات القوات الجوية بالتواجد فى القيادة ، كلفه ناصر بإبلاغ السفارة الأمريكية على وجه السرعة بالإنقلاب .. وأنه تم تعيين اللواء محمــــد نجيب قائداً للثورة . « وأخبر الأمريكان أن الثورة ليست موجهة ضد الحكومات الأجنبية . وأطلب منهم أن يبلغ السفير الأمريكى هذا للسفير البريطانى » .

وخلال بضع دقائق اتصل على صبرى وقال أنه تم الاتصال بالسفارة الأمريكية تليفونياً وأن السفير الأمريكى « كافرى » وعد بإبلاغ كل شىء للإنجليز .

وبهذه الطريقة هدأ عبد الناصر من توجس الأمريكان . وهى خطوة ذكية إذ تصور الأمريكان أن بإمكانهم أن يتوقعوا التعاون مع النظام الجديد ؟ حيث أن ممثليــــه اهتموا بإبلاغ سفارتهم وهو بدوره ما دعى لندن إلى الحذر لكونها علمت بالإنقلاب عن طريق السفارة الأمريكية .

وجاء من فرق الاستكشاف الموجودة على طريق السويس أخباراً سارة. فأبلغت بأنه لا توجد أية تحركات مقصودة من جانب القوات الإنجليزية .

وظهر فى الرابعة صباحاً اليوزباشى المجهد حسين الشافعى الذى روى :

« خرج القائد العام من الإسكندرية لمعرفة حقيقة الأمر فوقع مباشرة فى أيدينا ، حاول فى البداية التهديد. فقبضنا عليه، واستولت قوات الثوار على المواقع الاستراتيجية ، من بينها الإذاعة والمطار ومحطة السكة الحديد . .

ولكن فى نفس الوقت تمكن اللواء سرى عامر من الهرب وهو ما أقلق قليلا عبد الناصر .

وفى الخامسة صباحاً جاءت مكالمة تليفونية من الإسكندرية . وكان المتحدث رئيس الوزراء نجيب الهلالى . فأعطى ناصر السماعة لنجيب . وبعــــد محادثة طويلة ومملة اقترح رئيس الوزراء أن تشكل حكومة جديدة على أن يعين فيها نجيب وزيراً للحربية . وكان هذا يعنى أن الملك قد بدأ يتنازل . وكان القصر فى فزع ، ورفض نجيب الاقتراح بعد تشاوره مع ناصر وعامر .

أعد عامر نص بيان الثورة لنشره فى الصحف . واجتمعوا

اجتماعاً قصيراً لمناقشة مسألة تقديم محمد نجيب للشعب . ونصح عبد الناصر بأن يلقب « بالقائد العام للقوات المسلحة المصرية » . ووافق الجميع .

وفى السابعة من صباح يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، توجه أنور السادات إلى مبنى الإذاعة وأذاع نيابة عن اللواء نجيب بيان الثورة التاريخى والذى بدأه بصورة مهيبة :

« أيها المصريون - إن بلدكم يعيش الآن أعظم لحظات تاريخه »
وتحدث اللواء نجيب أمام مجموعة كبيرة من الصحفيين الذين اجتمعوا بعد إعلان البيان فى الراديو .

واستدعى ناصر أحد أصدقائه وخاطبه قائلا .

ـ إذهب إلى زوجتى وأرو لها كل شىء .. وقل لها إنى قد أقسمت بأن لا أعود إلى بيتى إلا بعد مغادرة فاروق أرض مصر » . . .

ثم اجتمع مجلس قيادة الثورة حيث نوقشت فيه المشاكل المتعلقه بتشكيل الحكومة . واقترح جمال أن يكلف بهـا على ماهر أوشرح وجهة نظره قائلا :

ـ من المهم أن يكون شخصاً له مكانة كبيرة قبل القصر .

شخص فى إمكانه أن يجعل فاروق يوقع على وثيقة التنازل عن العرش » .

وكلف أنور السادات بالإتصال بعلى ماهر فوجد أن رئيس الوزراء المقبل يأخذ حماما . ولكن قبل أن يفهم السياسى المخضرم أى شيء عن ماهيه هذه الثورة التى حدثت فى البلاد ، بدأ يفند الإتهامات ضد الملك الواحدة تلو الأخرى باستفاضة ومهابة كما هى عادته ، ووعد فى النهاية بأن يفكر فى الأمر . .

وظهر اسم اللواء محمد نجيب على الصفحات الأولى لصحف العالم أجمع ، وخرج صباحاً فى المدينة ، وفى كل مكان ظهر فيه التفت حوله جماعات القاهريين الفرحة تهنئه . ولكن كان القليلون هم الذين يعلمون أن هناك زعيما سرياً للثورة . وظل عبد الناصر ضابطاً متواضعاً غير معروف فى نظر الأغلبية المطحونة من المصريين .

وقد كتب ناصر فيما بعد :

— « لقد أمرت بأن لا يكشف النقاب عن أى فرد إلا اللواء نجيب . كنت أريد أن يركز الضوء كله حوله . والسبب الرئيسى فى هذا يرجع إلى خوفى من حدوث انقسام فى صفوف « الضباط الأحرار » . كنا جميعاً سننا يتراوح بين الثانية والثلاثون ،

والرابعة والثلاثون ، باستثناء خالد محي الدين فقد كان أصغرنا .

كنا جميعاً فى نفس الرتبـة تقريباً . وكنت أدرك أن الانجليز وأعداءنا فى الداخل سيحاولون ضرب بعضنا بالبعض الآخر إذا ما أعطيناهم نحن هذه الفرصة. ولـكنى حرصت على أن أجعل شخصا يكبرنا جميعاً كنجيب رئيساً لنا ، بذلك افترضت أننا سنبقى على الوحدة فيما بيننا .

وتم فرض رقابة شديدة فى البلد لمتابعة عدم تسرب أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة للصحف .

وكتب اللواء نجيب خطة عمل للثورة . كتبت سيرتها فى الولايات المتحدة . وعندما مر على الانقلاب بضعة أسابيع تمكن أحد الصحفيين الانجليز المعروفين من الحديث مع عبدالناصر ، واندهش الصحفى !

— إنه يناقش كأنه شيوعى — أسر الصحفى الإنجليزى بانطباعاته تلك إلى هيكل — ألا تستطيع تنظيم مقابلة مع نجيب ؟

فلقد كان ناصر قليل الاهتمام بالصحفيين الأجانب .

وانتصرت الثورة . ولـكن تسربت إشاعات بأن الملك الموجود فى الإسكندرية يعد تحركا ضد الثورة . وكانت سرعة التحرك واجبة . فأصدر عبد الناصر أمراً بتوجه فرقتين إلى الإسكندرية

تحركت واحدة عبر الصحراء ، والأخرى عبرت عن طريق دلتا النيل . وجاءت فى اليوم التالى أخبار فحواها أنه قبض على سرى عامر فى الصحراء ، وهو الآن فى طريقه إلى القاهرة تحت الحراسة

وقرر ناصر أن يرسل أنور السادات إلى الأسكندرية وقال له وهو يودعه : لا تنس أنه على الملك أن يغادر البلاد فوراً .

وخلال عدة ساعات رن جرس التليفون . وعلم « الضباط الأحرار » أن نجيب الذى طار مع السادات إلى الأسكندرية قد قوبل بابتهاج .

بيد أن شيئاً ما أوجب اليقظة . إذ أن لا أحـــد ممن كانوا فى الأسكندرية كان على علم بالمـكان الذى يوجد فيه الملك .

وأمر عبد الناصر بأن تبـدأ التحريات بسرعة . وعن طريق بعض التحريات عرف أن الملك يجرى اتصـالات مع الانجليز وطلب استدعاء قوات من القناة .

ووصلت قوات الثورة الإسكندرية فى الليلة التالية لتحركها . وعين عبد الناصر خالد محيى الدين قائداً للعملية ، أما السادات فعليه إعداد الوثيقة التى سيقدمها على ماهر للملك .

وفى نفس الوقت كان مجلس قيادة الثورة يبحث موضوع الخلافات التى أثيرت حول المصير النهائى للملك . فصلاح سالم كان

يؤيد حكم الإعدام . والسادات كان يهدف إلى إتمام أمر ناصر بمغادرة الملك للبلاد فوراً . بينما زكريا محيي الدين كان متردداً . ولم يشترك نجيب عامة فى المناقشة . ووصل القاهرة فى صباح اليوم التالى جمال سالم ، الذى طالب بدوره بالإعدام .

وعقد الأعضاء الخمسة المتواجدون فى مجلس قيادة الثورة اجتماعاً . تحدث فى بدايته جمال سالم ثم تلاه ناصر قائلا :

— إذا أعدم الملك فاروق فسيمزق الشعب غداً أكثر من ٣٠٠ شخص من أتباعه وهذا يجرنا إلى مجازر جديدة لا يمكن إيقافها .

وبعد نقاش حاد استمر عدة ساعات وقفت الأغلبية فى صف ناصر .

كانت هناك من اليوم الأول بعد نجاح الثورة صفات ساعدته أكثر من مرة على أن يتماسك جمال ويبتعد عن حافة الضياع — الحذر ، الاعتدال ، التقدير . مبدياً الحسم والصلابة فى لحظات الهجوم الثورى ، فلم يرغب ناصر بالمقامرة الآن بعد أن نجحت الثورة .

— من الضرورى التخلص من فاروق بأقصى سرعة ممكنة ، حتى يمكننا الالتفات إلى ماهو أهم . وهو إزالة الفساد فى البلاد . .

يجب علينا أن نمهد الطريق لعهد جديد عندما يمارس الشعب حقوقه في السيادة

العدالة — إنها أحد مبادئنا . إننا لا نريد معاقبة فاروق دون محاكمة . ولكننا لا نستطيع أن نبقيه معتقلا طوال فترة إجراء التحقيق إذا كنا لا نريد أن نخاطر بالثورة . فلنتخلص إذن من فاروق ، على أن يطرد ، والتاريخ هو الذى سيحكم عليه بالموت .

وكان قراراً سلبيا . فيه استبعد التدخل الانكليزى . وبدا ناصر رجل تكتيك جيدا لتبنيه هذا القرار . وكتب فيما بعد نجيب يقول :

« إننى لم أشعر بإعجاب شديد بعبد الناصر مثل ما شعرت به فى هذه اللحظة . » وهو الذى كان دائماً يثور وهو يختلف مع عبد الناصر حول كثير من المسائل وأخذ منه مواقف متماثلة .

وعند ظهور الملك فاروق فيما بعد فى أوربا وعن سكره وحياة العربدة التى كان يحياها ، كتبت الصحافة فى كل أنحاء العالم . وهو ما أفاد الثورة المصرية أيما إفادة ، وكان أفضل من الإعدام الذى طالب به البعض من « الضباط الأحرار » .

وسرعان ما جاءت مكالمة من الاسكندرية فى مكتب جمال . أبلغ « الضباط الأحرار » بأن الثوار قد استولوا على كل من قصر

المنتزة وقصر رأس التين وحلقت الطائرات فى الجو منعاً لأية محاولة يقوم بها الملك للهرب .

* * *

عاد فاروق إلى مصر - وهو مازال شاباً — من انجلترا . حيث كان يدرس هناك لـكى يتوج ملـكاً بعـد وفاة والده الملك فؤاد . وبشر البعض بأنه سيكون للملك الشاب مستقبـل كبير . ولـكن « أمل مصر » ظهرت مواهبه فقط فى « التجميع » ، فـكانت ترسل له من النمسا والبرازيل صناديق من الفراشات . وكان أشهر علمـاء المسكوكات فى باريس وروما يتبادلون من أجله أندر العملات النقدية وطوابع البريد .

وتزوج بعد ذلك بقليل فتاة من عائلة إقطاعية كبيرة وهى عائلة ذو الفقار . وأضيف إلى حرفى « ف » (فؤاد — فاروق) اللذان كان يرمز بهما إلى حاجياته الخاصة حرف « ف » ثالث إشارة إلى إسم « فريدة » (وهو اسم الملـكة الجديدة) . وسيظهر الحرف الرابع عندما يجىء (فؤاد الإبن) .

وبدت الملـكة الجديدة امرأة ذات شخصية قوية . فى البداية مارست تأثيراً كبيراً على رخاوة فاروق . ومع الوقت أصبحت عالة متجسرة على عاتق الملك . وفى المقابل كان الوفى « بولى »

الإيطالى يستطيع دائماً أن « يقيم » ليس فقط حفلات الخمر المعتق بل كان يجند معسكراً كاملا من الشقراوات ذوات العيون الزرقاء ، من مختلف الدول الأوربية . وفقد فاروق عقله فى حياة العربدة . وطالبت فريدة بالطلاق .

وكان الملك فى حاجة إلى وريث . فى الوقت الذى كان الأطباء يخشون من إهمال صحته من أن تعوقه فلايكون له نسل . وعلى الرغم من هذا تزوج للمرة الثانية ، وفى هذه المرة كانت الملكة من عامة الشعب . وكانوا ينادونها « بناريمان » .

ولم يغير الزواج الجديد من حياة الملك . وأصبح « لبولى » السيطرة الكاملة عليه .

وعند علمه بالانقلاب وقع الملك فى حيرة كبيرة . فتارة يأمل فى إيجاد مخرج جيد وبمعجزة ، وتارة أخرى يقال أن أحداً ما سينقذه . وحاول يائساً إنقاذ نفسه فلجأ إلى كل من الإنجليز والأمريكان . لدرجة أنه طلب من « كافرى » أن يرسل له سفينة ، حتى أن السفير (كما كتب أنور السادات) أخذ عليه بأن الهرب لا يليق بملك .

وعلى أثر محادثة « كافرى » وفى لحظة مغادرته المسكن الملكى ، وصل لقصر التين مجموعة من « الضباط الأحرار » .

وحذر الملحق العسكرى لسفارة أمريكا فى صباح ٢٦ يوليو

« الضباط الأحرار » من أن واشنطن مصرة على الإبقاء على حياة الملك وأفراد أسرته ، وحمل اللواء نجيب شخصياً مسئولية أمن فاروق .

وعد « الضباط الأحرار » بأن يتم عزل الملك « بطريقة لائقة » وسمحوا للملك بأن يبحر إلى نابولى على يخته « المحروسة » .

ولكن لم تجب كل مطالب الملك . فقد رفض ناصر أن يأخذ الملك معه كل ما هو قيم ، فلم يسمح له بأن يأخذ معه مجموعات العمـــلات ، وطوابع البريد والتى أعلن « الضباط الأحرار » بأنها ستعود للشعب ، وأن يخت « المحروسة » سيترك الملك فى نابولى على أن يعود ثانية لمصر .

ولم يكن أمام الملك خيار . ووقع الملك بيد مرتعشة على وثيقة التنازل عن العرش . وأخطأ فى كتابة إسمه . إذ أنه لم يكن متمكناً من لغة بلاده التى حكمتها أسرته مائة عام ، بينما كان يتقن الإنجليزية والفرنسية بطلاقة .

— « نحن نعلن أنه بقدر ما نهدف إلى سعادة وسلامة شعبنا دائماً ، ونعمل بإخلاص على إنقاذه من الصعاب التى نشأت فى هذة الأوقات العصيبة ، فإننا خضوعاً لإرادة الشعب نقرر التنازل عن عن العرش لصالح وريثنا الأمير أحمد فؤاد . بمقتضى هذا المرسوم نعطى حقوقنا لفخامة على ماهر باشا رئيس الوزراء ... » .

فى البداية أراد الملك حذف جملة « خضوعاً لإرادة الشعب » ولكن القانونى الذى أعد خطاب التنازل أصر على الإبقاء على تلك الكلمات . وأعطيت لعائلة فاروق ست ساعات للاستعداد . وفى هذه الفترة تمكنت العائلة المالكة من حزم ٢٠٤ حقيبة . ولم ينس الملك أن يحضر من مخازنه صناديق الشمبانيا .

وجاءت ساعة الرحيل . دخل الملك فاروق الصالون فى الزى الأبيض للامبراليـــة البحرية المصرية لتوديع رئيس الوزراء ، والسفراء الأجانب . ويتذكر اللواء محمد نجيب أن الملك عندما جاء دوره قال له : « إن مهمتك صعبة . أنت تعلم أن قيادة مصر ليست سهلة » .

ويطرح البعض أحيانا ســـؤالا : لماذا لم تتحرك القوات الإنجليزية الموجودة فى منطقة قناة السويس للدفاع عن فاروق ؟ لماذا لم يتدخل السفير الانجليزى الذى كان من قبل يعزل ويعين رؤساء وزراء مصر ؟

والإجابة عن هذا السؤال تسمح لنا بأن نقيم الصفات الرئيسية لناصر لا كزعيم للثورة فقط ، ولكنه أيضا كدبلوماسى ورجل سياسة . فبفضل السرية التامة التى توافرت فى تنظيم « الضباط الأحرار » وهى ربما تكون المرة الأولى التى لم تعرف فيها مسبقاً المخابرات البريطانية ما يحدث فى البلاد . كما أن السفير الإنجليزى ولندن

أصبحوا فى مأزق من تتابع الأحداث . فلم يعرف الإنجليز أن الجيش ثار فى القاهرة إلا فى صباح اليوم التالى أى ٢٤ يوليو . ثم ضللت تحركات « الضباط الأحرار » فيما يتعلق بفاروق — السفارة الإنجليزية تماما .

وكما وضح فيما بعد أن لندن كانت تعتقد أنها لم تفقد بعد كل شيء ، وأنه يمكنها الاتفاق مع قادة الثورة . وانهارت هذه الآمال . فحتى عندما كان الملك المخلوع يغادر أرض مصر للأبد ، طالبت السفارة الإنجليزية بأن يعلن مجلس قيادة الثورة حالة الطوارىء فى العاصمة وأن يراعى أمن الأجانب ، وأن يكون هناك مجلس وصاية والإبقاء على الملكية .

وأظهر عبد الناصر مرة أخرى مرونته . وبهذا لم يترك للإنجليز مخرجاً ما لإبداء أية مبررات . فضمن أمن الأجانب . وظلت مصر ملكية لفترة بعد قيام الثورة .

وهناك عامل ملموس آخر ، وهو تلك التحركات النشطة للأمريكان فى منطقة الشرق الأوسط ، معلنين أنهم أصدقاء الشعوب العربية . فحتى مذكرات الأعضاء المشتركين فى ثورة سنة ١٩٥٢ من بينهم ناصر والسادات تدل على أنه فى البداية كان بعض الضباط يثقون فى الأمريكان . ولكنهم فيما بعد بالتجربة الذاتية آمنوا أن

لأمريكا أهدافاً مغرضة ، وأدركوا جوهر السياسة الأمبريالية الأمريكية .

— إن ثورة سنة ١٩٥٢ بطبيعتها الخاصة كانت ديمقراطية وطنية — مفسراً لها خالد محي الدين : « فى هذه السنوات لم يكن الجميع يفهم أهداف السياسة الأمريكية ، فكانت أمريكا بالنسبة للمصريين « قوة جديدة » . فهم عرفوا المستعمرين — الانجليز — وظنوا بإخلاص أنه يمكن الاعتماد على أمريكا فى نضالهم .

أما عن الاتحاد السوفيتى فكان لدى المصريين تصور محرف عنه . فالدعاية الأمبريالية أخافت المصريين من الشيوعية .

كان الأمريكان يأملون فى العثور على شخصيات سياسية قوية ، يمكنها اتخاذ « قرارات غير جماهيرية » فى البلاد العربية . فى سوريا فى سنة ١٩٤٩ جاء فى خدمتهم إلى السلطة رئيس أركان الحرب حسنى الزعيم . إلا أنه لم يقدر على التغلب على حركة الجماهير وسقط .

وبعد الفشل فى سوريا ، أدرك الأمريكان بأن مفتاح السيطرة على الشرق الأوسط يبحث عنه فقط فى مصر . ولهذا لجأوا إلى كافرى ، وهو أحد الدبلوماسيين الأمريكيين المهرة ، فى تقرير خدمته مسجل ٣٠ انقلاباً فى دول أمريكا اللاتينية ، وهو الذى جعل كثيراً من الحكومات الأوروبية توافق على مشروع مارشال . وكان أيضاً أحد منظمى الحلف الأطلنطى .

وأصبح على كافرى الآن إنشاء حلف عسكرى فى الشرق الأوسط. ولهذا كان من الضرورى أن يسلم مصير مصر ليد ديكتاتور موثوق به . ولإتمام هذه المهمة فقد كون دين أچتسون وزير خارجية أمريكا فى نهاية سنة ١٩٥٢ لجنة من المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط يرأسها مسئول من المخابرات المركزية الأمريكية كارمت روزفلت، وهى ليست المرة الأولى لاهتمامه بالشرق الأوسط . فقد كان فى فترة الحرب العالمية الثانية صديقاً شخصياً الملك فاروق . فبدأ إذن كارمت روزفلت من فترة مسبقة إعداد الملك تدريجياً لفكرة أنه بعد انتهاء الحرب فى الشرق الأوسط . ستنشأ ظروف سياسية جديدة تماماً ، وأنه سيصبح أول ملك مستقل فى تاريخ البلاد . إلا أن أمل الأمريكان قد خاب فى فاروق . فلم يبق أمامهم غير شىء واحد فقط هو البحث عن الشخص المناسب فى الجيش .

وكان كارمت روزفلت هو أول من اهتم «بالضباط الأحرار» . ولكنه لم يتمكن مطلقاً من معرفة خططهم السياسية . فعاد إلى واشنطن .

كان مجبراً على الاعتراف ، بأنه إذا ما حدث فى مصر انقلاب فإنه لن يكون انقلابنا ، ولكن يجب علينا أن نعمل مع منظميه » . وتمسك كافرى برأى مخالف .

وكان هذا هو أول فشل فى حياة كافرى . لقد قلت الانقلاب

العسكرى من كافرى . ولكنه بدأ يقنع الحكومة الأمريكية كما لو أنه « كل ما حدث كان معروفاً له » على الرغم من كونه لم يتحقق ولم يوجه من خلاله » .

ولكسب النظام الجديد أعلن الدبلوماسيون الأمريكيون بأنه الوجود الانجليزى فى مصر هو تواجد إمبريالى . لدرجة أن السفير الانجليزى اضطر أن يبلغ ذلك رسميا لإيدن . وسأله بأن يطلب من أمريكا تغيير كافرى .

لعبة خطيرة تلك التى قام بها قادة « الضباط الأحرار » مع السفارة الأمريكية . وإن كانت بهذا الشكل قد أديت ببراعة .

الترجمة من بداية الفصل الثالث قامت بها د . سلوى أبو سعدة .

٤

كان حتما على « الضباط الأحرار » حل مشكلة معقدة — كيف تلغى الملكية ويتم التوصل إلى تحرير مصر من السيادة الإنجليزية ، حيث كان يوجد جيش إنجليزى فى منطقة قناة السويس .

آمن ناصر أن إلغاء الملكية مسألة وقت ، ولهذا روعى إعلان الأمير أحمد فؤاد — أو الطفل الذى رحل مع الملك فاروق — ولياً للعهد ، مع تشكيل مجلس وصاية برئاسة الأمير عبد المنعم لحين بلوغه السن القانونية ، ولم يمض وقت طويل حتى ألغيت الملكية فسقطت الملكية بهدوء وبجرأة مثل تساقط أوراق الخريف .

فى مناسبات عديدة دعى الصحفيون المصريون والأجانب لزيارة قصر القبة — وكان مما لفت نظر الغرباء الحياة الرغدة التى عاشها الملك . وفتح الضابط المرافق للصحفيين خزائن المجوهرات والحلى المكونة من الزمرد والماس والبرلنت . ولكن ليست

الثروة التى لا تحصى ولا تعد هى التى أذهلت الصحفيين أكثر من أى شىء آخر، وإنما عدم الكياسة والإنحراف الشاذ لآخر ملك مصرى . مع خليط من صور محفوظة فى الألبومات هى نماذج من أحط أنواع الخلاعة .

وإذا كان هناك بين المصريين حالياً القليل ممن يحمل اسم فاروق فالمذنب الوحيد فى هذا هو الملك نفسه . قرأ المصريون فى الصحف إخباريات عن مغامرات الملك المخلوع بالخارج وأعطوا لذويهم الفاروقيين أسماء جديدة وكان اللواء نجيب من أوائل الذين فعلوا ذلك .

يقع فى الجزء الجنوبى من « الجزيرة » مبنى الميناء النهرى الذى يحوطه النخيل من كل جانب وقد خصص فى وقت ما لفاروق . ويشغل الآن هذا المبنى مجلس قيادة الثورة ظلت تتأرجح يخوت فاروق على الأمواج فى المرسى لبعض الوقت .

كان اجتماع مجلس قيادة الثورة ليلا عندما يصبح الجو رطباً . كانت وجهة نظر ناصر أن أحسن وقت للعمل الرسمى يحل بعد غروب الشمس . رأى ناصر أنه بعد نجاح الإنقلاب يجب تسليم السلطة للأحزاب السياسية . وقد جرت على وجه الخصوص محاولة ارتبطت بالوفد . لكن بعد الثورة سرعان ما ظهرت فى البلد

تناقضات حادة . فلقد حسبت مجموعة منهم من بينهم اللواء نجيب أن البلد يجب أن تسير فى الطريق التقليدى للديمقراطية الغربية . ولكن الآخرين ومن بينهم ناصر رأوا أنه يتعين على « الضباط الأحرار » إجراء الاصلاحات التى انتظرها الشعب طويلا . لقد تخوفوا من أن تعرقل « المهاترات الحزبية » حل مقتضيات البناء الثورى . كذا اشتعلت مناقشات حادة بين « الضباط الأحرار » حول قضايا ومشاكل أخرى .

بعد عودة أعضاء مجلس قيادة الثورة من الإسكندرية عقب طرد فاروق إلى القاهرة أعلن ناصر : الآن ألقيت مسئولية كبرى على عاتقنا ، وهى قيادة البلد . . . وقبل أى شىء يجب علينا تحديد الفلسفة التى سنلتزم بها . . .

على غير المتوقع اكتسبت هذه المشكلة النظرية المجردة — على ما يبدو — قيمة عملية هامة ، حيث يتعين على « الضباط الأحرار » أن يقرروا كيف يواجهون أعداء الثورة .

طالب أعضاء المجلس باتخاذ أشد العقوبات حسما . اتخذ ناصر وضعاً أكثر اعتدالا ، « لقد أعلنا على الشعب أننا استولينا على السلطة بهدف تحريره من نير ظلم فاروق ، ولا يجوز لنا ممارسة سياسة الإرهاب » بهذا فسر ناصر وجهة نظره .

على أية حال ذهبت محاولات ناصر لإقناع أعضاء مجلس قيادة الثورة — على ما يبدو — أدراج الرياح . لقد فهم أنه يجب من البداية وقبل أى شىء لابد من كسب تأييد وثيقة المصريين ، أما إذا لم يساند البداية الشعب الثورة فهذا يعنى نهايتها .

جمع ناصر أوراقه ووضعها فى حقيبة يده ونهض من على كرسيه واقفاً ، فنظر إليه الجميع باندهاش واستغراب .

— قال ناصر : أنا أقدم استقالتى من منصب رئيس مجلس قيادة الثورة ومنسحب من هيئة الضباط الأحرار وسأعتزل الخدمة العسكرية فى الجيش .

تناقش المجتمعون طويلا وبعنف وقسوة ومع ذلك لم يصلوا إلى أى اتفاق حول اختيار رئيس جديد للمجلس . حينئذ فهموا أن ناصراً تكلم بشرف واستقامة.

كان الليل قد انتصف عندما أرسلوا إلى ناصر وفداً ليقنع أعضاؤه جمال أن يستمر فى موقعه كرئيس لمجلس قيادة الثورة ، وأن يضع المجتمعون الموضوع قيد المناقشة ، حيث أن انضمامه ضرورى .

فى اليوم التالى عاد ناصر إلى مكتبه . ومنذ ذلك الوقت أصبح

صوته ورأيه فى المجلس قاطعاً وحاسماً .

* * *

« بعد مضى سبعين عاما من السيادة الإنجليزية ظلت مصر مجتمعاً زراعياً ، مجتمع الجلاليب الزرقاء ، كان فى البلد من ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة من المطحونين الذين لا يمتلكون أرضاً ولا عملا ولا أملا . . » هكذا يقول الكاتب الاشتراكى المصرى محمد عودة ، كذا كان يوجد حوالى مليون ونصف مليون فلاح يمتلكون قطعاً أراض زراعية صغيرة بواقع من ٤ — ٥ قراريط للأسرة ، وأيضاً حوالى نصف مليون فلاح — بواقع فدان واحد للأسرة .

وفى نفس الوقت يمتلك ألف من كبار الإقطاعيين ٢٠ فى المائة من مساحة الأراضى المزروعة فى مصر ، ولم تكن غالبيتهم من أصل مصرى .

وفى مجال الصناعة لم يكن الواقع يختلف عن ذلك ، حيث تتكون شريحة البرجوازيين المصريين الكبار من بعض الأجانب ، يهود ويونانيين وإيطاليين . ظهر فى البلد وضع فريد ، وذلك عندما قاد النضال الوطنى ضد القوى الأجنبية نفسه بنفسه إلى التغيير الاجتماعى وقد أعطت هذه الخاصية للقومية العربية التى تبناها

تنظيم « الضباط الأحرار » لناصر الصفة التقدمية ، الشيء الذي تم التعبير عنه أخيراً فى صورة التحولات الاقتصادية الاجتماعية الكبرى .

كان مجلس قيادة الثورة يجتمع يومياً تقريباً . بعد الانقلاب سرعان ما اتسع مجلس قيادة الثورة وأضيف ضباط جدد إلى التسعة أعضاء السابقين . تشكل مجلس قيادة الثورة من : جمال عبد الناصر ، كمال الدين حسين ، عبد الحكيم عامر ، حسن ابراهيم ، عبد المنعم عبد الرؤوف ، جمال سالم ، صلاح سالم ، عبد اللطيف البغدادى ، خالد محي الدين ، أنور السادات ، زكريا محى الدين ، حسين الشافعى .

كان عدد أعضاء المجلس برئاسة اللواء محمد نجيب أربعة عشر عضواً . وكان اللواء محمد نجيب يتغيب كثيراً عن الجلسات ، لأنه كان يشعر بالحيرة والارتباك بين الشباب ، مستشعراً كما لو كان غريباً . كما كان اللواء نجيب مريضاً بالروماتيزم ، وكانت ترسل إليه محاضر الاجتماعات صباحا لاعتمادها ويقوم ناصر بأعمال المجلس فعلياً .

بدأت تصدر قرارات الثورة واحداً تلو الآخر . . . الجامعة المسماة بجامعة الملك فؤاد أصبحت تسمى جامعـــة القاهرة . تم الإفراج عن جميع المعتقلين بعد انقلاب الضباط ، منع مجلس قيادة الثورة انتقال الحكومة إلى الاسكندرية صيفاً ،

صدر مرسوم بإلغاء الالقاب « باشا » و « بك » . وكانت هذه هى خطوات الثورة الأولى . .

فى صباح أحد أيام مايو ١٩٥٣ حيث هدأت أتربة رياح الخماسين ، حضر جون فوستر دالاس إلى القاهرة ، بالطبع لم يصل ليشاهد أهرامات الجيزة . لقد مضت فترة زمنية أكثر من نصف سنة على انتصار الثورة المصرية . وأظهر النظام الجديد ثباته . لقد حان الوقت لكسب روابط وثيقة مع « الضباط الأحرار » . فى واشنطن محصوا النظام الجديد لمدة طويلة . الآن وصل وزير الخارجية الأمريكى إلى القاهرة باقتراحات محددة . شكلت الولايات المتحدة الأمريكية أحلافاً عسكرية واجتهدت فى خلق حلقة من القواعد العسكرية تحيط بالاتحاد السوفيتى من كل جانب . كما خصص لمصر دور أساسى فى حلف بغداد (٢) .

التزمت الولايات المتحدة بمكافأة وتعويض مصر إذا اشتركت فى الحلف .

كانت المطامع الوحشية والهمجية لتلك الدول مثل بريطانيا وفرنسا معروفة جيداً فى مصر .

---

(١) حلف بغداد — شكل فى سنة ١٩٥٥ بتشجيع ومبادرة الولايات المتحدة — وهو اتحاد عسكرى موجه ضد الاتحاد السوفيتى وحركة التحرر الوطنى فى منطقة الشرق الأوسط — دخل فى هذا الحلف : تركيا ، العراق ، بريطانيا ، باكستان ، إيران . وعارض دول المنطقة الأخرى الاشتراك فى الحلف بالرغم من ضغوط الولايات المتحدة !

اهتم المستعمرون بأن لا يعرف المصريون أى شىء عن ثورة أكتوبر وعن المراسيم والقرارات التى تطبق فى أول دولة عمال وفلاحين . حقيقة ، سمع المصريون عن النضال البطولى للشعب السوفيتى ضد الفاشية فى سنوات الحرب العالمية الثانية ، لكنهم اجتهدوا فى إقناعهم بأن الاتحاد السوفيتى يكن عداوة عميقة للاسلام . صورت روسيا عند العرب كصحراء مغطاة بالثلج يعيش فيها قوم يطيلون اللحى . لا يتركون الغليون من فمهم ، ويحاولون تسخين وجوههم المتجمدة بالدخان . تقف فوق الهضاب الثلجية مئات من الغربان السوداء التى يصطادونها . يتنقلون فى هذا البلد على الكلاب والأيائل (نوع من الغزلان — المترجم) تتحول المياه إلى ثلج ولهذا يشرب الروس فودكا حارقة كالنار . وآمن المصريون بهذه الدعاية .

فى بداية القرن العشرين بدأ الأمريكان يهتم بمنطقة الشرق الأوسط ، عندما زار الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت القاهرة ، وعندما تحدث فى جامعة فؤاد مجد بجميع الوسائل الإستعمار البريطانى وأدان الحزب الوطنى (١) وقد أثارت هذه الخطبة المصريين .

انتقد الحزب الوطنى بلسان محمد فريد الرئيس الأمريكى

---

(١) الحزب الوطنى أول مؤسسة سياسية فى مصر ، ظهر فى سنة ١٨٨١ عندما أطلق الضباط ذوى الميول الراديكالية بقيادة عرابى باشا شعار « مصر للمصريين »

بشدة ، وعارضه معارضة حادة . انعقد فى القاهرة اجتماع جماهيرى تجمهرت بعده الجماهير الشعبية أمام فندق شبرد حيث يقيم روزفلت فى أول مظاهرة جماهيرية مصرية فى التاريخ ضد الولايات المتحدة الأمريكية . أرسلت مجموعة من المحامين المصريين تلغرافا إلى الرئيس روزفلت قالت فيه «كيف يمكن لك أن تدين الوطنية المصرية وأنت لا تعرف شيئاً عن الصفة والوضع الذى توجد عليه ؟» . كذا أرسل الكثير من المصريين تلغرافات ورسائل مماثلة فيما بعد . .

خلال الحرب العالمية الثانية عسكر الجيش الأمريكى فى شمال أفريقيا — فى الجزائر وتونس . بدأت الشركات الأمريكية استخراج النفط من الجزيرة العربية . فأقام الأمريكيون قواعد عسكرية بسرعة فى البلاد العربية خوفا من حركة التحرر الوطنى . وفى نفس الوقت نصبت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها كقيادة عامة على الصهاينة والأعداء التقليديين للفكر الشيوعى ولحركة التحرر الوطنى .

إنتقل مركز الصهيونية العالمية بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية . أصبحت إسرائيل الحارس الأمين على المصالح الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط . أصبحت الرجعية العربية أيضا حليف الأمبرياليين الأمريكيين .

عمل الملك وأتباعه ، على وجه الخصوص ، كثيراً لخلق اتجاه وانطباع عام فى مصر عن أمريكا كأنها الدولة الغنية التى تهب وتنثر الدولارات الورقية الخضراء .

ها هو الضابط غير المحنك فى الدبلوماسية — جمال عبد الناصر يجرى مناقشة عن المشاكل الدولية المعقـــدة مع ثعلب السياسة الأمريكية المحنك — جون فوستر دالاس ، حيث تقابلا فى حفل استقبال أقامه سفير الولايات المتحدة الأمريكية .

احتاجت مصر إلى الأسلحة احتياجاً شديداً .

كان عبد الناصر منزعجاً جداً لأن الجيش المصرى لن يكون قادراً على مواجهة أى هجوم إسرائيلى . فى فترة حكم فاروق قدم .. د الضباط الأحرار ، مطلب إعادة تسليح الجيش .

عندما تكلم ناصر عن التسليح ظهر على وجه دالاس الاندهاش . هل ارتبطت أمريكا مع مصر حول ذلك فى وقت من الأوقات ؟

عرض ناصر الاتفاقية السرية المعقودة مع الملك فاروق قبل الثورة ، والتى بمقتضاها وعدت الولايات المتحدة الأمريكية مصر ن تزودها بمعونة عسكرية تبلغ قيمتها خمسة ملايين دولار . بل حدد الاتفاق أنواع الأسلحة التى اقترحت الولايات المتحدة تزويد مصر بها .

وفى الحقيقة لقد رأى ناصر أنه لا بد من إعادة النظر فى جدول الأسلحة المطلوبة . حيث أن الملك فاروق طلب من الولايات المتحدة سيارات مصفحة ومدافع رشاشة وأسلحة أخرى من التى تستخدم فى قمع المظاهرات الشعبية . كان ناصر يحتاج إلى دبابات وطائرات ومدفعية ثقيلة وسفن حربية صغيرة (من التى تستخدم فى الدفاع عن السواحل) أى أن المطلوب أنواع من الأسلحة الضرورية للدفاع عن الحدود .

وفى أكتوبر سنة ١٩٥٢ استفسرت أمريكا عن جدول الأسلحة المطلوبة . وتم تسليم الجدول المطلوب إلى الملحق العسكرى بالسفارة الأمريكية ، وعلاوة على ذلك لم تعارض الولايات المتحدة الأمريكية فى سفر على صبرى لإجراء مباحثات .

أعلن على صبرى أن المباحثات تسير بنجاح ، حتى أنه طلب إعادة تصميم مطارات مصر بسرعـــة لتكون مستعدة لاستقبال المقاتلات النفاثة ، لكن مرت أيام وأسابيع ، بل وشهور .. وبدأ عام ١٩٥٣ ولم تصل الأسلحة .

استمر الوفد العسكرى برئاسة على صبرى فى الإقامة بالولايات المتحدة ، ومرت بأمريكا حملة انتخابية . فأقنعوا على صبرى أن يصبر . وبمجرد أن يتولى الرئيس المنتخب مهام منصبه ، سينظر فوراً فى طلب مصر . وقد أقنع الوفد العسكرى بذلك ضباط البنتاجون

المرافقين . وهكذا رجع على صبرى إلى القاهرة بدون أى شيء .

بعد تناول المرطبات نهض ناصر ودالاس من أمام المائدة وذهبا إلى الصالون وجلسا على مقاعد مريحة يدخنان . واستمرت المناقشة التى بدأت على الغداء .

— قال دالاس :

— طلب تشرشل من الرئيس الأمريكى أن لا يرسل أسلحة للمصريين .

وأضاف دالاس قائلا : عرضوا على الرئيس ايزنهاور خطط جدول التسليح القديم ، الذى قدم أيام حكم فاروق .

وهنا جرى الحديث عن أسلحة المشاة الخفيفة التى استعملها الفدائيون فى وقتها ضد الإنجليز المتواجدين على قناة السويس . والخطأ ، بالطبع ، يمكن تصحيحه .

وقال دالاس أنه عن نفسه مستعد للمساعدة ، وهو بدوره ، يحسب أن هناك ضرورة لتنظيم العلاقات غير العادية بين مصر وانجلترا .

ثم انتقل دالاس بحديثه بصورة غير متوقعة إلى موضوع آخر ، حيث بدأ يتحدث عن تحالف عسكرى فى الشرق الأوسط

— وسأل جمال عبد الناصر بحرص :

— ضد من تقيموا هذا التحالف ؟

حسب دالاس أن هناك ضرورة لأن يكون الكلام على المفتوح .

وأجاب دالاس واضعاً فى فمه سيجار هافانا :

— ضد الاتحاد السوفيتى ؟

استغرب ناصر قائلا :

— لماذا ندخل فى هذا التحالف ؟

الاتحاد السوفيتى على بعد آلاف الأميال عن مصر . لا يوجد بيننا وبينه أى نوع من التناقضات .

فى بلادنا يوجد جيش انجليزى منذ سبعين عاما — هؤلاء هم أعداؤنا .

— لكن سيبقى الانجليز هنا كأعضاء فى التحالف ، سيقومون بالعمل تحت أعلام « التجمع الدفاعى » هكذا رد دالاس محاولا اقناع مصر .

— علق ناصر :

— إذا افترضت أنى قلت أننا غيرنا اليافطة وتحول الانجليز من محتلين إلى متحالفين ، فلن يصدقنى المصريون — سيقولون إنى منعت ٨٠ ألف جندى انجليزى موزعة على منطقة القناة من الرحيل .

يوضح هذا الحوار الذى أورده هيكل فى كتابه ، كيف دافع عبد الناصر بثبات فى مناقشاته مع الساسة الأمريكان عن مصالح

بلاده . فى هذا الوقت سافر دالاس من مصر ، متفائلا مستوحياً الأمل . لقد أحس ببراءة عبد الناصر حيث أنه لم يشك فى أن مصر سترتبط بحلف عسكرى . لكن يجب مساعدة الحليف الجديد «ناصر» فى أن يكتسب «شعبية وتأييداً فى البلاد» . لهذا يجب أن يرحل الجيش الانجليزى عن مصر . وبهذا ذهب دالاس يقنع انجلترا .

لكن اعتقد ناصر أن هذه المقابلة لم تحقق نجاحاً كبيراً . ثم تبدأ الأسلحة الأمريكية فى الوصول إلى مصر ، أرسل دالاس إلى اللواء نجيب قلادتين مصنوعتين من الفضة . اتصل تشرشل تليفونيا بسرعة بايزنهاور وقال إن هذه الهدية ستلهب حماس المصريين .

* * *

ذات مرة فى اجتماع مجلس قيادة الثورة نوقشت مسألة إنشاء برج لبث الاشارات اللاسلكية لوزارة الخارجية المصرية ، لم يكف التمويل ، وفى إحدى مرات النقاش مع ناصر أخبروه أن أمريكيا خاصاً يمكن أن يضع مبلغاً تحت تصرفه الخاص .

وقد روى كيوبلاند العميل السابق لإدارة المخابرات المركزية أنه كلف برشوة ناصر .

وعندما استفسر عبد الناصر عن سبب هذا «السخاء» . تبين أن وكالة المخابرات الأمريكية هى التى اقترحت المبلغ .

كتب كيوبلاند :

«بعد مشاورات قصيرة مع زملائه فى الخدمة، حذر ضابط الأمن ضاحكا أن قوة أمن السفارة التى كلفت بمصاحبتى حتى منزل حسن (١) فى المعادى تثير الشبهات .

أنا أوصيت بالذهاب بالطريق الزراعى . قد يكون السائق الذى حملنى مع حقيبتين شخصيتين بهما ثلاثة ملايين دولار لص كبير .

استقبلنى حسن فى منزله بالمعادى وكان معه حارسان خاصان بدون أى حماس أو اهتمام . آخذاً الرسميات فى اعتباره، عد حسن النقود مرتين واكتشف أن المبلغ الموجود فى الحقائب ٢٫٩٩٩٫٩٩٠ فقط بدلا من ثلاثة ملايين. وقال: لن نتألم لفقدان العشرة دولارات » ، وهو يجلس مع حارسيه فى المرسيدس التى لابد أنها ستحمله إلى مقر عبد الناصر الموجود فى نهاية الطرف الآخر من المدينة .. » .

وقاحة بهذه الدرجـــة أثارت استياء عبد الناصر ، إذا كان الأمريكان تصرفوا بوقاحة مع الجهات المصرية الرسمية العليا ، إذن من السهل تصور كيف يتصرفون مع المستخدمين العاديين ؟ فى أول الأمر أراد جمال إرجاع النقود وإذاعة بيان بأن الأمريكان

---

(١) حسن التهامى ـ أحد أعضاء تنظيم « الضباط الأحرار »

حاولوا رشوته. هكذا بالضبط أعلن رئيس سنغافورة ، التي حاولت إدارة المخابرات المركزية مكافأته بمثل هذا المبلغ في وضع مماثل .

اقترح حسن التهامي ، الذي تسلم النقود من كيوبلاند استعمال المبلغ في إقامة تمثال تذكاري « يشبه أبو الهول » : « رأس له أنف ضخم ، وفي المساحة التي أمامه يد كبيرة أصبعها الكبير يلامس الأنف ، والأصابع الأربعة الأخرى متجهة للأمام وإلى أعلى » (الحركة المشهورة التي يستخدمها المصريون للتعبير عن السخرية والإغاظة) .

راقت الفكرة لعبد الناصر إلى حد ما ، وعلى أية حال فهي ليست دقيقة بدرجة كافية ، وبدلا من هذا التمثال قرر جمال إقامة شيء ما بدون إشارة واضحة ، ولكن كبير بدرجة كافية « مرئي ، غال ، وثابت ... » وخصص المبلغ لتشييد برج الإشـــارات اللاسلكية المطلوب لوزارة الخارجية المصرية . وأضاف عبدالناصر « يجب على مخابراتنا متابعة نشاط الولايات المتحدة الأمريكية » .

هكذا شيد « برج القاهرة » ، الذي نراه أمامنا نحن الأمريكيين ، صباح كل يوم ، عبر النيل ، عندما نجلس لتناول الفطور في شرفة فندق « هيلتون » ، ذكر ذلك كيوبلاند في كتابه .

اعتبر ناصر هذا البرج « نصبا تذكاريا » يذكر المخابرات المركزية الأمريكية بفشل خططها في مصر .

* * *

فى زمن إعداد وتنفيذ الثورة لم يكن هناك وقت لدى تنظيم « الضباط الأحرار » لتطوير وجهة نظرهم السياسية للوصول إلى تصور واضح عن نوع المجتمع الذى يريدون بناءه . بعض منهم كانوا متعاطفين مع « الإخوان المسلمين » ، بينما الآخرون ومن بينهم ناصر متعاطفين مع الماركسيين واعتبروهم « قوى وطنية » .

أكد الكاتب الانجليزى مانسفيلد أن محرك الانقلاب ناصر لم يتأثر « بإيديولوجية سياسية معينة أو بفلسفة محددة ، ولكن فقط بالوطنية الجياشة المبنية على الدراسة المتعاظمة للتاريخ . تدل تجربة الدول النامية ، على أية حال ، على أن الوطنيين الشرفاء الحقيقيين المعروفين بآرائهم الوطنية ومن ضمنهم ناصر يصلون إلى فهم حتمية تحديد علاقتهم بالطبقات الكادحة ويحدد وضعه الأيديولوجى .

قدر لعبد الناصر أن يعيش ويعمل فى ظروف خاصة . فالمجتمع المصرى المتصف حينئذ بعدم إيمانه بقواه الذاتية ، كما روج الاستعماريون فى وجدان المصريين ، غير قادر على تصور أنه يمكن للبلاد أن تنهض بدون أجانب . كان عبد الناصر منذ ريعان الشباب مقتنعا بأن المصريين يملكون كل الكفاءات النوعية القادرة على إدارة بلدهم بنجاح . كانت هذه واحدة من الصفات التى ميزت جمال عبد الناصر من بين عشرات ومئات من المسئولين الآخرين المستكينين لوضعهم ، المضغوطة نفسيتهم الداخلية بالإحساس بالكرامة الوطنية .

فى نفس الوقت استوعب ناصر بشكل رائع صعوبة وضع

المصريين على طريق البعث الوطنى ، كان الطغيان و الظلم و الاستبداد والانهيار من الظواهر العادية فى مصر على امتداد العديد من القرون » . . . — هكذا كتب عبد الناصر فى « فلسفة الثورة » .
ويفسر الظلم المعنوى الناتج عن الاستعمار فى أقصى درجاته اللحظات الحاسمة فى حياتنا السياسية . ولهذا ، كما يبدو لى ، بدا كثير من المصريين كمشاهدين عاديين لتطور الثورة ، منتظرين نتائج الصراع وغير مشاركين فيه . حتى الآن الغالبية العظمى منا غير قادرة ، على التخلص من التبعية كما لو أن البلد لا تخصنا . وأننا نعيش فيها مؤقتاً كضيوف » .

لم يخف ناصر خيبة الأمل المريرة التى أصابته عندما تكلم عن كيفية استقبال الشعب المصرى لثورة ١٩٥٢ . « كتب جمال ، لقد ظننت أن الوطن كله انتظر قبل ثورة ٢٣ يوليو بشعاع الضوء لكى يسرع فى صفوف متراصة نحو الهدف العظيم . حتى أنى اعتقدت أن دورنا يتمثل فى إعطاء الإشارة ولن ننتظر أكثر من بضع ساعات حتى تندفع إلينا الجماهير . ولكن الواقع كان شيئاً آخر تماما . لذلك ما حدث بعد ٢٣ يوليو كان مخيبا للآمال . سطع الضوء ، عصفت الطليعة بقلعة الطغيان وطردت فاروق . وانتظرنا المسيرة الطويلة والصفوف المتراصة ، انتظرنا طويلا .. ووصلت الكتل الجماهيرية ، ولكن كم اختلف هذا عن ذاك ، وما رسمناه كان خيالا » .

هؤلاء الثوار الذين انتظروا من الشعب المساندة والمساعدة ، الناس أمطروهم بوابل من الالتماسات والشكاوى » . « وما أرادوه — هكذا كتب ناصر — ليست العدالة ولكن الانتقام والثأر ، ولو مثلت فى تلك الأيام عما أتمناه أكثر من أى شيء لكنت قد أجبت أتمنى أن أسمع عن المصرى الذى يستخدم مواهبه فى أى شيء آخر غير الذم فى مصرى آخر » .

كان « الضباط الأحرار » ينتمون إلى شرائح اجتماعية مختلفة . وطرح كل واحد منهم فى مجلس قيادة الثورة تصورات ومفاهيم طبقته الاجتماعية وشريحته ومجموعته .

لكن على وجه العموم من الممكن أن نتكلم عن أن الثورة تأثرت ذاتياً بالأفكار الاشتراكية . هكذا لاحظ خالد محيى الدين ، على وجه الخصوص ، فى أحد مؤلفاته . « أنا لا أعنى فقط التأثير الذى وقع تحته أعضاء تنظيم « الضباط الأحرار » وقياداتهم على الرغم من أن هذا يشد الانتباه — كتب خالد — أنا أعنى كل الحركة الواقعة تحت تأثير الأفكار الاشتراكية ، التى وجدت انعكاسها فى أفكار وبرامج ومطبوعات المشاركين فيه ، قبل الثورة وكذا بعدها » .

فى أحد بيانات الثورة الأولى تحدثوا عن ضرورة إصدار قوانين تكفل ارتفاع مستوى معيشة الشعب كما تحدثوا عن ضرورة

تحديد الملكية الزراعية الخاصة وإلغاء الضرائب غير المباشرة . التى عانى منها أولا المعدمون . وفى هذا ظهر تأثير الماركسيين الواضح ، حكى ناصر نفسه ذات مرة لسفير الاتحاد السوفيتى ا . فينوجرادوف أنه عندما كان تلميذاً فى المدرسة بدأ يحضر إحدى حلقات الماركسيين فى القاهرة . على أية حال لم يعر قادة الحلقة أى اهتمام لحب المعرفة والاستطلاع الذى ألقى بأسئلة كثيرة إلى الشباب . اقتنع ناصر أن الناس المنخرط معهم فى هذه الحلقات كانوا أساساً بعيدين كل البعد عن واقع الحياة « مولعين بالكتب والنظريات فقط » . لم يستطيعوا أن يربطوا النظرية مع الظروف المصرية الواقعية الخاصة .

فى سنة ١٩٥٢ عندما قامت الثورة كانت توجد فى مصر جماعات ماركسية متفرقة وليس حزبا شيوعياً موحداً مما أثر بشكل مباشر على نشاطاتهم .

فى أحد الاجتماعات الأولى لمجلس قيادة الثورة اقترح خالد محيي الدين الاستعانة بالخبراء لوضع خطة تحولات سياسية واقتصادية فى مصر . ضم ناصر صوته إلى خالد محيي الدين . كلفوا أحمد فؤاد (ماركسى) بإعداد قائمة بأسماء الخبراء المؤهلين للقيام بهذه المهمة وكان هؤلاء من مدرسى الجامعة والحقوقيين والأطباء والمهندسين وكان الكثير منهم ماركسيين . وقد أقبلوا على المهمة بشوق وحرارة وحماس .

كانوا يجتمعون كل مساء مع مجلس قيادة الثورة وكان معهم دائماً جمال عبد الناصر . وبدأت المناقشات الحية . أصر البعض منهم على اتخاذ التدابير الحازمة لتحديد الملكية الخاصة ، رأى الآخرون أن المخرج من الوضع يأتى فقط بإنشاء مشروعات إقتصادية كانت المناقشات تستمر أحيانا حتى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل ، وفى الصباح يذهب كل واحد إلى عمله كالمعتاد .

لعب هؤلاء الخبراء المتمسكون بالأفكار التقدمية والمشاركون فى وضع الخطط الأولى بعد الثورة دورا ذا أهمية بالغة فى حياة عبد الناصر على الرغم من أنه لم يصبح ماركسيا ، فإن تعرفه على مؤلفات ماركس وانجلز ولينين لم تذهب هباء . وبعد بضع سنوات عندما عاش خالد محي الدين فى سويسرا ، طلب منه جمال عبدالناصر إرسال المؤلفات الماركسية فى القضايا الاقتصادية المختلفة ، احتفظ عبد الناصر فى مكتبه وإلى الآن فى حرص واهتمام بالمطبوعات الماركسية اللينينية الكلاسيكية المترجمة إلى اللغة العربية مع ملاحظاته عليها .

ورث « الضباط الأحرار » عن عهد الملكية ديون المحتلين الأجانب وانهيار الاقتصاد المصرى . وعلى الرغم من أنه لم يكن عند الثوار برنامج اقتصادى مسبق ومخطط ومدروس إلا أنهم اكتشفوا فوراً سبب الكارثة الرئيسى المتمثل فى فوضى الإنتاج . كان يتعين على المجلس

القومى الدائم للانتاج ومجلس الخدمات الاجتماعية اللذين تأسسا بعد الثورة مباشرة دراسة مشروعات تطوير الاقتصاد المطروحة للبحث أمام الوزارات .

فى سبتمبر ١٩٥٢ اتخذ مجلس قيادة الثورة أول إجراء اجتماعى اقتصادى جاد ، أصـــدر قانون الإصلاح الزراعى . درس جمال سالم المشاكل الزراعية فى مصر وأعد بمساعدة أحمد فؤاد مشروع القانون ، كان القانون متواضعاً جداً فسارت الثورة أولى خطواتها بحذر شديد . واقترحت الثورة الاستيلاء على ما يزيد على ٢٠٠ فدان عند كبار الإقطاعيين لتوزيعها على الفلاحين المعدمين .

طبقاً لقانون الإصلاح الزراعى تم توزيع ما يقابل ١٠٪ فقط من مساحة الأرض الزراعية وتسلم حوالى ١٠٪ من الفلاحين ربحاً مباشراً . علاوة على ذلك لم يجرؤ النظام الجديد على المساس بمصالح الإقطاعيين ووعدهم بتعويضهم عن الأجزاء التى تم الإستيلاء عليها فقط لم يتم تعويض العائلة المالكة عن أراضيها التى استولت عليها الحكومة . استهدف القانون تقويض أسس النفوذ السياسى للأسر الإقطاعية فى القرى المملوكة لهم قبل الثورة .

لكن ومع ذلك استقبل هذا الإصلاح الزراعى المتواضع بمعارضة شديدة .

وعلى سبيل المثال طالب على ماهر رئيس الوزراء حينئذ بأنه

يكون الحد الأقصى للملكية خمسمائة فدان ، وكان ناصر على استعداد لإضافة مائة فدان أخرى على المائتين لصالح الأولاد القصر . لكن اعتبر على ماهر ذلك غير كاف وعلى ذلك أصبح ضرورياً تغيير رئيس الوزراء .

بهذا الشكل أدى الماركسيون المصريون : أحمد فؤاد ، راشد البراوى ، عبد الرازق حسن ، مساعدة كبيرة لعبد الناصر فى تخطيط مشروعات أول إصلاحات اقتصادية تجرى فى مصر .

قبل قيام الثورة وفى أول أيامها اعتقد ناصر أنه بمجرد نجاح الانقلاب سيرجع الجيش إلى معسكراته ، وأقنعته الظروف بضرورة قيادة « الضباط الأحرار » للبلاد لتحقيق التحولات الثورية .

إقتنع ناصر بحتمية ذلك عندما تعرف على نتائج أعمال لجنة تحرى الجرائم التى اقترفها رجال الحكم السابق . وقد وقع فى مجال أعمال هذه اللجنة وزراء الحكومة الوفدية الأخيرة . بعد أن كشفت التحريات عن حقائق الرشوة واختلاس أموال الدولة . وكان حزب « الوفد » أحد أدعياء السلطة الأساسيين .

سافر اللواء نجيب إلى الدلتا وفقاً لقرار اتخذه مجلس قيادة الثورة لاسترداد حالة المصريين النفسية . واستقبلته الجماهير

بحماس منقطع النظير وقد تلقى ناصر ذلك باطمئنان كبير .

وفى العاشر من سبتمبر صـــدر مرسوم بقانون يشترط على الأحزاب أن يتقدموا ببيان عن برامجهم السياسية ونظامهم الداخلى وميزانياتهم .

وفى نفس الوقت تشكلت محاكم الثورة لمحاكمة رجال العهد البائد المتواطئين مع المحتل الأجنبى بهدف إدانتهم .

انقض قادة الوفد بعضهم على بعض باتهامات متبادلة ، وقد أدى هذا إلى إدانة الوفد وسقوط وضع الحزب الخاص فى مصر بسرعة .

وقد لاقت عملية محاكمة وزراء العهد السابق صدى واسعاً بين الجماهير . وفى النهاية أدين رجالات الوفد . وأصدرت المحكمة أربعة أحكام إعدام . فى الواقع ، لم ينفذ أى منها ، وتحول الحكم فى المدى البعيد إلى اعتقال منزلى . ظهر « الضباط الأحرار » مصر بشكل حاسم من الماضى الكريه .

على أية حال ، قبل ذلك بقليل وقعت كارثة جديدة : فى ١٢ أغسطس أضرب عمال واحد من أكبر مصانع النسيج فى مصر والموجود فى كفر الدوار (صباغى البيضا) وأحكموا سيطرتهم على المصنع . طالب العمال المضربون بتحسين ظروفهم المعيشية وكذا ظروف العمل .

وفى البداية اصطدم « الضباط الأحرار » مع العمال المتظاهرين . وطالب عبد الناصر رفاقه بالصبر وضبط الأعصاب ، لكن اصطدم المتظاهرون مع البوليس بشكل غير متوقع . ولقـد أظهر ضباط الجيش الشبان عدم خبرتهم فى مواجهة اللحظات الجسيمة المسئولية باستعمالهم تدابير العنف والتنكيل .

استخدمت القوى اليمينية هذا الحادث لتنظيم حملة موجهة ضد قوى اليسار وخاصة ضد الماركسيين. وسارع جزء من الأنتلجنسيا اليسارية المصرية بإدانة السلطـــة التى أظهرت بذلك طبيعتها الديكتاتورية وأكدت صدق الشبهات الكريهة .

تكون وضع خطير : وجد « الضباط الأحرار » أنفسهم فى بداية انشقاق ، الشىء الذى بدأت القوى اليمينية تستغله بسرعة .

تميز « الإخوان المسلمون » وسط كل المجموعات والأحزاب السياسية بنشاط غير عادى . فقد كانوا يشكلون الخطر الحقيقى على النظام . وكانوا لا يملكون برنامجاً واضحاً ، لكن منظمتهم لعبت دوراً سيئاً فى تاريخ نضال الشعب المصرى ضد المحتلين .

لم يكن الإخوان المسلمون قادرين على إعطاء حل للمشاكل التى يعانيها الشعب المصرى . وقد توجهوا إلى أكثر المجموعات السكانية تخلفاً والتى يسهل استثارتها .

ووضعوا مخططاً تآمرياً ضد الثورة ، وعلى سبيل المثال ، دعوا إلى مقاطعة حفلات المطربة العظيمة أم كلثوم ونسف وحرق دور السينما والمسرح .

ثم أعلن مجلس قيادة الثورة عن حل جميع الأحزاب السياسية

وفى ١٠ فبراير تم وضع دستور مؤقت والذى بمقتضاه كان رجال الثورة هم السلطة العليا فى مصر لمدة ثلاث سنوات .

وفى ١٨ يونيو ١٩٥٣ أصبحت أقدم دولة ملكية فى التاريخ أحدث جمهورية .. أصبح محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر ورئيساً للوزراء وأصبح جمال نائباً له . ظهر عدد ضخم من المقالات فى الصحف الغربية ، فى ذلك الوقت ، تشير إلى أن الكثير من خارج الحدود يتساءلون : كيف يقود مصر هذا الضابط المرفه المنعم الذى لا تفارق السيجارة « الدانهيل » فمه ، وأطلقوا عليه اسم « كرومويل المصرى » ولم ينتبه أحد إلى عبد الناصر .

اعتقد اللواء نجيب ، على ما يبدو ، أن دوره الحقيقى — هو زعامة الأمة .. وعلى الرغم من كونه ليبرالياً ، إلا إنه كضابط نظامى عالى الرتبة لم يتعود على أن تكون أوامره محل مناقشة .. وبالطبع بعد إنتخابه رئيساً للجمهورية لم يعد راغباً فى سماع نصائح معوجة .

توترت والتهبت العلاقات بين نجيب وعبد الناصر . وأدى إختلاف وجهات نظرهم إلى تفاقم الصراع السياسى القائم فى مصر

صار اللواء نجيب يفتقد مجلس قيادة الثورة فى أحاديثه مع رجال السياسة والدبلوماسيين الأجانب . ولم يعد « مسنوداً » فى المجلس .

فى ذلك الوقت نظم « الإخوان المسلمون » مظاهرة طلابية حدث خلالها أعمال شغب ، استند عبد الناصر على هذا وقبض على بعض الإخوان بدون استشارة محمد نجيب ثم أعلن محمد نجيب استقالته .

كانت هذه الخطوة محسوبة بطريقة حسنة . . كيف ؟ بعد مباحثات طويلة ومضنية عقدت مصر وانجلترا اتفاقية « السودان » التى بموجبها حصل السودان المصرى الانجليزى على حق تقرير المصير ، إما الاتحاد مع مصر أو الاستقلال . وكان مفروضا أن تقوى زيارة نجيب المرتقبة للسودان نتائج المباحثات حيث يكن السودانيون احتراماً كبيراً للواء نجيب حيث أن أمه من السودان . سبب خلاف عبد الناصر ومحمد نجيب لمجلس قيادة الثورة وضع صعب لا يحسد عليه ، وعلى كل حال قبلوا استقالة محمد نجيب وحددت إقامته فى منزله الخاص الذى وضع تحت حراسة مشددة من قوات الجيش . ولكن كان هناك اعتقاداً راسخاً عند رجال الأحزاب الملغاة أن اللواء محمد نجيب هو الشخصية الوحيدة التى يمكن أن تضمن لهم المشاركة فى الحياة السياسية العامة بمصر ، ولهذا قادوا عملا فى

الجيش ضد عبد الناصر . طالبت بعض الوحدات العسكرية بسرعة ، إعادة محمد نجيب إلى الرئاسة ودعوة خالد محيي الدين لرئاسة الوزارة

اضطر ناصر إلى الموافقة ، فى هذه اللحظة بدا له أن كل ما كان يحلم به وما عمله من أجل مصر ضاع فى لمح البصر . على أية حال فى نهاية الأمر ساندت الأغلبية العظمى من الضباط جمال عبد الناصر .. أعيد محمد نجيب بفضل شعبيته ، إلى الرئاسة وأبعد خالد محيي الدين إلى سويسرا كسفير لمصر هناك ، أسف ناصر لما حدث لخالد ، كان مازال يقدر خالد محيي الدين ولم يكن عند ناصر أدنى شك فى أن خالد طال الوقت أو قصر سيعيد النظر فى تقييمه اللواء نجيب . وخلال بضع سنين تغلبت الصداقة القديمة وعاد خالد إلى الوطن حيث انتخب فى عام ١٩٦٤ عضوا بمجلس الأمة .

كان عبد الناصر رئيساً للوزارة . وخطب اللواء نجيب فى أحد التجمعات الشعبية فى ميدان الجمهورية قائلا : أن العاصفة الرعدية مرت كسحابة صيف وستجرى انتخابات البرلمان قريبا .

اجتهد ناصر فى أن يظهر تساميه بهيبة وشعبية اللواء نجيب : فى ٩ مارس ١٩٥٤ اقترح عليه شغل منصب رئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة . فى نفس الوقت ألغى ناصر الرقابة . طالبت الصحف القاهرية بإطلاق الحريات السياسية فوراً . لم يقف ناصر عند منتصف الطريق ، فى ٢٥ مارس اتخذ مجلس قيادة الثورة قراراً

بإعادة نشاط الأحزاب السياسية ، اتخذ ناصر هذه الخطوة ليظهر للجيش النتيجة المنطقية لسياسة نجيب التى نتج عنها إعادة نشاط الوفديين والإخوان المسلمين من جديد .

فى هذه المرة انحاز الجيش بحزم إلى تأييد عبد الناصر . نظم « الضباط الأحرار » مظاهرة لمعارضة اشتراك السياسيين القدامى غير الموثوق بهم فى الحياة العامة ، هز القاهرة إضراب عام شامل . فى ١٧ أبريل تنحى محمد نجيب وتولى عبد الناصر من جديد رئاسة الوزارة ، وأعيد تشكيل مجلس قيادة الثورة حيث بدأ يمارس نشاطاته . أصبح نجيب بدون سلطة حقيقية ، على الرغم من استمراره رئيساً للجمهورية لفترة من الزمن .

بدأ أعداء النظام الثورى فى ممارسة نشاطهم بشكل سرى .

* * *

فى قطار مسافر إلى الأسكندرية جلس ناصر إلى جوار النافذة يشاهد أهرامات كاملة من أكياس رمادية منتفخة عن آخرها بالقطن ، تنتظر إرسالها إلى المصانع .

استعدت الأسكندرية لاستقبال رئيس الوزراء ، فى مبنى البورصة ذات الشرفة الكبيرة والذى جمل بأعلام مصر وعلقت به الزينات ويطل على ميدان واسع يكفى لتجمع أكثر من مائة ألف

مواطن ، بخطب ناصر فى آلاف الجماهير التى جاءت لتسمعه وكانت هذه أول مرة فى تاريخ مصر ينعقد فيها هذا المؤتمر الشعبي ليخطب فيه رئيس الوزراء وليس رئيس الجمهورية .

لم يكن كثيرون فى مصر الذين يعرفون أن عبد الناصر يقود البلد منذ فترة طويلة وأن نجيب مجرد رئيس للرسميات والبروتوكولات يلبس الزى الرسمى عندما يسلم السفراء أوراق اعتمادهم له .

كان ناصر يعرف كل صغيرة وكبيرة تحدث فى مصر وبكل التفاصيل البسيطة . وقاد نضالا لا هوادة فيه ضد العناصر المضادة للثورة . فعندما حاولت إحدى صحف القاهرة الكبرى ، « المصرى » مهاجمة النظام الجديد بمقالة ، صودرت فوراً وأغلقت وحكم غيابيا على صاحبها الذى هرب إلى سويسرا بعشر سنوات سجن .

فى الصيف حدثت تعقيدات لم تكن متوقعة ، قامت بعض العناصر المشككة بإلقاء خطب فى الجوامع والمساجد تهاجم مجلس قيادة الثورة . أدى إلقاء الخطب فى مدينة طنطا إلى تصادم دموى . علم عبدالناصر أن الإخوان المسلمين أحدثوا تأثيراً قوياً فى طنطا فمنعت الأحاديث فوراً فى المساجد . عندئذ بدأ الإخوان تهييج الجامعات . علم ناصر بخبرته الشخصية سهولة تحريك الوسط الطلابى . أصبحت هناك ضرورة إلى تطهير الجامعة ، ولكن هذا التطهير لم يحد من نشاط

« الإخوان المسلمين » أصبح معروفاً أنهم وجدوا حلفاء لهم فى البوليس ويجهزون لمؤامرة جديدة ، قرر ناصر كشفهم . فى أحد الأيام التالية علم حوالى مائة ضابط كانوا بالخدمة بعزلهم لعلاقتهم بالإخوان .

أعلن أعداء جمال أنهم يعادون النظام العسكرى الديكتاتورى ، على الرغم من أن الكثير منهم ، وعلى سبيل المثال ، « الإخوان المسلمون » ، لم يكن من الممكن تسميتهم « بالمدافعين عن الديموقراطية » . لوعلى سبيل السخرية . لقد حكم الشعب على النظام الثورى بأعماله فى ذلك الوقت ، وبينما يحاول « الإخوان » تضليل المصريين بخطبهم فى المساجد ، تسلم أول ألفين من الفلاحين المعدمين قطعاً من الأرض وفقاً لقانون الإصلاح الزراعى كما أدان الإخوان المسلمون وبطريقة ديماجوجية جمال عبد الناصر فى أنه يتباطأ فى إخراج الجيش الانجليزى . الواقع لم يكن هناك أدنى رغبة لدى المحتلين للخروج من مصر . ومع ذلك تمكن ناصر وبإصرار شديد من تحقيق انسحابهم فى البداية لم تعط المباحثات التى أجراها مع السفير الانجليزى رالف ستيفنسون أية نتائج . حينئذ أعلن عبد الناصر على المصريين فتح الباب لقيد أسمائهم فى صفوف الفدائيين . كذا شكلت فى القاهرة محكمة للنظر فى قضية أحد المصريين الذى تعاون مع جيش الاحتلال . أدين المتهم وحكم عليه بالإعدام شنقاً . رداً على الدعوة للحرب الفدائية جمد الانجليز ١٠ ملايين جنيه استرلينى مودعة

لديها باسم مصر . لكن على أية حال استمر الفدائيون فى عملياتهم الهجومية . بدأت المحادثات من جديد . فى نهاية الأمر فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ وافق الانجليز على توقيع اتفاقية : وعدوا فيها بسحب جيوشهم خلال ١٢ شهرا . على أية حال أعطت الاتفاقية للجيش الانجليزى الحق فى العودة إلى القاعدة المصرية فى حالة أى هجوم يحدث ضد أى دولة من دول الجامعة العربية أو تركيا . خرجت الصحف القاهرية بمانشيتات حمراء عن انسحاب الجيش الانجليزى .

تجمع صباحا ، عند بيت عبدالناصر ، حشد غفير . كانت الجماهير المحتشدة تزأر هادرة تحيي زعيمها . فى المؤتمرات الجماهيرية التى عقدت فى تلك الأيام تحدث جمال عن أن الحكومة عازمة على توجيه ضربات قاصمة ضد الجوع والجهل والمرض .

وبهذا الشكل يعقد هذا المؤتمر الشعبي بالأسكندرية لسماع خطاب جديد . أطل عبد الناصر من الشرفة وبدأ يتحدث بثقة وهدوء :

« أيها الإخوة ، فى نفس هذا الميدان الذى كان يسمى بميدان محمد على عندما كنت شاباً صغيراً اشتركت لأول مرة فى مظاهرة ضد الإنجليز .

فى هذا الميدان شاهدت ولأول مرة كيف كان الناس معلقين

من رؤوسهم ، وكيف كان المصريون يوجهون نيران بنادقهم ضد أخوتهم المصريين ولكن كما ترون ما زلت حياً أعمل كل ما فى وسعى لكى يصبح وطننا حراً .. » .

كتمت الجماهير أنفاسها تستمع لكلمات الخطاب . كانت أنظار الناس مثبتة على الشرفة ، ولم يلاحظ أحد كيف أخرج إنسان ما فى الصفوف الأولى من جيبه مسدساً صوبه إلى الخطيب وأطلق طلقة .

ناصر ، غير سامع للطلقة ، رفع حاجبيه مستغرباً ، عندما تناثر على أوراق الخطبة بقايا لمبة مكسورة كانت معلقة فوق رأسه . وكذا توالت الطلقات من جديد . وفهم لأى سبب بدأت الجماهير تزأر وتصفر . امتدت آلاف الأيدى إلى المتهم .

فى هذه اللحظة جلجل صوت عال ومسئول :

« فليبق كل منكم فى مكانه . أقول لكم هذا أنا جمال عبدالناصر . دمى — دماكم .. كل واحد منكم — جمال عبدالناصر . إذا قتلونى ، فلن يتغير شىء ، لأنكم ستكملون النضال . كل واحد فيكم — جمال عبد الناصر ... » .

ربما كان ، ولا الزلزال ولا حمم البركان بقادرة فى هذه اللحظة على هز الجماهير أقوى من هذا الصوت .

« لا تتحركوا ! فليبق كل منكم فى مكانه . . . » .

على شريط التسجيل الذى يحتوى على كلام ناصر تقطعت هذه الكلمات بصوت الطلقات ..

— من أجلكم ، ومن أجل أطفالكم وأحفادكم قام مصريون بهذه الثورة ..

هدرت الجماهير من جديد . كان مسموعا صوت هفيف رياح الخريف بالأعلام الوطنية ، نفذت الكلمات الحارة إلى القلب .

— ليس على جمال عبد الناصر يتوقف مصير مصر ، بل يتوقف على نضالكم .

— نحن فداؤك ياجمال ، نحن فداؤك ياجمال ، ردت الجماهير عليه بصوت عال .

كان هذا المؤتمر مذاعا على الهواء بالراديو وسمعه كل المصريين . بعد انتهاء كلام عبد الناصر الحامى والحار فوراً سارت مظاهرة عفوية . طالب فيها الشعب بمعاقبة المتهمين بشدة وأشار إلى « الإخوان المسلمين » كمدبرين لمحاولة الاغتيال .

عندما عاد عبد الناصر إلى القاهرة استقبل إستقبالا شعبياً رائعاً بكل محطة توقف فيها القطار وقطع المسافة من ميدان باب الحديد

حتى منزله بمنشية البكرى فى حوالى ساعتين بسبب الحشود الغفيرة المتجمعة لإستقباله وتهنئته على سلامته .. وفى لحظات تحول عبد الناصر إلى بطل وطنى .

أكدت التحريات أن محاولة الاغتيال نظمها « الإخوان المسلمون » فعليا . فى خلال شهرين أعدوا عضو تنظيمهم محمد عبد اللطيف لتنفيذ هذا العمل الإجرامى .

بدأت إعتقالات الإخوان المسلمين فى البلاد . اكتشفت مخازن سرية للأسلحة والذخيرة فى المساجد والمدافن تمتلكها الجماعات الإرهابية . اتضح من الاستجوابات أنه فى خلال فترة ممتدة استعد الإخوان المسلمون للانقلاب وكتبوا قوائم بأسماء المناصرين للنظام الثورى المطلوب قتلهم .

فى منتصف نوفمبر ١٩٥٤ عقد مجلس قيادة الثورة إجتماعاً لم يحضره محمد نجيب كالعادة . لكن فى هذه المرة ، لم يدع للإجتماع . تعرف أعضاء المجلس على أدلة المعتقلين التى اتضح منها أن نجيب كان مرتبطاً مع « الإخوان المسلمين المشتركين فى المؤامرة ، بعد إنتهاء الاجتماع اتصلوا بنجيب تليفونيا . قالوا له : إن وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية حسن إبراهيم وعبد الحكيم عامر مكلفان بإبلاغه بالقرارات التى اتخذت . كان يتم هذا باستمرار لكن لم يكن نجيب فى هذه المرة هادئاً .

وصل عامر وحسن ابراهيم إلى نجيب فى الساعة الحادية عشرة مساء . دخلا قصر عابدين وفى خلال بضع دقائق نزل نجيب السلم فى وداع حراسه ، أذيع فى الراديو أن اللواء نجيب أقيل من منصب رئيس الجمهورية المصرية ، أرسلوه إلى قرية هادئة حيث عاش هناك لسنوات طويلة فى منزله تحت التحفظ .

فى ديسمبر ١٩٥٤ اجتمع مجلس قيادة الثورة للنظر فى أحكام المحكمة العليا الخاصة بقضية « الإخوان المسلمين » الذين أدينوا فى المؤامرة . حكم على الهضيبي قائد التنظيم بالإعدام شنقاً حتى الموت، وعلى بعض منهم بالإعدام رمياً بالرصاص . حكم على الباقين بالسجن لفترات متفاوته .

* * *

ذات مرة اتصلت مصلحة الآثار تليفونيا بمكتب رئيس الوزراء ..

عالم الآثار المصرى محمد زكريا غنيم توصل إلى أعظم اكتشافات القرن العشرين . فقد عثر على هرم لم يكن معروفا قبل الآن .

هز هذا الخبر كل القاهريين . فقد انتشرت إشاعات بالمدينة عن العثور على العاديات العالية القيمة الرائعة فى الهرم . تذكر الجميع كنوز توت عنخ آمون التى لا تحصى ، كما لو كانوا قد نسوا أن مقابر

الفراعنة الباقين قد نهبت وسلبت في الأزمنة القديمة . اندفعت جموع المراسلين الأجانب إلى سقارة حيث تعمل بعثة غنيم . وأصبح يصل إلى مصلحة الآثار تبرعات كثيرة لاستمرار التنقيب عن الآثار .

في النهاية في حضور مندوب الحكومة دخل محمد غنيم في المقبرة وتوجه إلى التابوت . استعد المراسلون بآلات التصوير لكي يسجلوا اللحظة العظيمة التي ستخرج فيها كنوز الفرعون . بدأ العمال في فتح التابوت باستخدام أدوات التكسير . بعد مضى ساعتين في عمل مضن ومنهك تحرك غطاء التابوت ووزنه ٢٢٧ كيلو جراماً من مكانه ، دلف العالم المصرى إلى الداخل . وعند رجوعه قرأ الحاضرون على وجهه جزعاً شديداً : لقد كان التابوت خالياً . .

كتبت كل صحف العالم عن عالم الآثار وحظه العاثر . « لقد استمروا في الحفر ثلاث سنوات ولم يعثروا على شيء ! » كان هذا ما نشرت إحدى الصحف عن حفريات غنيم .

بالطبع فكر العلماء الجادون بطريقة أخرى . لقد قدروا نشاط العالم الأثرى المصرى تقديراً عظيما . لكن على الأقل كان عمله التالى ينوء بحمل ثقيل خاصة بين الناس الذين يتعلق بهم تمويل التنقيب ، ولم يفهم الجميع إطلاقاً الأثر العلمى العظيم للاكتشاف ، لهذا كان اتصالهم تليفونيا برئيس الوزراء في وقت ما .

قرر جمال عبد الناصر السفر فوراً إلى سقارة . وبينما كان جالساً فى السيارة كان ينظر بعصبية على منظر الصورة التى أمامه .

يمتد طريق الجيزة الضيق الملتوى الموازى لحاشية وادى النيل الأخضر . وعلى بعد تظهر هضبة صخرية بارزة من وسط بحر الرمال الصفراء بالصحراء الغربية . وهناك حيث تنتهى حدود الصحراء الذهبية يغطى اللون الأخضر الزمردى حقول الفلاحين الممتدة . بينما غاصت القرى الواقعة على الطريق فى أوراق شجر البرتقال . وعلى أسطح المنازل وعلى أفرع الشجر وفى الحقول الخضراء — فى كل مكان تجد الطيور البيضاء الجميلة « أبو قردان » كتلك الطيور المقدسة التى كانت موجودة أيام مصر القديمة . وبطول القنوات المائية والترع ترى الفلاحين فى جلاليبهم الطويلة لابسين عمما بيضاء على الرؤوس . وهى نفس الملابس التى كان يلبسها الفلاحون المصريون فى الأزمنة الغابرة .

وفى النهاية ظهر المنزل الأبيض الذى يعيش فيه غنيم عند آخر الجرف وهضبة الهرم المدرج .

خرج محمد زكريا غنيم لاستقبال رئيس الوزراء وهو مرتبك إلى حد ما ، كان يرتدى خوذة فلينية خضراء وبدلة مخططة بها خروق عديدة — نموذج مكرر من العلماء الذين نسمع ما يحكى عنهم .

بعد أن تبادل التحية مع رئيس الوزراء ، قاده مباشرة عبر الصحراء إلى مكان التنقيب ولم يهتم بعدم رضا أو سرور المرافقين اللابسين لأحذية «مودرن» ، وأثناء الطريق حكى عن عمله : صحيح أننا لم نعثر على المومياء فى التابوت ، لكننا اكتشفنا هرما جديداً وحددنا اسم فرعون لم يكن معروفاً من قبل ... فهذا شىء عظيم الأهمية من وجهة نظر عالم الآثار ... »

— وأضاف غنيم مرتبكا : لكن بخصوص الذهب — فإننا لم نعثر عليه بعد . لكن قد يكون هنا تحت الأرض قادس الذى قد يستأهل البحث عنه .

قاطعه ناصر مبتسما : « الكنز شىء غير هام لنا . لقد جئنا إلى سقارة لرؤية التابوت لكى نعطى شحنة جديدة للعلماء البحاث ونشجع الأثريين المصريين .

بالرغم من تحذيرهم لعبد الناصر من الجو الحار الخانق داخل الهرم ، إلا أنه كان متحمسا لمهمة غنيم ودلف إلى الممر الضيق المنخفض الذى يؤدى إلى داخل الهرم .

وقد كتب بعد ذلك الأثرى المصرى غنيم قائلا : « إن المساندة الحارة التى أبداها ناصر قد خففت من خيبة الأمل المريرة وأعطت قوى جديدة لاستمرار العمل » .

كان عبد الناصر سعيداً حقاً بأن الاكتشافات الجديدة لم تتحقق

والأجانب . الذين عملوا بمصلحة الآثار لحقبة طويلة من الزمن ، وأجروا فعلا العديد من الأبحاث القيمة ، لكنها تحققت على يد مصرى خريج قسم الآثار المصرية بجامعة القاهرة .

ساعد ناصر أيضاً بحمية وبحماس كبيرين مصريين نابهين آخرين .

وفى أثناء أحد الاجتماعات اقترح وزير الثقافة إعفاء توفيق الحكيم من منصب مدير دار الكتب المصرية لإهماله فى القيام بواجباته .

— وسأل عبد الناصر مستفهما :

— هل توفيق الحكيم هذا هو كاتب قصة « عودة الروح » ؟

وكان رد الوزير بالإيجاب .

كان جمال مندهشاً لأنه لم يفكر إطلاقاً فى أن يوماً سيأتى ليقرر بنفسه مصير كاتبه المفضل . واستطرد فى حديثه قائلا — لقد كان لهذا الكاتب أثره الكبير على تفكيرى .

سكت الوزير مضطربا . ولم يتجاسر أن يقول لعبد الناصر أن كتابة الروايات شىء وإدارة مكتبة شيئاً آخر ، لكن الذى فهمه عبد الناصر أن إدارة توفيق الحكيم ليست فى مستوى كفاءته ككاتب كبير .

لم يكن سهلا على الكتاب المصريين قبل الثورة — حتى المشهورين منهم — أن يكتسبوا تكاليف الحياة من العمل الأدبى . وكان لا بد من العثور على مخرج ما .

وأبقوا توفيق الحكيم فى عمله السابق ، ولكن سرعان ماهيأت الظروف بعد ذلك له ولغيره من الكتاب أن يتفرغوا لأعمالهم الخلاقة المبدعة .

أصبح « توفيق الحكيم » بعد ذلك عضواً بارزاً بمجلس الأمة المصرى .

ثم تكونت كثير من فرق الرقص والمسرح . وفى هذه السنوات تألق على الشاشة المصرية فاتن حمامة وعمر الشريف اللذان اشتهرا فى العالم فيما بعد . وقامت فرقة نفيسة الغمراوى للرقص بمحاولات عديدة لبعث الرقصات المصرية القديمة المنقوشة والمكتشفة على جدران مقابر الفراعنة .

. . . استعدت أول مجموعة من الطلبة المصريين للسفر إلى الاتحاد السوفيتى . تخصص عشرون منهم فى دراسة الطبيعة النووية بجامعة موسكو . وأوصى ناصر شخصياً بضرورة امتحانهم بجدية ، وألقى مدير مصلحة العلوم نيابة عن عبد الناصر كلمة فى علماء المستقبل قال فيها :

— أنتم أول طلبة تسافرون إلى بلد شيوعى . ومنكم من هم أولاد فلاحين أو عمال . . وليس مهماً بالنسبة لنا أن تتأثروا بالماركسية أو لا تتأثروا ، المهم بالنسبة لنا أن تعودوا مزودين بأحدث ما وصل إليه العلم لكى تشاركوا فى تحقيق رفاهية مصر .

فى مراحل تالية عندما كان عبد الناصر موجوداً بالاتحاد السوفيتى ، شاهد أحد عروض فرقة المسرح الكبير . وحينئذ فكر عبد الناصر فى ضرورة تكوين فرقة قومية للباليه والرقص الشعبى . ولتحقيق هذا الغرض تقرر استدعاء خبراء باليه سوفيت .

وفى خلال سنوات قليلة هنأ عبد الناصر من قلبه فرقة الباليه المصرى على أول عرض لها . وسرعان ما احتل الراقصون المصريون مكانتهم بين راقصى العالم وأصبحوا مشاركين بصفة دائمة فى المسابقات الدولية .

استطاعت مصر أن تفتخر بإحرازها انتصارات رياضية فى مجالات عديدة . فى سنوات ما بعد الحرب ، وقبل الثورة اشتهر فى العالم كله اسم الرياضى المصرى عمرو بك الذى يستحيل الانتصار عليه فى الأسكواش . وكافأه الملك فاروق على إنتصاراته الرياضية بإيفاده سفيراً لمصر فى انجلترا . وبعد الثورة تقاعد عمرو بك لكن خليفته الشاب أبو غالب حقق إنتصارات عظيمة . وكان فى مصر العديد من لاعبى كرة القدم الجيدين والسباحين الممتازين . ثم أنشىء

المعهد العالى للتربية الرياضية بعد الثورة وهو يتسع لحوالى ألفا وخمسمائة طالب وطالبة . واشتغل خريجو المعهد بالتدريب الرياضى .

لم تقدم الثوره فقط هؤلاء وأولئك من الكتاب والرسامين والعلماء والرياضيين ، لكنها غيرت وجه مصر . فقد كانت الحياة قبل الثورة على النقيض من الحياة بعد الثورة .

تغلب فى مصر الطابع التركى بالرغم من أن تواجد الإنجليز الطويل قد ترك بصماته على صفات المجتمع . وكان يبدو جلياً للناس المتواجدين بالأحياء الغنية من المدن المصرية أنهم أصبحوا فى تركيا . كانت الانتقائية وليفة مميزة جداً لأذواق الباشوات والباكوات ـ كانت قصورهم وفيلاتهم شبه مكتظة بالكثير من الزجاج الملون والفضيات والكريستال التشيكى . بعض العادات التركية التى ألغاها كمال أتاتورك فى تركيا ذاتها ما زالت موجودة فى مصر . وعلى سبيل المثال كان لا يزال الكثير من المصريين يلبسون الطرابيش ، فى الوقت الذى أصبح لبسها فى تركيا جريمة يعاقب مرتكبوها بالإعدام . وما زال حتى الآن فى الإمكان مصادفة المسنين الذين يتحدثون التركية ، خاصة الباشوات والباكوات السابقين ، ويعتقدون أنه يجب على الجميع أن يفهموهم .

فى عهد الملك فؤاد فقط أخذت المراسيم والتشريفات الملكية

الأسلوب الإنجليزى وظهرت السيدات فى حفلات الاستقبال فى ملابس سهرة حديثة لأول مرة بدلا من السروال التركى الأبيض والقفطان .

استخدمت الأسر المصرية الثرية فتيات الأسر الفقيرة كوصيفات، كان العمل فى بيت غنى مكسباً كبيراً من حيث أن الفتياة تصبح عندها فرصة كبيرة للزواج من صغار ملاك الأرض ومستخدمى الحكومة .

عموماً كان من المعتقد أن فترة الخدمة كوصيفة تجعلها ربة بيت حسنة . وعندما تتزوج الفتاة يجب أن تدعو إلى حفل الزواج وقبل أى شىء آخر سيدتها السابقة وتركع عند قدميها وتقبل طرف فستانها . تجذب السيدة خادمتها السابقة وتقبلها من وجنتيها وتجلسها بجوارها ، وبعد هذا يجلسا «كندين» ويشربا القهوة أو الشربات .

تبدو الحياة لباشوات مصر بدون « حافاوات » بلا معنى . وحتى الآن يحبون الحديث فى مصر عن الترف الشديد الذى عاش فيه باشوات مصر ذات مرة .

وقبل الثورة بوقت قصير . تناقش أحد الباشوات الكبار مع سيدة وصلت من أوروبا ، فسألته السيدة :

— أين تعيش ؟

فأشار بأصبعه إلى فيلا على شاطىء النيل مختفية وسط خضرة كثيفة قائلا :

— هناك . .

— وصاحت السيدة بصوت عال وأضافت — ما هذا المنزل الجميل الرائع ؟! إننى كثيراً ما سألت نفسى : من يمتلك هذا المنزل ؟

— وكانت إجابة الباشا « إنه منزلك من الآن » .

لقد كان إلغاء طبقة الباشوات لايحمل فقط قيمة إجتماعية — إقتصادية ، بل يعتبر الأساس الأصيل لبداية ثورة ثقافية .

لقد صودرت قصور الأرستوقراطيين المصريين وكذا الأجانب وعادت إلى الشعب . وهكذا أقيم على الأرض المحيطة بقصر « لطف الله » قبل الثورة أحد أفخم النوادى الرياضية فى العالم وخصص للانجليز فقط . ولكن بعد الثورة فتحت أبواب القصر على مصراعيها ، وأصبح من الممكن لأى مصرى زيارة النادى .

لقد تغيرت مصر داخلياً وخارجياً .

إن ضباط الأمس — رفاق عبد الناصر — أصبحوا الآن يديرون المصالح الحكومية والمؤسسات والهيئات والشركات والأقسام التى كان يمتلكها الباشوات سابقاً .

وبالمناسبة نقول أن أولاد الباشوات والباكوات السابقين لا يستطيعون إعتباراً من الآن الخدمة بالحكومة ، حيث شغلت

مراكزهم بالضباط ، وبعض رجالات النظام السابق وأسرهم منعوا من مغادرة أماكن سكنهم . وقد اعترف المديرون الجدد أن إدارة شركة تجارة أو مسرح أصعب من تجهيز كتيبة للاستعراض . لكن كان ناصر فى حاجة إلى تجميع رجال من كل مكان ، وفى الحقيقة كان هناك هواة ومحبو الاستهانة تبديد أموال الدولة .

على أية حال ، هذه الظواهر المؤسفة لم تستطع بالطبع أن تخفى الجوانب الإيجابية للثورة المصرية . فما زال أمام قادتها اكتساب مزيد من الخبرات لكنهم على هذا الطريق قابلوا الأفراح والآلام .

٥

فى عام ١٩٥٥ تعرضت مصر ولأول مرة بعد الثورة لإعتداء عسكرى إسرائيلى ، وذلك بالإضافة إلى الضغط الذى تمارسه كل من الولايات المتحدة وإنجلترا بهدف تكوين حلف عسكرى بالشرق الأوسط .

وفى إحدى أمسيات شهر فبراير ، بينما كان ناصر نائماً دق جرس التليفون . كان المتحدث على صبرى . قال : « توجد أخبار غير سارة » . وضع جمال على كتفيه بالطو وأخذ فى يده ورقة وقلم رصاص ، وتابع على صبرى حديثه :

« هاجم الجيش الإسرائيلى قطاع غزة ، واستمر المعتدون فى التوغل فى العمق لمسافة ميلين داخل الأراضى المصرية ودمروا محطة السكك الحديدية الواقعة شمالى غزة خسائرنا ٢٧ قتيلا وأكثر من ثلاثين جريحاً . . . » .

لم يستطع ناصر أن يخفى دهشته . لم تقع أى حوادث كبيرة على خطوط الهدنة لمدة سنتين وأكثر منذ قيام الثورة . لكن

بمجرد أن وقعت إتفاقية جلاء القوات الإنجليزية وبعد توجيه ضربة للإخوان المسلمين قامت إسرائيل بهذا الإعتداء ، هل من الجائز أن رفض الدخول فى حلف بغداد لعب دوراً ما ؟ هل هذا يعنى أن كل شيء متداخل ومترابط ؟..

وفى هذه الليلة لم يغمض لعبد الناصر جفن . واستمر حتى الصباح الباكر جالساً بجوار التليفون . وفى اليوم التالى طلبت مصر عقد جلسة طارئة لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . وأعلن رئيس وزراء إسرائيل أن جيش بلاده قام بعملية محدودة ، وإذا اشتعلت الحرب فستكون مصر هى المسئولة عن ذلك . ومنذ ذلك الحين مضت سنوات عديدة وقد تعود العالم على أن إسرائيل تلجأ إلى هذه الصور الزائفة لتبرير أكثر إعتداءاتها وحشية . استمرت إسرائيل فى « عمليات محدودة » مماثلة ضد كل جيرانها بلا استثناء . فى عام ١٩٤٨ واجه عبد الناصر الجنود الإسرائيليين فى ميدان المعركة ، بينما الآن بصفته رجل دولة مسئول مطلوب منه مواجهة حاسمة لوقف الإعتداءات الإسرائيلية . كان السياسى الإسرائيل بن جوريون — صنيعة المجموعة العسكرية الواضح — أحد المدبرين الرئيسيين للهجوم على قطاع غزة .

على أية حال لم يكن الهجوم على قطاع غزة إلا بداية . . .

ومنذ ذلك الحين كان يواكب كل فعل من جانب عبد الناصر

— الذى لم يكن على هوى الإمبرياليين — ضغوط إسرائيلية أو إعتداءات على الحدود . لقد حاولوا بذلك إفهام عبد الناصر أنه لن يشعر بالأمن مادامت لم تشترك فى حلف بغداد .

بسبب الهجوم الإسرائيلى على قطاع غزة إستشهد عشرات المصريين ، كما وصل إلى القاهرة لاجئون رثوا الثياب هزيلون ومعهم أطفالهم الجائعون : هرب الكثير من هؤلاء الناس من الإعتداءات الإسرائيلية للمرة الثانية . لقد كان عندهم فى فلسطين المنازل والحدائق ، وأصبحوا بعد كارثة ١٩٤٨ يخدمون المحتلين . أبعد الجزء الأكبر من الفلسطينيين إلى غزة . ولم يعد عندهم إمكانية لإلحاق أبنائهم بالمدارس . أما البنات البالغات ، فقد سافر الكثير منهن للعمل فى الملاهى الليلية ببيروت وأستانبول وطهران وباريس . ثم تعرض هؤلاء الناس للهجوم الجديد على غزة وبدت مصر عاجزة عن الدفاع عنهم .

اعترف مجلس الأمن ، الذى ناشد مصر وإسرائيل عدم العودة إلى مثل هذه التصرفات بأن الحكومة الإسرائيلية دبرت هذا الهجوم — ولم تستطع القناعات الأدبية لهذا القرار أن تعوض مصر الخسائر التى تحملتها . ولم يمض وقت طويل حتى استطاع ناصر بأساليب سياسية بحتة أن يحول إنتصار إسرائيل العسكرى إلى إندحار .

اقتنع ناصر بضرورة بذل كل الجهود الفورية فى سبيل تقوية الجيش المصرى، وأقنعته المباحثات مع الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا باستحالة الحصول على أسلحة من هذه الدول . وأوصل الواقع الحقيق ناصر إلى فكرة إمكانية شراء الأسلحة من بلاد المعسكر الاشتراكى فقط .

فى ذلك الوقت وقعت العراق وإيران إتفاقية تعتبر حجر الأساس لحلف بغداد . فقد اعتبر الساسة الأمريكيون وخاصة دالاس تكوين حلف بغداد . إنجازاً ضخماً . ويريدون الآن إدخال دول عربية أخرى فى المؤسسة العسكرية الجديدة . . لقد علموا فى الولايات المتحدة الأمريكية أن العرب تعودوا منذ زمن بعيد أن يحذوا حذو مصر — الدولة الأعظم والأكثر هيبة فى منطقة الشرق الأوسط .

فاقترحت إنجلترا والولايات المتحدة إستخدام « بسمارك العراق » الرجعى المتطرف نورى السعيد للقيام بالتفاوض مع مصر . لم يكن هناك سياسى فى منطقة الشرق الأوسط حائزاً على ثقة الامبرياليين أكثر من نورى السعيد . عندما ظهر خبر زيارة نورى السعيد لمصر فى الصحف ، كان واضحاً للجميع أية أهداف تكمن وراء هذه الزيارة .

لقد استوعب ناصر جيداً نوعية الخطر الذى ينتظر بلده ..

فإذا حدث وتمكنوا من إدخال مصر فى الحلف العسكرى فذلك يعنى أن كل مكاسب وانتصارات الثورة قد تبخرت .

تفاقم الوضع وإزداد سوءاً حيث أن نورى السعيد لم يستطع إطلاقاً أن يلعب دوراً ايجابياً فى الحلف العسكرى المرسوم .

— وأصبح مقدراً على مصر أن تدخل مرحلة نضالية جديدة ووقف ناصر بصلابة ضد الإمبرياليين ، وقد أكسبه هذا الوضع حلفاء فى كل العالم العربى وشعبية كبيرة فى مصر .

جاء يونية ١٩٥٦ . فى بور سعيد حيث تم شحن آخر دفعة من الجنود الإنجليز على باخرة راسية بالميناء استعداداً للإحتفال بهذه المناسبة . ووصل إلى الميناء العديد من الصحفيين والضيوف الأجانب ، وعلى أنغام الموسيقى ودقات الطبول رقص الناس فى الشوارع المعلق بها الزينات والأضواء والأنوار مبتهجين بهذه المناسبة . وأنطلقت فى سماء المدينة الصواريخ المضيئة مكونة أشكالا وألواناً جميلة . وانتشرت قوارب الصيادين بأشرعتها البيضاء فيما يشبه الاستعراض عند مدخل قناة السويس .

لقد انتهى إحتلال مصر الذى استمر لسنوات طويلة نهاية ذليلة . لقد جاء الإنجليز ذات يوم إلى مصر فى مظاهرة بحرية تحت دمدمة وقصف المدافع المصوبة تجاه الإسكندرية ، وانسحبوا فى سكون الليل .

وخلاصة القول لقد تم جلاء الإنجليز عن مصر بدون موسيقى تصويرية .

ووسط هتافات أهالى بور سعيد رفع جمال عبد الناصر العلم المصرى بعد تقبيله فوق القاعدة العسكرية الإنجليزية فى منطقة قناة السويس . وخطب جمال عبد الناصر فى مئات الآلاف من الجماهير المحتشدة فى الساحة بالرغم من حرارة الشمس الحارقة قائلا : « أيها الأخوة المواطنون ، اليوم ، بعد قرون طويلة من العبودية ، أصبحتم أحراراً » .

بعد جلاء قوات الاحتلال غيرت الحكومة فوراً قانون الحكم العسكرى الذى صدر بعد الثورة ، وكذا تم إطلاق سراح كل المعتقلين السياسيين . وقد شعر كل مصرى أن أحد أهداف الثورة قد تحقق بنجاح .

ورأى عبد الناصر أن الوقت قد حان لإعداد الدستور على وجه السرعة ، وأقر الشعب الدستور فى ٢٦ يونيو ١٩٥٦ عن طريق الاستفتاء الشعبي العام . وانتهت « فترة الانتقال » وعضدت الموافقة على الدستور سيـــادة مصر . وانتخب جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية وانتهت كل صلاحيات مجلس قيادة الثورة .

ومع مرور الوقت اقتنع عبد الناصر أكثر وأكثر بأنه لا يمكن

لمصر أن تعيش فى عزلة . فى عام ١٩٥٥ أصدر كتابه «فلسفة الثورة» الذى حاول فيه أن يعرض خلاصة تجربته فى حرب فلسطين وفى الثورة . وكان واضحاً للجميع اتجاه الكتاب المعادى للامبريالية فى « فلسفة الثورة » ، ووردت أيضاً فكرة وحدة العرب التاريخية والثقافية وعلاقاتهم بشعوب آسيا وأفريقيا .

كان من رأى عبدالناصر أن فى ظروف صراع النظامين العالميين — الاشتراكى والرأسمالى يوجد أمام الدول المستعمرة (بفتح العين) والنامية إمكانية حقيقية لتحقيق إستقلالهم السياسى عن طريق عدم الانحياز إلى إحدى الكتلتين . وقد أقنعته التجربة فيما بعد بأن هذه الدول يجب أن تتكاتف فى جبهة واحدة ، وأنه يمكنهم الاعتماد فى نضالهم على الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الأخرى .

عندما انضمت باكستان إلى حلف بغداد وربطت نفسها نهائياً بالمعسكر الامبريالى ، أبدى ناصر تعاطفه العلنى مع الهند ، مما يشير إلى سعة أفق وتقدمية وجهات نظر جمال . فلم تكن الوحدة الدينية هى التى حددت سياسة مصر الخارجية ، ولكن الاجتهاد لتقوية العلاقات مع دول « الحياد الإيجابى » التى صيغت أسسها النظرية فى النهاية فى مؤتمر باندونج .

وبعد إنتهاء هذا المؤتمر الذى حضره وفود ٢٩ دولة تمثل أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية ، دخل التاريخ مع نهرو وسوكارنو

وغيرهم من قادة حركة التحرر الوطني كأحد مؤسسي حركة عدم الانحياز . وقبل انعقاد المؤتمر بوقت غير طويل عندما اصطدمت مصر بضغط الدول الامبريالية لضمها لحلف بغداد ، استطاع ناصر أن يمتحن عملياً حجم قوة تضامن دول عدم الانحياز ، وهم بدورهم لمسوا مقدار جدية قرار مصر للمضى فى طريق الاستقلال .

فى خلال شهر فبراير ١٩٥٥ ، عندما أغارت القوات الإسرائيلية على غزة ، استقبل عبد الناصر ضيوفاً بارزين الواحد تلو الآخر . وصل أولا جوزيف بروز تيتو على ظهر باخرة إلى الاسماعيلية وأكمل معه عبد الناصر الرحلة حتى بورسعيد ، وخلال الخمس ساعات التى أمضياها معاً حكى جمال عن مخاوفه إلى تيتو . هنا سانَد تيتو عبد الناصر الذى أبدى إصراره على أن مصر يجب ألا تربط نفسها بحلف بغداد الامبريالى .

بعد ذلك طار نهرو إلى القاهرة . وأظهرت المناقشة الأولى أن نهرو أيضاً حيّى بحرارة إصرار مصر على عدم الانضمام إلى الأحلاف العسكرية الامبريالية .

حقق مؤتمر باندونج أهدافه . فقد كان قادة دول عدم الانحياز مستعدين فعلياً لمؤازرة ومساعدة بعضهم البعض ، وتفتحت أمام ناصر أبعاداً جديدة . حصلت الثورة المصرية على اعتراف دولى بها وأظهر قائدها حنكة سياسية ودبلوماسية فائقة .

بعد توديع نهرو ، استعد ناصر فى هذه المرة لاستقبال ضيف جديد . فقد جاء إلى مصر نائب رئيس وزراء انجلترا ووزير خارجيتها أنطونى إيدن .

بدأت سيارات الليموزين الفارهة تفد الواحدة تلو الأخرى إلى السفارة الإنجليزية ، وتلألأت بوابة السفارة الداخلية بالأنوار مثل الأزمنة القديمة واقترح إيدن أن يمكث فى القاهرة يوماً واحداً — فقرر السفير إقامة حفل عشاء رسمى حيث أنه أراد بإصرار أن ينظم لقاء إيدن مع جمال عبد الناصر .

قدم السفير جمال إلى إيدن وزوجته . فمدت الإنجليزية يدها بلا تكلف ليقبلها . انزعج ناصر . لاحظ ذلك إيدن وهب للمساعدة وهو نجم علية القوم المحنك . تحدث عن الجو . واستمع جمال باندهاش إلى إيدن وهو يتحدث باللغة العربية . على أية حال تطابق حديثه بشكل غريب مع بدلة السهرة الأنيقة السوداء التى يلبسها . أدار إيدن النقاش — كخبير مدقق — عن الشعر العربى والقرآن مدعماً حديثه بمقتطفات يستشهد بها ، تحدث إيدن بلا أخطاء باللغة العربية الفصحى التى أصبحت تراث أدبى لا تستعمل إطلاقا فى الحياة اليومية . ولكى يبدد الحيرة قال إيدن أيضا أنه فى وقت ما أفلح أن يدرس آداب اللغة العربية .

بدا لعبد الناصر أن وجه إيدن مغلف بالضباب . كانت عيناه

الوزير الإنجليزى باردة تماما . الأنماط الرائعـــة والتأنق الأرستقراطى — كل هذا كان مجرد بهرجة ظاهرية . لقـد رأى جمال أمامه مومياء فى بدلة سوداء .

لقد قدر لعبد الناصر كثيراً مقابلة شخصيات شبيهة من بين الجنود الإنجليز وهم جالسون فى الخيام يتسابقون مع شيوخ البدو فى إنشاء الشعر القديم . لكن لم تلاحظ هذه الشخصيات واسعة الاطلاع تريد أن تفهم الدنيا التى تغلى من حولهم .

استعاد إيدن بسرور ذكرياته عن مقابلاته مع الساسة المصريين سنة ١٩٣٦ عندما سافروا إلى لنـدن . وأخذت صور تذكارية له حينئذ مع المصريين فى طرابيشهم الحمراء . وحكى لجمال أن هذه الصور معلقة فى منزله حتى الآن .

كان جمال خجلا من حديث إيدن : لكن ها هو نجم الدبلوماسية الإنجليزية يستمر فى هـذا الحديث السخيف فى خيلاء عارم ملتفتا إلى زوجته الحسناء بين الحين والآخر . وهى — على أى حال — كانت فخورة بزوجها .

وزع الويسكى بالصودا على المدعوين . أمسك ناصر كأساً به عصير فواكه ، فهو لا يشرب الخمر ، ثم تبادل المدعوون الحديث فى مرح وسرور وحيوية كان يكسو وجه ناصر ملامح جادة طوال

الحفل . لم تؤثر فيه النكات التى أضحكت رجال وسيدات الأرستقراطية الإنجليزية . أحياناً كان إيدن أو زوجته يهتمان بمعرفة رأى السيد رئيس الوزراء فيما يدور فى الحفل من حديث . وعندما يبدأ عبد الناصر فى الإجابة ، كان يكتشف باستغراب أنهم لا يسمعونه .

أراد عبد الناصر أن يخرج بسرعة من هذه السفسطة التافهة إلى العمل الجاد . وفى النهاية استطاع ناصر أن يتحدث بشأن استمرار انسحاب القوات البريطانية من منطقة قناة السويس .

قال عبد الناصر :

— آمل أن يؤدى هذا إلى فتح صفحة جديدة فى علاقاتنا . والشىء الوحيد الذى يمكن أن يزيدها سوءاً هو محاولة انجلترا ربط منطقة الشرق الأوسط بحلف بغداد ؟

وسأل إيدن باهتمام :

— لأى سبب أنت ضد حلف بغداد ؟

أجاب عبد الناصر .

— لأننا ضد أى أحلاف عسكرية .

— لكن ما هى الأسباب التى على أساسها تقود حملة ضد أولئك الذين يساندون هذا الحلف ؟ .

فأجاب عبد الناصر بأن حكومته لم تشارك فى أى حملات ضد أحد ، وعلى كل حال فهو يعتقد أن الحلف — ماهو إلا محاولة لتقسيم الدول العربية وعزل مصر إذا انحازت كل من سوريا ولبنان والأردن إلى الحلف ، وكذا من الجائز إمارات الخليج العربى ، فهذا يعنى انفراد إسرائيل بمصر بمفردها . كذا يشكل الحلف معوقاً أساسياً للوحدة العربية .

وعند سماعه لكلمة « الوحدة العربية » قاطع إيدن عبد الناصر قائلا :

— ألم أكن أنا أول من دعا إلى الوحدة العربية ؟ فى سنة ١٩٤٢ أعلنت أن انجلترا تنظر بعطف نحو محاولة الدول العربية بتكوين اتحاد سياسى .

أجاب ناصر :

لا : لست أول من جاء بفكرة الوحدة العربية .

تطلعت زوجة إيدن بغضب . حيث لا تعجبها معارضة زوجها :

وأضاف ناصر :

— التأييد الشعبي لنا في مصر يشير إلى تطابق وجهة نظرنا مع رغبة القاعدة الشعبية العريضة .

على أي حال أعلن إيدن الذي كان على قناعة قوية بأن على الإنجليز أكثر من غيرهم تفهم أمنيات وأفكار العرب ، أن شعوب دول الشرق الأوسط مندفعة في معركة ضد الشيوعية .

غير أن ناصر — كما كتب هيكل الذي كان حاضراً هذا الحديث — لم يعارض إيدن في هذا الموضوع على وجه الخصوص . أراد الزعيم المصري أن يقتنع إيدن بأن على الرغم من أنه — أي ناصر — لا يريد الارتباط بالمعاهدة ، فلا توجد أسباب خاصة وراء معارضته حلف بغداد .

قال إيدن : « وهو يتصرف كأمير حسب وصف عبد الناصر » :

— انجلترا مستعدة أن تبحث معكم مشكلات مصر الداخلية ، لكن نحن لا نستطيع أن نوافق على موقفكم بالنسبة للشئون العربية العامة .

* * *

في اليوم التالي سافر إيدن إلى بغداد وسرعان ما تولى رئاسة الوزارة وتقدم باقتراح لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي والاعتراف بالحدود القائمة .

كان موقف الدول العربية من هذه المبادرة إيجابيا ، أعلن ناصر أن اقتراح إيدن أساس جيد للمباحثات . لكن استقبلت إسرائيل الاقتراح بهجوم شديد . كذا مارست لندن ضغطا على البلاد العربية لإدخالهم فى حلف بغداد .

فى نهاية عام ١٩٥٥ وصل وزير خارجية انجلترا الجديد — سلوين لويد — إلى القاهرة ، كان من الواضح أنهم حسبوا أن إدخال الأردن فى حلف بغداد قد يؤدى إلى تخلى ناصر عن سياسة الحياد . كان عند لندن كل الأسباب لتفترض أنها لن تفشل ، اعتمد الانجليز على رجلهم العجوز المجرب جلوب باشا ، الذى عاش باستمرار فى الأردن ، فهو يجيد العربية بطلاقة ، ويرتدى الزى العربى التقليدى ، وكان رجلهم الدائم فى ديوان الملك .

لهذا ذكر سلوين لويد ، الذى وصل إلى القاهرة ، ناصر بأن وضع الإنجليز فى الأردن قوى ، على كل حال ، فى هذه اللحظة ، بينما تدور هذة المحادثة دخل موظف السفارة البريطانية وسلم الوزير تلغرافاً جاء فيه أن جلوب باشا طرد من الأردن .

— عندما تصلكم معلومات عن أن الشعوب العربية تحلم بالدخول فى الحلف العسكرى من تلك الشخصيات أمثال جلوب باشا فلا يجب أن تصدقوهم — قال ناصر ذلك للوزير الإنجليزى .

قرر سلوين لويد أن طرد الجنرال جلوب باشا ما كان ليحدث لولا تدخل المصريين .

وإجراء المباحثات مع ناصر لم يكن بالعمل السهل .

تناولت المناقشة كذلك المشاكل الاقتصادية ، بدأ سلوين لويد في التعجل . كان يريد إعطاء إنطباع لمن يناقشه أنه على الرغم من اهتمام انجلترا بالمحادثات فلا يمكنها ، في نفس الوقت ، التضحية بمصالحها . تناول لويد بالشرح ، أهمية التجمع الصناعي المشكل لاستخراج النفط بالنسبة لانجلترا ، وأوضح كيف تشكل قناة السويس جزءاً من هذا التجمع .

وتساءل عبد الناصر بعقلانية : إذا كانت البلاد التي من أرضها تستخرج الشركات الأجنبية البترول تقتسم معهم الدخول بنسبة ٥٠٪ فلماذا تحصل مصر على ٦٪ فقط من إيراد عبور السفن لقناة السويس ؟

سرعان ما طار سلوين لويد إلى البحرين ، بالقرب من مراكز استخراج النفط . وعلى الجزيرة استقبلته مظاهرة شعبية ضخمة بالبيض الفاسد والطماطم العطبة وبالهتافات « يسقط المستعمرون ! يعيش ناصر ! » استطاع الوزير الانجليزي الاختباء بصعوبة من الجماهير الغاضبة .

فتذكر أي درس تلقاه من القاهرة ، اعتقد سلوين لويد أن ناصر هو المذنب والمسئول عن مظاهرات البحرين ، منذ ذلك الوقت كان يرجع فشل السياسة الانجليزية في الشرق الأوسط إلى عبد الناصر

* * *

تمنى ناصر أن يكون طرد جلوب باشا باعثاً للدول العربية على أن تدعم وتتبع سياسة الحياد الإيجابى . ودعم هذه الأمنية انعقاد مؤتمر القمة الثــــلاثى لرؤساء وملوك : مصر ، سوريا ، والعربية السعودية . نتج عن المؤتمر توقيع اتفاقية يتعهد فيها الزعماء الثلاثة : الملك سعود ، شكرى القوتلى وجمال عبد الناصر بتقوية التضامن العربى . واعتبرت هذه ضربة أخرى للامبريالية .

« أنتم ، أيهـا الأمريكيون ، تركزون كل اهتمامكم على القواعد العسكرية ، لكن هذه القواعد وما عليها من قنابل ذرية وهيدروجينية تبدو عديمة الفائدة . يمكنكم إنشاء قواعد عسكرية ، لكن حول كل واحدة منها ستجدون آلاف القواعد الفدائية » — قال عبد الناصر ذلك فى أحد خطاباته ...

شددت الدوائر الامبريالية التى وجهت لها هـذه الكلمات من حملتها ضد مصر . على سبيل المثال ، نشرت « ديلى تلجراف » مقالا تحت عنوان « خطة عبد الناصر السرية » أكد فيها كاتبها أن ناصر يقود عملا تخريبياً ضد الدول الرأسمالية وبمعرفة وتحت قيادة إدارة المخابرات المركزية طبعت ووزعت فى مصر منشورات ضد حكم عبد الناصر . كما أصبح معروفا بعد ذلك هـذا السؤال المطروح فى الولايات المتحدة الأمريكية : عمن سيكون رئيس مصر بعد خلع عبد الناصر ؟ كان من بين المرشحين أحمد زعماء حزب" الوفد غير المعروف شعبيا وكذا اللواء نجيب .

كانت بعض قرارات الحصار الاقتصادى قد اتخذت . خفض الانجليز من مشترواتهم من الأقطان المصرية طويلة التيلة بدرجة كبيرة . حينئذ طلبت مصر التى كان يعتمد اقتصادها فى ذلك الوقت على محصول القطن مساعدة الاتحاد السوفيتى . اشترت بلادالمعسكر الاشتراكى فوراً ثلث محصول القطن المصرى .

استطاعت المخابرات المصرية الحصول على كشف بالأسلحة التى أرسلتها لندن لتل أبيب . بعد دراسته اقتنع عبدالناصر بأن أحاديث الدبلوماسيين الغربيين عن « حفظ توازن القوى » ليست إلا خدعة دعائية تستهدف إضعاف مصر . ظهر أن الجيش الإسرائيلى أحسن تسليحاً من الجيش المصرى . الآن أدرك ناصر السبب فى رغبة الإنجليز والأمريكان رفض بيع السلاح له . ولم يبق لعبد الناصر سوى طريق واحد — شراء السلاح من البلاد الاشتراكية . لم يصدق الأمريكان أن عبد الناصر قرر ذلك . اعتقد جون فوستر دالاس أن ناصر يريد أن يمارس ضغطاً عليه فقط . تصرف الإنجليز بطريقة أخرى : زار السفير الانجليزى عبدالناصر وحذره من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تسببها هذه الخطوة . وتوالت الأحداث . اتصل أحد المصريين من عملاء المخابرات الأمريكية بمندوب إدارة المخابرات المركزية فى القاهرة جون ايكل برجر وأخبره بأن إتفاقية توريد السلاح قد وقعت . « فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل — كتب هيكل — اتصل بى ايكل برجر تليفونياً ،

وكان مضطربا جدا ، وألح على أن أبذل جهدى لكى أساعد عبد الناصر على الهرب من « الفخ الشيوعى » . وطالب بالتريث لحين وصول المبعوث الخاص الذى غادر واشنطن فى طريقه إلى القاهرة فعلا . لكن ناصرا كان قد فقد الثقة فى كلام الأمريكان .

فى سبتمبر عام ١٩٥٥ جرى استعراض عسكرى . تجمع عدد ضخم من المراسلين الأجانب بالنسبة لهذا الاستعراض المعتاد فى مصر ، فى الوقت المناسب نهض إلى المنصة جمال عبد الناصر ، كالعادة دائما ، بدأ يتكلم فى هدوء وكان يتوقف قليلا من حين لآخر . . حكى ناصر بالتفصيل كيف أن النظام الثورى حاول شراء الأسلحة من البلاد الرأسمالية دون جدوى . جاس الصحفيون متتبعين الخطاب فى صمت ، شاعرين بحاستهم الصحفية أن هناك شيئا هاما سيدان فى الخطاب .

وأعلن ناصر :

« .. حكومة تشيكوسلوفاكيا أبدت استعدادها لمدنا بالسلاح الذى نطلبه على أساس أنها صفقة تجارية بحتة . . . » .

وبينما كان عبد الناصر لا يزال مستمرا فى إلقاء خطابه ، حمل التليكس إلى كل أنحاء العالم ما سماه الصحفيون بالخبر المثير الذى قاله

عنه جون فوستر دالاس « أخطر حادث منذ الحرب الفيتنامية » (١)

أغاظ جمال الامبرياليين بإجابته على العديد من أسئلة الصحفيين الذين يقابلوه يوميا : فى إجابتـــه على سؤال مراسل الإذاعة الأمريكية ذكره بأنه طلب أولا السلاح من أمريكا . وعندما سأله الصحفيون عن كمية السلاح الذى اشتراه ونوعه ، ابتسم فى هدوء وقال هذا سر عسكرى .

عموما لم تكن هناك مفاجأة خاصة من أى نوع . فى اليوم التالى لتوقيع إتفاقيـــة شراء السلاح أحيط علم السفيرين الانجليزى والأمريكى بذلك شخصيا . كان من صالح عبد الناصر أن يظهر لواشنطن ولندن أن هناك بلاداً مستعدة لمد الشعب المصرى بالمساعدات الخالية من الأطماع .

سبب حزم وصلابة عبد الناصر الاضطراب لواشنطن وطار إلى مصر على وجه السرعة مستر « آلن » وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لشئون الشرق الأوسط . لكن لم يستطع أن يغير الوضع لصالح الولايات المتحدة . أصبح المصريون فى غنى عن مقترحات المبعوث الأمريكى . انتظر « آلن » ومعه السفير الأمريكى ساعة ونصف فى الاستقبال حتى سمح لهم جمال عبد الناصر بمقابلته

---

(١) يعنى بذلك الحرب التى شنها الاستعمار الفرنسى ضد الشعب الفيتنامى بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية .

أصبح ناصر فى هذه الأيام أشهر شخصيـة فى العالم العربى . فى بغداد والدار البيضاء ، فى عدن ودمشق . فى عمان وبيروت علقت صور عبد الناصر على الجدران وفى فترينات المحلات .

وصل وفد من رجال الكونجرس الأمريكى بسرعة إلى القاهرة .. تواجد الضيوف بصحبة سفيرهم عند عبد الناصر . ما أن خرجوا من المبنى ، قفـز الشحات مقطوع الرجلين ناحية السفير بعلبة صفيح . أخرج السفـير جيوبه مظهرا . إن ليس لديه أى نقود .. اضطر رجال الكونجرس أن يعطوا للشحات مافى جيوبهم .

فى اليوم التالى نشرت جريدة قاهرية خبرا عن ذلك ، أن أعضاء الكونجرس تبرعوا بأموال لشراء الأسلحة التشيكية . اضطر السفير الأمريكى أن يعقـد المؤتمر الصحفى الذى أعلن فيه أن رجال الكونجرس تبرعوا بالمال لأسرة الكسيح .

وصل الاستعراض الذى أقيم فى القاهرة إلى الذروة . ظهرت فى سماء القاهرة طائرات هجومية حديثة سوفيتية الصنع عليها إشارات سلاح الطيران المصرى . ظهرت فى الشوارع والميادين الدبابات الثقيلة والمدافع ذاتية الحركة . لم يكن لدى الجيش المصرى أسلحة ممتازة كتلك المعروضة أبدا . نجح الملحقون العسكريون الأجانب الذين حضروا الاستعراض فى تسجيل العديد من الملاحظات فى مفكراتهم . استمر الاستعراض أربع ساعات ظل خلالها عبد الناصر

واقفاً على المنصة بالرغم من أشعة الشمس الحارقة . في هذه اللحظة كان فخوراً ببلده وبجيشه .

ظهرت أمام المنصة مع وحدات الجيش المصري وحدات رمزية من الجيوش العربية الأخرى . ظهرت قوات رمزية أردنية وسورية وسعودية ويمنية في زيهم الوطني المميز ، أكدت مشاركة هذه القوات في الاستعراض على الدور الخاص الذي تلعبه مصر في العالم العربي .

* * *

في أيام الثورة الأولى أعلن الضباط الأحرار أنهم يهدفون إلى تحقيق أمل مصري قديم هو بناء سد عال على النيل .

وعبر سنوات عديدة أدارت مصر مع البنك الدولي للتعمير والتنمية محادثات لتحويل عملية بناء هذا السد . وتناقش فوستر دالاس بخصوص هذا الموضوع مع السفير المصري أحمد حسين في واشنطن

قال السفير في إحدى المحاضرات :

« لقد شرحت للمستر دالاس بأن مصر تحتاج مساعدة أمريكا في بناء السد ، لقد شرحت له أنه على الرغم من أن الحكومة السوفيتية اقترحت علينا شروطاً أفضل من تلك التي قدمها البنك الدولي

إلا أننا مبدئيا نفضل إبرام الاتفاقية مع البنك ، وشرحت له أنه ليس من مصلحة البنك تأجيل اتخاذ القرار بتمويل بناء السد ، حيث أن هذا سيضطر مصر إلى قبول العرض السوفيتى » .

وكتب هيكل :

« كان هذا مبادرة شخصية من السفير حيث أن الاتحاد السوفيتى لم يكن قد قدم بعد أية مقترحات فى ذلك الوقت متحملا بذلك بنفسه مسئولية هذا التصرف » .

كان أحمد حسين رجلا عمليا جدا . لقد استخدم ببراعة الصدمة النفسية التى يعانى منها الأمريكان إثر إبرام إتفاقية توريد السلاح لمصر من الدول الاشتراكيه ، وكان كل شىء متوقفاً تماما على أمريكا . ووعد البنك بالمشاركة بنصف نفقات السد إذا ما وافقت أمريكا وانجلترا بتحمل النصف الثانى وهو حوالى ٢٠٠ مليون دولار . لكن الانجليز والأمريكان وافقوا على تمويل نفقات السنة الأولى فقط .

لم يقرر ناصر البدء فى بناء السد الذى تحدد له حدة عشر سنوات حيث أنه لم يكن مقتنعا تماما بأن بناء السد سيكتمل بنجاح لأن موقف الانجليز والأمريكان يعنى اضطرار مصر لإجراء مفاوضات سنوية عن التمويل مما يتيح لهم استخدام هذه العملية لممارسة ضغط على الجمهورية الجديدة الشابة .

أصبح معروفا أيضا أن أمريكا ربطت مساعدتها هذه بالعديد من الاشتراطات والطلبات . أولا يجب على مصر أن تعلن أنها لن تبرم أية صفقات سلاح جديدة من دول أوربا الشرقية . علاوة على ذلك يتعين على عبد الناصر أن يلعب دوره فى منطقة الشرق الأوسط ليضمن سلام إسرائيل .

وأصبح واضحاً أن المباحثات مع أمريكا قد وصلت إلى طريق مسدود وسرعان ما تأكد ذلك فعلا بسحب أمريكا قرارها السابق ورفضها تمويل بناء السد .

علم عبد الناصر بذلك وهو فى الطائرة عائدا من يوغسلافيا فى طريقه إلى القاهرة . وكان معه على نفس الطائرة نهرو وما أن علم ببيان الحكومة الأمريكية اقترب من وزير الخارجية المصرى د . محمود فوزى وقال « هذا ليس مجرد رفض . أنها ضربة مقنعة للنظام الجديد . اتخذت لتحطيم نفسية الشعب المصرى بغرض إسقاط النظام » . وهبطت الطائرة بمطار القاهرة فى الصباح المبكر .

فى نفس الوقت اضطر نهرو إلى قطع زيارته ليفسح المجال لمواجهة الأحداث الجسام .

* * *

لم يستطع ناصر بأى حال من الأحوال نسيان حديثه مع

سلوين لويد ، فى واقع الأمر ، لماذا لا تمارس مصر حقوقها فى السيادة على أرضها وتحصل على الأموال اللازمة لبناء سد أسوان العالى من رسوم مرور البواخر بقناة السويس ؟ لماذا يجب على المصريين أن يقتسموا أموالهم مع الأجانب ؟

اختار ناصر مسبقا الأشخاص الذين يستطيعون تنفيذ هذه العملية ذات المسئوليات الجسام الخاصة بتأميم القناة . كان بين هؤلاء المهندس محمود يونس ، دكتور مصطفى الحفناوى وآخرون ، تولى ناصر تعريفهم بالخطة وأعطى لكل منهم واجبات محددة .

أعد الحفناوى على سبيل المثال قانون التأميم .

فى عام ١٩٦٨ ينتهى امتياز الاستغلال و « الشركة العامة لقناة السويس البحرية » التى تمتلك أغلب أسهمها حكومة بريطانيا العظمى وأصحاب المصالح الفرنسية الذين اعتزموا مد فترة الامتياز .

اجتهد ناصر أن يتوقع ماذا يمكن أن يحدث بعد أن يعلن تأميم القناة . ليلة كاملة فى دراسة الموضوع . فى الصباح انتهى من إعداد الخطة التى أطلق عليها اسم — « لو كنت مكان إيدن » .

« يجب أن ينفعل إيدن فى عصبية — كتب ناصر فى هذه الخطة ، متذكرا مقابلته معه فى القاهرة — فى نفس الوقت ، عندما يشعر

بضعف موقفه ، وربما يحاول اللجوء إلى استخدام القوة . لكن لن يستطيع تحقيق احتلال مصر بالكامل .

لكن أى أنواع القوة يمكن أن توجهها انجلترا إلى مصر ؟ .

ربما يحاول إيدن إشراك فرنسا فى المؤامرة . ومن الجائز أن تظهر فرنسا بالذات حماسها . ستبارك الولايات المتحدة هذا العمل لكن فى صمت . لكن لم يتول أحد استنتاج تأثير ذلك على إنتخابات الرئاسة الأمريكية . إمكانيات المهاجم ضئيلة . سيلعب الروس دوراً حاسماً . ما الذى يمكن أن يقرره المهاجم أيضا ؟ الهجوم على الأسكندرية من لبنان . لتحقيق ذلك يحتاجون لقوى ضخمة لأنه فى هذه الحالة سيكونون محتاجين للذهاب إلى القاهرة . تضرب الأسكندرية من البحر كما فعل ذلك الادميرال سيمور فى عام ١٨٨١ ، هل يمكن أن يفعلوا ذلك . هذا غير مناسب — سيكون رد فعل الرأى العام العالمى خطراً . هل أيضا من المحتمل إنزال جنود بهدف احتلال القناة . هذا يعنى من الضرورى تقوية القوات المرابطة على ضفتى القناة . حتى لو حدث فى سبيل ذلك تجريد سيناء . . » .

هذا يعنى أن ناصراً بالرغم من الهجوم على غزة اعتقد أن إيدن لن يوافق على إشراك إسرائيل فى هذه العملية .

واستمر عبد الناصر .

« التدخل الفورى فى منتهى الخطورة . أنسب وقت هو بداية أغسطس . مع مرور كل أسبوع ستتناقص فرص إيدن فى النجاح . نبذل مجهوداً سياسياً . الأسبوع الثانى من أغسطس ـ الخطورة ٦٠٪ ـ الأسبوع الثالث ٥٠٪ والرابع ـ ٤٠٪ « نهاية سبتمبر ـ ٢٠٪ .. » :

تعطينا هذه الوثيقة إمكانية التعرف على أسلوب ناصر فى العمل وتقنع بصحة تصوراته .

كل شىء معمول حسابه ، وانتظر ناصر فى صبر الأحداث التالية . فى ٢٣ يوليو ١٩٥٦ حضر ناصر افتتاح محطة تكرير بترول بطريق القاهرة — السويس . أراد ناصر انتهاز هذه المناسبة لكى يعلن تأميم قناة السويس . لكن كان هناك حاجة لمراجعة بعض التفاصيل . اضطر لتأجيل هذا القرار الهام . على أية حال خطب ناصر بحسم : « موتوا بغيظكم — هذه الكلمات الموجهة للولايات المتحدة دوت فى كل أنحاء العالم — ستبنى مصر السد حتى لو اضطررنا إلى نبش الجرانيت بأظافرنا » .

بينما كان يستمع عبد الناصر إلى الكلمة الدقيقة لمحمود يونس الذى قاد بناء محطة تكرير البترول . قرر تكليفه برئاسة لجنة التأميم .. بعد انتهاء المراسيم قابل محمود يونس .

فى هذا الليل جمعوا لعبد الناصر معلومات عن الجيوش الانجليزية المتواجدة فى البحر الأبيض . بدا أن الانجليز لن يقدروا على البدء بالهجوم فوراً حيث أنهم كانوا فى حاجة إلى شهرين على الأقل لتجميع قواتهم .

أمر عبد الناصر محمود يونس السفر فوراً إلى الإسماعيلية حيث توجد إدارة شركة قناة السويس ويسمع خطابه من الراديو يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ الذى سيلقيه فى الأسكندرية .

اتفقا على أنه بمجرد أن ينطق ناصر كلمة « ديلسبس » ، يقوم يونس بتنفيذ الخطة فوراً . إذا لم تذكر كلمة ديلسبس فى الخطاب ، فعلى محمود يونس انتظار أوامر جديدة . أعد محمود يونس كشفاً بأسماء المهندسين المدنيين والعسكريين الذين سيتولون معه تنفيذ العملية . تسلم كل واحد منهم ظرفاً فيه خطة عمله مختوماً بالشمع الأحمر .

قبل إلقاء الخطاب ، جمع ناصر الوزراء فى الأسكندرية . ولمدة ساعتين — قبل إلقاء الخطاب — لخص للحكومة خطة تأميم القناة . أبدى البعض تخوفه . أعلن ناصر أنه يتحمل مسئولية هذا العمل . انتهى الاجتماع بدون اتخاذ أى قرار رسمى — أعلن ذلك هيكل .

* * *

لم يستطع جمال أن يعد خطابه . فقط أثناء انعقاد مجلس الوزراء

كتب على الظرف بعض النقاط . لم يتمكن ناصر من التفكير فيها وهو فى طريقه إلى المؤتمر الشعبى حيث أنه ذهب إليه واقفاً فى سيارته لتحية الجماهير المحتشدة على جانبى الطريق .

وبالرغم من هذا كان الخطاب من أقوى خطبه وأكثرها عنفا

ولكى لا يفوت محمود يونس سماع الإشارة المتفق عليها ، كرر ناصر عدة مرات كلمة « ديلسبس »[1] .

لتنفيذ العملية كون يونس أربع مجموعات . واحدة بقيت فى القاهرة ، الثانية ذهبت إلى بورسعيد ، الثالثة فى السويس . سافر يونس مع المجموعة الأساسية إلى الاسماعيلية .

فى اللحظة التى كان يلقى ناصر خطابه كان يونس جالساً فى سيارته . عندما سمع كلمة « ديليسبس » توجه فوراً إلى مدير شركة قناة السويس .

منذ إنشاء شركة قناة السويس العالمية للملاحة وهى تعتبر دولة داخل الدولة . لها علمها وشفرتها . يمكن أن يحلم المصريون بأنهم فى عام ١٩٦٨ يستطيعون فقط تحسين شروط عقد الامتياز ، الآن أصبحوا أصحاب القناة .

كان قرار عبد الناصر تأميم القناة والنغمة التى أعلن بها مفاجأة كاملة لإيدن الذى أقام فى مساء ٢٦ يوليو حفلة عشاء تكريما للملك فيصل ملك العراق الذى كان يزور لندن، كان نورى السعيد حاضراً حفل العشاء وكذا الكثير من الشخصيات السياسية الانجليزية. حكى نورى السعيد فيما بعد عما حدث فى هذا العشاء.

قبل تأميم القناة بعدة ساعات عبر، المحافظون، أعضاء مايسمى « بلجنة عام ١٩٢٢ » والجالسون عادة على أرائك البرلمان الخلفية والناقدون مراراً لسياسة الحكومة العمالية، عن شكرهم لإيدن على « الفن، الذى عامل به هذا الوفد الصعب ».

بمهارة عالية انحرف إيدن بالمناقشة إلى موضوع مدى ردود فعل جمال عبد الناصر بعد سحب الانجليز والأمريكان تمويل بناء سد أسوان. اعتقد إيدن أن ناصرا الآن محصور فى الزاوية.

سمع الملك فيصل باهتمام، كيف يناقش الساسة الانجليز عن زعيم مصر، كان إيدن مقتنعا تماما بأن ناصر اطرح أرضا. وبحثوا عمن سيحل مكانه فى قيادة مصر.

قارب العشاء على النهاية عندما تسلم إيدن من أحد السكرتارية ورقة. بمجرد أن قرأها، اكتسى وجهه بحمرة بالغة. أعلن للضيوف عن قرار ناصر، وفقد تحكمه فى نفسه تماما.

صاح رئيس الوزراء الانجليزى قاذفا الورقة .

— من أعطى له هذا الحق !

— كيف بالله عليكم يكون التصرف ؟ — سأل إيدن ملتفتاً إلى نورى السعيد .

صرخ « المستشار » العراقى بحرارة .

— أمامكم طريق واحد فقط ! هناك حاجة لتوجيه ضربة سريعة بقدر الإمكان .

نظر إيدن إليه شاكراً ، كم يفهمه حلفاءه جيداً . لقد تكلم اليوم صباحا فقط فى اجتماع مجلس الوزراء عن ضرورة التصرف ضد ناصر بحزم .

فى الحقيقة الإسراع كيف ؟ نسحب المرشدين الأجانب من مصر ولن يستطيع العرب إدارة العمل بالقناة ، كان إيدن مقتنعا تماما بهذا . وهذا يعنى أن آمال عبد الناصر لن تتحقق . وحينئذ يظهر وضع مثالى للتدخل . لكن بسرعة علم إيدن باستغراب أن ناصر اقترح على المرشدين الأجانب أن يبقوا فى عملهم .

من وجهة نظر القانون الدولى لم يخرق عبد الناصر القوانين . القناة تمر فى الأراضى المصرية . فى الواقع الدولى هناك سوابق عديدة أممت فيها بعض الدول ملكيات خاصة متواجدة على أراضيها

الوثيقة الوحيدة التي يمكن للدول الرأسمالية استخدامها ضد مصر هي معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ . وفقاً لهذه الوثيقة يجب أن تبقى القناة حرة ومفتوحة للسفن التجارية والحربية التابعة لكل الدول في وقت السلم والحرب . لكن شركة قناة السويس لم تتحمل مسئولية حرية الملاحة إطلاقا . لقد ضمنتها الحكومة المصرية .

على أي حال أعلن الانجليز والفرنسيون المحنكون بما فيه الكفاية ، أن الإدارة المصرية غير مدربة على إدارة واستغلال القناة .

عقد إيدن فوراً العديد من الاجتماعات . نصحه نوري السعيد على ما يبدو باتخاذ رد فعل سريع .

قال نوري :

— إذا تركته بدون عقاب ، سيقلب علينا الجميع . (بعد سنتين تقريباً قتل نوري السعيد . بعد أن قامت ثورة في العراق) .

قرر إيدن البدء في الهجوم : الجانب القانوني لم يعد موضوع ذا أهمية الآن ، إلا أنه من جهة أخرى ذكر العسكريون إيدن بأنه يوجد في مصر الآن أسلحة جديدة سوفيتية الصنع . وظهر أيضا أنه في حالة توقف الملاحة بقناة السويس ستصبح لندن بلا وقود حيث أن احتياطي الوقود المخزون يكفي ثلاثة أسابيع فقط

فى ذلك الوقت طلبت مصر مساعدة الدول الصديقة وتطوع مرشدون من الدول الاشتراكية للعمـــل مكان الأجانب الذين رفضوا التعاون مع الإدارة المصرية . لم تنفذ جميع شروط إتفاقية القسطنطينية حول عبور السفن خلال قنـاة السويس بالـكامل .

أخذ وضع إيدن يضعف يوما بعد يوم . وإزداد الضغط على أعصابه أيضاً . لاحظت المخابرات الأمريكية أيضاً أن إيدن بعد التأميم أصبح هزيلا وبدأت تظهر عليه علامات عدم التوازن .

لـكن خطط إيدن الهجومية كانت مدعومة . فى اليوم التالى لإعلان تأميم القناة ، عندما أخبر رئيس الوزراء الإنجليزى رئيس الولايات المتحدة إيزنهاور عن عزم إنجلترا اللجوء إلى القوة ، وصل إلى لندن أحد المقربين لبن جوريون — شيمون بيريز . ثم طار من لندن إلى باريس . رتب له عميله جوزيف ناخمياس العديد من اللقاءات الهامة فى العاصمة الفرنسية . شرح بيريز لوزير الدفاع الفرنسى وضع إسرائيل واضعاً كل خدماته لتدبير هجوم على مصر فى باريس ولندن باركوا هذا الاقتراح بتهليل كبير . بدأت المحادثات المحددة . اقترحت إسرائيل احتلال قناة السويس. إتجهت إنجلترا وفرنسا إلى إرسال حملة عسكرية . أعطى بن جوريون أمراً

باستدعاء الجيش الإسرائيلى . كان قائد العملية موشى ديان الذى اضطلع بالسفر إلى باريس فى تلك الأيام عدة مرات . أظهر الفرنسيون عدم رضائهم بخصوص حلفائهم الإنجليز المترددين ، لقد جعلتهم النهاية الذليلة لإحتلال مصر أكثر حذراً فى الدخول فى المغامرة الجديدة شجع ديان الإنجليز والفرنسيين وقدم لهم جداول بالأسلحة الجديدة التى تطلبها إسرائيل من حلفائها الأوربيين . وهؤلاء لم يبخلوا بالوسائل معتقدين أنه كلما كثرت الأسلحة التى يعطوها لإسرائيل ، كلما أسرع ديان النشيط — الذى قيم نشاطه جيداً — بإبداء بالتدخل .

فى ذلك الوقت زادت إنجلترا وفرنسا من حصارها الاقتصادى على مصر ، لجمـــدوا الأرصدة المصرية فى البنوك الإنجليزية والفرنسية . واقترح اخفاء أساطيل هذه الدول فى موانى مالطة وقبرص . فى تلك الأيام سافر دالاس إلى لندن واجتمع بإيدن . فى خلال مباحثاتهم اعترفوا بفائدة الدعوة لعقد اجتماع فى لندن لمندوبى الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ وكذلك أيضاً بلاد المنتفعين بالملاحة بقناة السويس .

بدأ المؤتمر أعماله فى ١٦ أغسطس . لم يحضر الافتتاح مندوبو كل من اليونان وقبرص . كما لم يحضر وفد مصرى إلى المؤتمر .

فى البداية أراد عبد الناصر رئاسة الوفد المصرى ، على أية

حال — إلا أن رئيس وزراء إنجلترا وجه فى التليفزيون حديثاً مهيناً لرئيس مصر .

« عبد الناصر — عدو — أعلن ذلك إيدن قاذفاً بورقة فى وجـــه عدسات التليفزيون — ها هو كتاب عبد الناصر الأسود . . . . »

وكان هذا سبباً لإلغاء السفر ، لم ترسل مصر وفداً وبهذا الشكل نفضت يدها من القرارات التى يمكن أن يتخذها المؤتمر . فى وقت انعقاد جلساته تغلب الإتجاه المضاد لمصر . ولكن لم يلغ هذا انطلاق أصوات فى المؤتمر تدافع عن مصر ، فقد ساندت وفود كل من الاتحاد السوفيتى والهند وإندونيسيا وسيلان بحزم الشعب المصرى فى نضاله ورفضت التوقيع على القرار الذى يقضى بتكوين لجنة دولية لإدارة القناة .

أرسلوا وفداً إلى مصر لشرح قرارات المؤتمر . طلب إيدن أن يرأس هذا الوفد ، لكن أغلبية المشتركين بالمؤتمر وافقوا على رئاسة رئيس وزراء استراليا منزيس للوفد . عدا ذلك وصل إلى القاهرة مندوبو إيران وأثيوبيا والولايات المتحدة والسويد .

فى اليوم التالى للوصول أصبح لدى الوفد إمكانية إجراء نقاش مع ناصر . فى الخامس من سبتمبر فى فندق « المنيل » قصر الأمير

محمد على السابق — عم الملك المخلوع فاروق ، أقام عبدالناصر حفلة عشاء تكريماً للوفد .

فى ٦ سبتمبر تقابل الوفد للمرة الثالثة مع عبد الناصر . فى هذه المرة ضغط منزيس بكل قوته لكى يوافق ناصر على الإدارة الدولية لقناة السويس .

لكن ناصر نحى الاقتراح جانباً . رأى ناصر أنه فى هذه الحالة ستفقد مصر لمدة أخرى تحكمها فى القناة .

حاول منزيس إقناع ناصر بأن وجود إدارة دولية سوف يحل أى مشكلة تظهر .

أجاب ناصر :

— أنت تعتقد أن هذا يضع نهاية لكل المشاكل وأنا أحتفظ بوجهة نظر مضادة .

— إعتقد منزيس .

— لا يا فخامة الرئيس ؛ عدم الرغبة فى تفويض إدارة دولية لإدارة القناة سيؤدى إلى المتاعب .

خبط ناصر بحزم الوثائق المعدة للمحادثات على الملف وقال :

— على ما يبدو ، أنت تهددنى ، حسنا . المحادثات انتهت .

تدخل وزير خارجية أثيوبيا . قال لناصر إن منزيس زل فى

الحديث وأنه لم يفكر فى تهديد أحد ، وهكذا أيضا قال مندوب السويد .

— همهم منزيس مرتبكا :

— أرجو المعذرة أنا لا أملك هذا .

لكن ناصر يعرف ماذا يفعل .

— إذا قلت أن رفض قرار المؤتمر يؤدى إلى مصاعب ، فهذا أكبر تهديد . وأنا لا أوافق على الاستمرار فى مباحثات تحت الضغط :

فى الخامس من أكتوبر انتقلت مشكلة قناة السويس إلى مجلس الأمن الدولى لمناقشتها . واستمر النقاش ٩ أيام . أكدت هيئة الأمم المتحدة على حرية الملاحة بقناة السويس وأظهرت احترامها لسيادة مصر ودعت إلى عدم الوصاية على « سياسة الدول المختلفة » . ويجب أن تتحدد الرسوم على أساس اتفاق مصر مع البلاد المنتفعة بالقناة وجزء منها ينفق على القناة . كان تقييم ناصر للقرارات التى اتخذت فى مجلس الأمن إيجابياً حيث أنهم من وجهة نظر الرئيس المصرى ، يبعدون شبح التهديد العسكرى . ولتطبيق هذه القرارات اقترحت الأمم المتحدة عقد اجتماع بين وزراء خارجية مصر وفرنسا وانجلترا .

اقترحوا عقد الاجتماع فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بجنيف ، لكن الاجتماع لم يتم . وصل من قبرص ومالطة إلى مصر ما يشير إلى تمركز القوات الإنجليزية ، حكى قبطانو السفن العابرة لقناة السويس عن ظهور سفن حربية انجليزية ، أعطى ناصر أوامره بتركيز القوات المنسحبة من سيناء فى الدلتا وعلى شاطىء القناة .

على ما يبدو مع نهاية شهر أكتوبر وصل بن جوريون وديان وأجروا المباحثات السرية الأخيرة مع جى موليه وجنرالات فرنسا. فى اليوم التالى انضم إليهم سلوين لويد .

كان الانجليز والفرنسيون مقتنعين أن الولايات المتحدة ستؤيد العدوان . أما عن موقف الاتحاد السوفيتى فلم يكن معروفاً لديهم . أعلن بن جوريون أن « لا داعى للقلق من هذا الحساب » . واعتقد أن الثورة المضادة فى المجر لن تسمح للاتحاد السوفيتى بالتدخل فى أحداث الشرق الأوسط بنشاط .

خلال يومين بعد عودة ديان وبن جوريون إلى إسرائيل عبرت القوات الإسرائيلية حدود مصر وبدأت تتحرك بسرعة فى اتجاه شرم الشيخ .

* * *

فى هذا اليوم كانت أسرة ناصر تحتفل بعيد ميلاد إبنه . ودعى

أصدقاء الصغير عبد الحميد . وعلى غير المتوقع بينما يستمع عبد الناصر إلى حوار الصبية الصغار ، حملوا إليه نص الأمر الذى التقطه جنود الإشارة المصريون الصادر لفرق القوات الإسرائيلية المدرعة بسيناء

كان الجزء الأساسى لفرق القوات المسلحة المصرية موجوداً على ضفتى القناة وقرر جمال أن من الضرورى على القوات أن تحتشد بالقرب من المراكز الحيوية الهامة فى البلاد .

فى نفس الوقت تم إسقاط طائرة إسرائيلية فى الأردن وعثر فيها على وثائق عسكرية سرية هامة لهيئة أركان حرب القوات الإسرائيلية موجودة فى حقيبة الجندى الذى لقى مصرعه . لقد استعد الإسرائيليون للإستيلاء على سيناء وقناة السويس . تحركت فى المساء فرقة مصرية لقطع الطريق على العدو وفى صباح يوم ٣٠ من أكتوبر ١٩٥٦ وصلت الوحدات المصرية إلى نقط الاشتباك مع العدو ودارت معارك قوية على أرض أبو عجيلة حيث اعترض لواء مدرع إسرائيلى عند مفترق الطرق فرقتين مشاه مصريتين . حاولت القوات الإسرائيلية خلال عدة ليال الاستيلاء على القرية .

فقد الإسرائيليون ما يقرب من أربعين دبابة وثمانى طائرات فى المعارك التى كان من نتيجتها ظهور تفوق التكنيك الحربى للجيش المصرى . وأظهر الجنود المصريون بسالة فائقة .

وعلى الصعيد العالمى تطورت الأحداث بشكل أكثر اندفاعاً ..

فى اليوم التالى لبداية الهجوم الإسرائيلى استدعت، وزارة الخارجية فى كل من باريس ولندن سفراء، مصر وإسرائيل فى بلديهما فى وقت واحد. وتم إبلاغ السفيرين بإنذار حكومتى انجلترا وفرنسا ينص على إيقاف العمليات العسكرية فوراً وأن تقف القوات المصرية والإسرائيلية على بعد عشرة أميال على جانبى القناة. وعلى مصر أن تقبل طواعية « الاحتلال المؤقت » للقوات الإنجليزية والفرنسية للمواقع الهامة فى منطقة بور سعيد والاسماعيلية والسويس ، وأكد الإنذار أنه فى حالة رفض أى من الجانبين أو كلاهما قبول هذه الطلبات فستقوم القوات الإنجليزية والفرنسية بتنفيذ ما يقع على عاتقهما من مسئوليات .

رفضت الحكومة المصرية الإنذار ، أما إسرائيل فكما هو متوقع مسبقاً وافقت على الإمتثال لطلبات كل من إنجلترا وفرنسا .

فى هذا الوقت كانت القوات الإسرائيلية قد وصلت على بعد ٤٠ ميلا من شاطىء القناة. وفى حقيقة الأمر أتاح الإنذار لهم إمكانية التقدم .

وفى نفس ذلك اليوم طلب عبد الناصر السفير الانجليزى تريفليان مساءاً .

— لقد تسلمنا اليوم إنذاركم .

وشعر السفير بالارتباك وقال محاولا تخفيف حدة الموقف :

— هذ ليس بإنذار .

أكد عبد الناصر من جديد :

— إننا فهمنا هذه الوثيقة على أنها إنذار .. وسلمه رد الحكومة المصرية المكتوب ، معلنا أن انجلترا أو فرنسا عقدتا العزم على بدء الهجوم على مصر .

ومرة أخرى بدأ السفير يتكلم قائلا :

— وفقاً للنص الموجود عندى هدف التدخل وقف العمليات العسكرية والدفاع عن قناة السويس . .

وقاطعه عبد الناصر .

نحن قادرون على الدفاع عن قناة السويس ، وفى الأيام المقبلة ستكون مضطرين للدفاع عنها ليس ضد الإسرائيلين وحدهم .

ولم يبق للسيد همفرى تريفليان إلا أن يطلب من ناصر الحفاظ على الرعايا البريطانيين وممتلكاتهم .

وفى اليوم التالى بدأت الطائرات الإنجليزية والفرنسية تقصف القواعد العسكرية والجوية المصرية .

وهاجت الصحافة الغربية على ناصر ، وقارنوا بينه وبين هتلر وموسولينى ووصفوه بالمعادى للسامية وبالفاشى وطالبت الاذاعة البريطانية بقبرص المصريين علانية بإسقاط عبد الناصر .

خرج عبد الناصر إثر سماعه أزيز القاذفات والمقاتلات ليرى ما الذى يجرى فى العاصمة . حيى القاهريون ناصر عندما تعرفوا على سيارة الرئيس . فهم ناصر أنه يمكنه الاعتماد على تأييد الشعب .

أصيبت أبراج الإرسال نتيجة للقذف الجوى وتوقفت إذاعة القاهرة عن العمل ، إتجه ناصر إلى الأزهر وهناك أمام مئات الألوف من المصريين المحتشدين فى الميدان وفى المسجد ألقى عبد الناصر خطاباً . وكان يرن فى آذانه صدى هتافات الجماهير الحماسية تظهر رغبتهم فى الذهاب إلى أرض المعركة . عندما عاد إلى مكتبه علم بأن هناك مجموعة من السياسيين السابقين ورجال الصناعة يطالبون تحديد موعد للمقابلة لكى يقنعوه بالموافقة على الشروط الإنجليزية الفرنسية .

— أعلن ناصر :

— كل من يأتى إلى الحديث عن الاستسلام سيضرب بالنار عند مدخل بوابة القصر الجمهورى .

تم توزيع السـلاح فى كل المدن . كان العمال المسلحون بالرشاشات يعملون نهاراً على الماكينات وفى المصانع وليلا ينتظمون فى صفوف الدفاع الشعبى وقام ضباط الجيش بتدريب الفدائيين فى الميادين والساحات الشعبيـة مباشرة على الأعمال العسكرية .

اختار عبد الناصر مقر مجلس قيادة الثورة السابق ليقود منه المعركة ، كانت مسئولية مستقبل المصريين فى ظروف قاسـية وصعبة ملقاة على كتفيه . وفى هذه الأيام كان عبد الناصر ينام من من ساعتين إلى ثلاث ساعات فقط فى اليوم . .

كان يقول عادة — أيقظونى عندما يكون هناك قصف جوى . ثم يرقد على سرير معدنى صغير موضوع فى غرفة مكتبه .

ذات مرة قرر ناصر بعد ليلة لم ينم فيها التوجه إلى الجبهة . ولم يستطيعوا إقناعه أن يبقى فى القاهرة بالرغم من قولهم له أن طيران العدو متحكم فى الطريق، وترك القاهرة يوم ٥ نوفمبر . وفى الطريق باغته خبر مزعج : تقوم الطائرات الأنجلوفرنسية بإسقاط مظليين على بور سعيد وبور فؤاد . وتشير أعدادهم عن بداية عملية ضخمة. فاضطر للرجوع إلى القاهرة .

صدر أمر للقوات المصرية الصامدة أمام الهجوم الإسرائيلى فى

سيناء بالانسحاب إلى منطقة القناة ، استمرت فقط القوات المحاصرة من جميع الجهات فى منطقة أبو عجيلة فى المقاومة والصمود . وفى النهاية استطاعت فك الحصار بسرعة . وتحركت إلى منطقة القناة. وفى آخر الأمر استطاعت القوات الاسرائيلية احتلال شرم الشيخ . فقدت مصر موقعاً استراتيجياً هاماً ، لكنها حافظت على الجيش . على أى حال كانت الإمكانيات محدودة .

سيطر طيران العدو جواً لأن مصر لا تمتلك العدد الكافى من الطيارين المهرة . . على الرغم من ذلك أبلى الطيارون المصريون بلاءاً حسناً . ذات مرة أثناء عودة ثلاث طائرات مصرية إلى قاعدتهم بعد انتهاء إحدى المهمات القتالية دخلوا معركة جوية مع الطائرات الاسرائيلية فوق مطار كبريت ، أسقطت طائرة اسرائيلية ولاذ الباقى بالفرار .

هناك حقائق أخرى كثيرة عن بطولة وشجاعة المصريين . فقد خرجت مدمرة مصرية فى داورية أمام حيفا وأغرقت ثلاث زوارق طوربيد وأسكتت مدفعية الشاطىء .

بعد ذلك توجهت المدمرة شمالا وهوجمت بمدمرتين اسرائيليتين وذهبت لمساعدتهما سفن حربية إسرائيلية أخرى مدعمة بالطائرات الإسرائيلية . لكن استمرت المدمرة المصرية فى المقاومة . واشتعلت النيران فى إحدى المدمرات الإسرائيلية ، وعلى أى حال

أصابت إحدى الدانات مدخنة المدمرة المصرية . وعلى الرغم من اشتعال النيران استمرت فى إطلاق النيران حتى الطلقة الأخيرة .

* * *

قبل إسقاط المظليين على بور سعيد قام الطيران الأنجلوفرنسى بقصف المدينة قصفاً وحشياً بربرياً — نسفت العديد من المنازل السكنية . وظهر احتمال احتلال المدينة — أعطت السلطات المحلية أوامرها بترحيل النساء والأطفال إلى دمياط والمطرية .

فى يوم ٦ نوفمبر ، أى فى اليوم التالى بعد إسقاط المظليين ، قام طيران العدو بعدة جولات فوق المدينة . على أثر ذلك دخلت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية الميناء وقصفوا المربعات السكنية من البحر .

وصرح ناصر قائلا : إن التشكيل بالمدينة قد بدأ . وتحول استاد المدينة إلى معتقل كبير ، ووضعوا فيه كل من التقطوه من الشارع بلا تمييز ، نهب الجنود الإنجليز ليلا بيوت المواطنين المسالمين ، ولم يحاول أحد إطفاء الحرائق المشتعلة فى المدينة وسرعان ما تعطلت أنابيب المياه .

عندما احتل الجيش الإنجليزى مدينة بورسعيد ، أعطى

عبد الناصر أمراً للقوات المصرية بالانسحاب بدون معركة . هذه المدينة المحصورة بين القناة والبحر والمستنقعات لا تصلح لمعارك الدبابات ، لكن تنظيمات الجيش الشعبي والمقاومة الشعبية والإدارة المصرية برئاسة المحافظ محمد رياض بقيت فى المدينة . بدأ يفكر ناصر فى كيفية تنظيم مقاومة عنيفة للمحتلين .

تم ترتيب اتصال برياض وأمدوه بالوسائل ، وأرسلت إلى بورسعيد أسلحة لتكوين مجموعات المقاومة السرية .

بدأ الفدائيون نشاطهم العسكرى منذ أول يوم احتلت فيه المدينة . وفى نفس اللحظة التى خرج فيها الجيش الإنجليزى إلى المدينة فتحت مجموعة مصرية النيران على مجموعة من جنود العدو ، فاشتعلت النيران تحت أقدام الغزاة .

هاجم الفدائيون الجنود الإنجليز والفرنسيين القائمين بالخدمة الدورية ، ونسفوا الآلات ، واستطاع الفدائيون نسف العديد من الطائرات الحربية الراقدة فى المطار الحربى بالرغم من حراسات العدو المشددة عليه .

قاد عبد الناصر هجوماً دبلوماسياً نشيطاً سانده فيه الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى والدول العربية ودول آسيا وإفريقيا النامية حتى صدر قرار الأمم المتحدة يوم أول نوفمبر

بأغلبية ٦٤ صوتاً ينص على أن إسرائيل مذنبة لخرقها لاتفاقية الهدنة . وأعلن أن إنجلترا وفرنسا معتديتان وطالب مجلس الأمن بوقف الاشتباكات العسكرية فوراً وانسحاب القوات المعتدية من الأراضى التى احتلتها . وبذلك أحرز ناصر مرة أخرى نصراً بالطرق السياسية .

بعد عدة ليال وافق مجلس الأمن على طلب عبد الناصر إرسال قوات طوارىء دولية تابعة للأمم المتحدة إلى مصر . وتأخر وصولهم بعض الوقت . فاستغل المعتدون هذا التأخير ، وتعرضت كل من القاهرة والإسكندرية لقصف جوى جديد .

فى هذا الوقت العصيب على مصر ، أصدر الاتحاد السوفيتى إعلاناً أدان فيه تدخل الغزاة الأمبرياليين . وفى اليوم التالى سارت فى بورسعيد مظاهرة شعبية لم يكن فى استطاعة المحتلين مواجهتها .

نسف الفدائيون فى سوريا والمملكة العربية السعودية خطوط أنابيب البترول تضامناً مع الشعب المصرى .

أصدرت الأمم المتحدة فى ٧ نوفمبر وثيقة جديدة عبرت فيها عن طلبها وقف الهجوم . بدأت تصل إلى مصر قوات الطوارىء الدولية . التابعة للأمم المتحدة . أظهرت دول عدم الإنحياز تضامنها مع مصر . وعلى سبيل المثال أعلنت الهند عن عزمها على

الانسحاب من منظمة الكومنولث البريطانى احتجاجاً على السياسة الإنجليزية .

« إمكانية إرسال متطوعين من بلاد الكتلة السوفيتية قائمة مما يمكن أن يشكل خطورة كبرى » .

هكذا كتب الصحفى الإنجليزى روبرت ستيفنس — كان هذا ضمن الأسباب التى حدت بالإسراع فى إرسال قوات الأمم المتحدة . ومارس الأمريكيون ضغطاً على إنجلترا وفرنسا وإسرائيل لكى يسحبوا جيوشهم .

انسحب الغزاة . دخل الجيش المصرى بورسعيد ، أقيم استعراض عسكرى يوم ٢٣ ديسمبر بهذه المناسبة اشترك فيه الفدائيون وأعضاء المقاومة السرية .

وعلى أى حال بدأت القوات الإسرائيلية فى ٣١ ديسمبر فقط الانسحاب تدريجياً من سيناء حتى ٢٢ يناير سنة ١٩٥٧ كانوا يشغلون منطقة صغيرة بجوار رفح — شريط ضيق بعرض ٢٥ كيلو متراً بطول خليج العقبة وغزة . انسحب الإسرائيليون من غزة فى مارس فقط . وعند انسحابهم من سيناء نسفوا الطرق وخطوط التليفونات ونهبوا ممتلكات الأهالى .

وهكذا انتصر الشعب المصرى وغادر الإنجليز والفرنسيون

مدينة بورسعيد ، وانسحبت القوات الإمبراطلية إلى حدود المدنة . وأصبح المصريون يتحكمون ، ليس فقط فى قناتهم ، بل صادروا مخازن شركة قناة السويس السابقة . ووضعت الممتلكات الفرنسية والإنجليزية فى مصر تحت الحراسة . وسقط آخر حصن إمبريالى على أرض مصر .

٦

إن كل التماثيل والآثار ، ومن بينها أبا الهول العريق ، الشاهد على الكثير من الأحداث الجسام لا تستطيع أن تكشف لنا عن العجائب الكثيرة ، كما يكشفها المصرى البسيط — الذى شاهد ثورة ١٩٥٢ . والتى على أثرها تحقق الكثير من الآمال العريقة للشعب المصرى .

فمصر سميت دائماً بعروس النيل تدليلا لها واعتزازاً ، هذه العروس لم تستطع الوقوف على قدميها خلال سنوات طويلة ، ونامت البلاد فى سبات عميق . ومرت عليها القرون وهى لا تفيق من سباتها . ثم جاء الوقت الذى بدأت العروس تخطو أولى خطواتها. وكتب الثوار أكثر الفصول أهمية فى تاريخ مصر . بدت على طول وادى النيل ركائز أعمدة خطوط الضغط العالى لسد أسوان . بدأت الأسلاك تمتد . ولن يمر وقت طويل وتغمر مصر كلها بنور الكهرباء .

تداخلت جنباً إلى جنب ، مداخن المصانع ، ومبانى وأقسام الورش ، مع الريف المصرى ، ظهرت الأراضى الخضراء وسط

الرمال ، أنشئت مدن جديدة ، كان لزاماً وضع الخرائط الجغرافية القديمة فى الأرشيف ، وهى التى كانت من مدة قليلة تصور الحقيقة الواقعة . هذه هى بعض المظاهر الخارجية والأقل وضوحاً للتغيرات التى حدثت فى المجتمع .

كان جمال هو روح هذه التغيرات ، وهى تغيرات لا تفخر بها مصر وحدها ، بل والعالم العربى كله .

كان جمال يعلم أنه بعد إنهاء العدوان الثلاثى لن يترك الامبرياليون مصرفى حالها . ولم يشك فى أنهم لن يكفوا عن محاربة حركة التحرر الوطنى ، والنظم الثورية فى الدول العربية . وأعطوا الصهيونية الدور الأول والرئيسى فى هذا المجال .

ما كادت تنتهى عمليات انسحاب القوات المعتدية — حتى وصل إلى القاهرة الصحفى الهندى المعروف ورئيس تحرير صحيفة «بليتس» كاراندجيا . استقبله ناصر فى بيته . وكان كاراندجيا قد زار من فترة قصيرة العراق . وتمكن هناك عن طريق ضابط انجليزى من الحصول على خطة لحرب وقائية وضعتها هيئة الأركان الإسرائيلية .

وكان الرئيس يتعرف يومياً على أكثر الأحداث أهمية .. فكان يدون ملاحظاته فى مفكرة . أو يعطى تعليماته لمساعديه . أما المعلومات التى حصل عليها الصحفى الهندى فقد وضع أسفلها خطين .

اتضح من هذه الوثائق أن إسرائيل (تعد لعدوانها على مصر والبلاد العربية الأخرى) من فترة طويلة قبل سنة ١٩٥٦ . وكشفت هذه الوثائق الخطة الاستراتيجية والتكتيكية لهيئة الأركان الإسرائيلية .

وبعدها وفى فبراير سنة ١٩٦٠ أعلن بن جوريون صراحة :

« كان يجب علينا أن نختبر مقدرة قواتنا العسكرية خلال العشر سنوات الثانية من وجود حكومتنا . » . وفى مناسبة أخرى عبر فيها بن جوريون عن نفسه أكثر وضوحاً : « إن الاختبار العسكرى المتوقع له بدايات الستينات ، ولتنفيذ الحدث كان لزاما على إسرائيل إذن أن تنسق مع القوى الإمبريالية » .

وأعلنت أمريكا عن « مشروع إيزنهاور » حتى قبل أن تتمكن القوات الإسرائيلية من الانسحاب الكامل من سيناء ، أعلن فيه أنه ستقدم معونات مالية للحكومات التى تنوى اتباع سياسة محاربة ومعاداة « الشيوعية العالمية فى الشرق الأوسط » . كان الهدف المنشود من هذا المشروع بالنسبة لمصر واضحاً . فالولايات المتحدة كانت تخشى من أن يزداد نفوذ مصر لو أنها انتصرت على إسرائيل بالأساليب السياسية .

ونظرت أمريكا إلى أن تعزيز استقلال مصر يعتبر خطراً ، فهى كأى دولة مستقلة ستنجذب أكثر للمعسكر الاشتراكى .

وكان عبد الناصر مستعداً لرد فعل أمريكا هذا ؟ منذ أن عقد صفقة السلاح مع تشيكوسلوفاكيا .

وأصبح عبد الناصر الآن أكثر اقتناعاً بأن المصالح القومية لمصر ، تتطلب الاقتراب من الاتحاد السوفيتى .

عاشت الدول العربية على مر سنوات كثيرة فى عزلة كبيرة بعضها عن بعض . فمنذ بدايات القرن العشرين اشتعلت فى كل واحدة منها النعرة القومية . ومن أمثلة ذلك نجد أن القوميين العراقيين اعتبروا أنفسهم ورثة لكل من الثقافتين القديمتين الأشورية والبابلية . وسمى التونسيون أنفسهم بالفينيقيين ، وتحدثوا عن أنه تتدفق فى عروقهم دماء المدافعين عن قرطاجة . وتحدث المصريون كذلك عن الأهرامات التى بناها أجدادهم القدامى . إلخ . فعظمة الحضارات القديمة خدمتهم ، فى كونها كانت مصدراً للعزة القومية وكتأكيدات تاريخية لحقهم فى الاستقلال ، الذى من أجله يناضلون .

تربى ناصر وأبناء جيله على تلك الأفكار . إلا أنه فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ بدأ يدرك أن الاستعماريين هم المسئولون عن تجزئة الشعوب العربية .. فهو الذى سيناهض فيما بعد فكرة القومية المصرية الضيقة عندما يعلن بديلا عنها « الوحدة العربية » .

كان يرى أنه على بلدان الشرق الأوسط ، أن لا تحارب معاً

فقط من أجل الاستقلال ، بل وعليها أيضا أن تتضامن فى المستقبل ، من أجل بناء حياة جديدة . هكذا كان فهم عبد الناصر لهذه القضية .. فالمصريون تربطهم بالشعوب العربيـة الأخرى وحدة التاريخ ، والثقافة ، والتقاليد ، واللغة !

كان أمراً واضحاً وملموساً ، حتى قبل العدوان الثلاثى ، أن شعار « الوحدة العربية » كان يسبب انزعاجاً شديداً فى الأوساط الاستعمارية . فنجد أن السفير الانجليزى « تريفليان » كان يحاول إقناع عبد الناصر بأن يتخذ من « أتاتورك » مثالا ، « إذ تمكن أتاتورك من أن يقود سياسته لأنه استطاع أن يقنع غيره من القوى أنه يهتم فقط بتطور تركيا وليس له مطمع فى أى نفوذ خارجى » .

كانت الوحدة بين مصر وسوريا ، هى أول محاولة لتطبيق فكرة « الوحدة العربية » ، على أرض الواقع ، كان عبد الناصر محقاً عندما كتب فى « فلسفة الثورة » ، بأن أمن مصر يستمد وجوده أساساً ، إذا كانت الدول العربيـة الأخرى تساندها ، فقد ساعد شعب سوريا الشعب المصرى فى الحرب الأخيرة . كما أعلنته سوريا عن استعدادها لإرسال متطوعين لشقيقتها مصر .

ونشرت فى الصحف سنة ١٩٥٧ أخبار تفيد — أن بعض الدول المشتركة فى حلف بغداد تخطط للاعتداء على سوريا . ورأى القادة فى سوريا ، أن ناصر زعيم قومى ، فى مقدرته أن يرد خطر التدخل

العسكرى . كما وأن الزعماء السوريين قدروا ، أنهم إذا ما اتحدوا مع مصر ، فإنهم سيتمتعون بنفوذ فى العالم العربى . وكان قد تم فعلا بين مصر وسوريا ، اتفاقيات سياسية وعسكرية . وانتهجوا فى سياستهم الخارجية موقف الحياد الإيجابى .

وصل إلى القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٨ وفد من الشخصيات السورية ، يمثل مختلف التجمعات والأحزاب السياسية ، وكان ضمن تشكيل الوفد ، وزير الخارجية صلاح البيطار . طالب بالإسراع بالعمل من أجل الوحدة . ثم تتابعت المشاورات على جميع المستويات بين ممثلى كل من الحكومة المصرية والسورية .

تقابل الرئيسان فى ١ فبراير سنة ١٩٥٨ فى قصر القبة . واختتمت المناقشات بإعلان بيان إنشاء الجمهورية العربية المتحدة : ويتمتع جميع مواطنى الحكومة الجديدة بحقوق متساوية .

فى ٥ فبراير سنة ١٩٥٨ ألقى كل من الرئيس ناصر والرئيس شكرى القوتلى بخطابين إلى شعبى البلدين ، شارحين فيهما سياسة الحكومة الجديدة . قدما لكل من شعبى سوريا ومصر التعبير عن موقفهما فى الوحدة . وعليهما أيضا اختيار رئيس للجمهورية العربية المتحدة .

وتم فى ٢١ فبراير سنة ١٩٥٨ إجراء استفتاء عام . وأعلن

فى اليوم التالى رسميا اختيار جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية الجديدة .

خرجت عشرات الألوف من الجماهير فى شوارع دمشق لاستقبال ناصر ، الذى يزور سوريا لأول مرة . وكان لأية حكومة عربية أخرى الحق فى الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة.

أقلق إنشاء الجمهورية العربية المتحدة الأنظمة الرجعية العربية . فرأى الملك سعود أن الوقت قد حان للتخلص من جمال عبد الناصر . ونجحت أجهزته فى العثور على شخص من المحيطين بعبد الناصر على استعداد للقيام بعملية اغتيال . فجندوا رئيس أركان المخابرات العسكرية السورى عبد الحميد السراج . وحولوا لحسابه الخاص ببنك « مندلندسكى » مليون جنيه .

ولكن ما لم يعرفه المتآمرون ، هو أن عبد الحميد السراج أبلغ عبد الناصر بكل تلك المعلومات . فأعطاه عبد الناصر التصريح بالاستمرار فى اللعبة ، فما كان من السراج إلا أن أخبر أجهزة الملك سعود بأن المبلغ الذى وضع ضئيل جداً مقابل عملية بهذه الدرجة من الخطورة . والمال لايهم سعود فى شىء . وزيد حساب السراج فى البنك مبلغاً آخر يصل إلى ٩٠ ألف جنيه . ووعد السراج بوضع قنبلة فى الطائرة التى سيقلها عبد الناصر . وفى الميعاد المحدد انفجرت « قنبلة » من نوع آخر مختلف تماما . إذ فى مؤتمر صحفى

وأمام الصحفيين الأجانب أعلنت الوثائق والشيكات الدالة على المؤامرة .

وتصرفت السلطات العراقية بأسلوبها الخاص تجاه إنشاء الجمهورية العربية المتحدة . فكما هو معروف كانت تحكم فى كل من العراق والأردن أسرة مالكة من سلالة واحدة وهى أسرة الهاشميين . فاقترح نورى السعيد إنشاء مملكة واحدة للأسرة الهاشمية بين الأردن والعراق ، مع الإبقاء على تاج كل من فيصل وحسين . ولكن بعد مرور وقت قصير ، ثار الشعب العراقى ، وتمكن من الإطاحة بالنظام الملكى البغيض .

وسرعان ما أعلنت حكومة عربية أخرى عن رغبتها فى الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة . وكان واضحاً كل الوضوح فى هذه المرة أنها كانت حكومة غير جمهورية بل كانت المملكة اليمنية .

فى هذا الوقت كان الإمام أحمد هو ملك اليمن ، وكان يطلق على نفسه « الحاكم بأمر الله » وكان هذا اللقب الذى يطلق على خلفاء القرون الوسطى يعبر عن إدعاء ملوك آل حميد الدين فى أن يكون لهم دوراً قائداً فى العالم العربى .

ليس فقط القرن العشرين هو الذى فات بلاد اليمن بل فاتها أيضاً القرن التاسع عشر . إلا أن وحدة مصر وسوريا قوبلت فيه بحماس شديد .

فى شوارع مدن اليمن — الحديدة ، صنعاء ، تعز — أقيمت اجتماعات عبر خلالها الشعب بقوة عن رغبته فى الوحدة .

الإمام أحمد الإقطاعى الصميم من العصور الوسطى والجالس فى قصره . بدأ يفكر فى إمكانية استخدام هذا الموقف الذى نشأ فى صالحه .

فالحزازات الملكية كانت موجودة بينه وبين الملك فيصل . لدرجة أنه فى العشرينات حاولت الملكية فى السعودية الإطاحة بتاج الملك أحمد حميد الدين . حاول من بعدها بعض « الحكام العرب » التدخل بهدف الوصول إلى سلام بينهما . فأهدى الملك سعود الملك أحمد حصاناً . وأهداه الملك أحمد بدوره — وهو الذى لا يحب أن يكون لأحد جميل عليه — جارية سوداء رائعة الجمال — التى هربت بعد ذلك من أميرها مع حلاق إيطالى . ولم يزل تبادل الهدايا بينهما عدم الثقة والفتور اللذين كانا يسيطران على العلاقات بين الملكين .

قرر الإمام أحمد أن فرصته قد أزفت . فالاقتراح بانضمامه إلى الجمهورية الجديدة سيساعده فى معركته ضد سعود .

ووجد عبد الناصر نفسه فى موقف حرج ، فإنه على الرغم من أن اليمن حكومة ملكية ، إلا أنه فى نفس الوقت كرئيس للجمهورية العربية المتحدة فى قمة حملته لتحقيق فكرة الوحدة العربية وإحيائها .

ولذلك لم يستطع تجاهل رغبة شعب اليمن . وفى النهاية عثر على الشكل المقبول . فكون بين الجمهورية العربية المتحدة واليمن اتحاد فيدرالى . وسريعاً ما شاهد عبد الناصر — تماما كما سبق وحدث فى دمشق فى فترة قصيرة — تحية وسعادة أهالى الحديدة وتعزله . ولكن الاتحاد لم يكن مؤثراً . فلم يخرج عن إطار البيان المشترك ذا الطابع السياسى والاقتصادى .

حقيقة فباتجاه الفنيين المصريين ، والخبراء العسكريين إلى اليمن ، تمكن اليمنيون من معرفة الثورة المصرية أكثر .

وكانت أول زيارة للرئيس عبد الناصر إلى الاتحاد السوفيتى فى أبريل سنة ١٩٥٨ . كان يوماً مشمساً فى ربيع هذه السنة ، عندما هبطت الطائرة فى مطار « فنوكوفا » . وكان هناك فى استقباله آلاف الأشخاص بباقات الورد . وفى وسط هذا الجمع شوهدت وجوه المصريين السمراء . من موظفى السفارة ، الطلبة ، الدارسين فى معاهد موسكو .

واستقبله الموسكوفيون بملابس الأعياد على امتداد الطريق . ومر عبد الناصر بغابات من « البتولا » والصنوبر ، كذلك مر على مجموعات المبانى السكنية الجديدة والقديمة .

وعندما وصل طابور العربات أمام جسر ضخم من الحجارة ، أشار المترجم على الضيف الكبير بالنظر إلى ما يوجد على يمينه .

وشاهد عبد الناصر أسوار الكرملين العتيقة الحمراء ، بقبابها البيضاء والمذهبة البراقة بصورة ساطعة فى الشمس .

وها هو يتم أول لقاء عمل مع القادة السوفيت . ونظر عبد الناصر باهتمام إلى تلك الوجوه . الكثير منها كانت معروفة له من خلال صورهم ولكنه لا يعرف بعد ، كيف يتصرف هؤلاء الأشخاص .

ساعد الكرم الذى استقبل به فى المطار على الصراحة وعلى الثقة . فبدأ عبد الناصر أولا يشكر الشعب السوفيتى وحكومته ، على المساعدة التى قدموها لمصر فى الأوقات الصعبة . وتحدث عن المعركة التى خاضتها مصر فى سبيل الحفاظ على استقلالها . وكيف يفهم سياسة « الحياد الإيجابى » ، وتحدث عن « الوحدة العربية » وعن الضغوط التى تمارسها الحكومات الإمبريالية ضد الجمهورية الجديدة ، وعن خطط المستقبل . وعن التغيرات التى جرت فى البلاد ، وعن التحولات الاقتصادية التى ستستمر فيها .

حضر عبد الناصر المعرض الذى أقيم بمناسبة عيد أول مايو . فى البداية شاهد عبد الناصر عرض القوات العسكرية السوفيتية المنتصرة أثناء الحرب العالمية الثانية . إن الجنود الذين ساروا بخطوة منتظمة . كانوا المدافعون عن السلام ، الذى تحتاجه مصر بشدة .

كان عبد الناصر راضياً عن زيارته للاتحاد السوفيتى . فى ١٦ مايو سنة ١٩٥٨ وفى جريدة « البرافدا » نشر البيان المشترك ، عن

نتائج المحادثات ، بين حكومة الاتحـاد السوفيتى وحكومة الجمهورية العربية المتحدة ، بمناسبة زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للاتحاد السوفيتى . وذكر البيان أن الحكومتين « يندد ان بالاستعمار بجميع صوره وأشكاله ، ويؤيدان حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها وفى استقلالها » .

ناقشت الحكومتان مسألة حقـوق عرب فلسطين وعملية طردهم . . . وبالإضافة إلى ذلك تناولا المشا كل الناتجـة عن هذا الخرق للحقوق الإنسانية ، وتهديد السلام والأمن فى هذه المنطقة . وأكدت الحكومتان تأييدهما الكامل للحقوق الشرعية لشعب فلسطين .

وأعلنتا كذلك أن الاتفاقيات الاقتصادية والثقافيـة المبرمة بينهما تخدم هذه الظروف وهى مبنية على مبادىء سليمة .

وأعلنتا موافقتهما على ضرورة التعاون الاقتصادى والثقافى بين بلديهما واستمرار التبادل التجارى بينهما .

وفى هذا الشأن عبرت حكومة الجمهورية العربيـة المتحدة عن تقديرها لمساهمة الاتحاد السوفيتى الملموسة فى تصنيع ج . ع . م .

وبناء على دعوة من الرئيس تيتو قرر عبـد الناصر الاتجاه إلى يوغوسلافيا . ومن ميناء الأسكندرية أبحر عبـد الناصر على يخت

« الحرية » الذى كان مخصصاً للملك فاروق واتجها إلى جزيرة بريونى . وكانت أول مرة يسافر فيها الرئيس للخارج ويصطحب معه زوجته وأولاده . وعرف عبد الناصر وهو فى الجزيرة بالأحداث التى يموج بها كل الشرق الأوسط .

فى بداية يوليو سنة ١٩٥٨ تسلم اللواء عبد الكريم قاسم أمرا بدخول الأردن . كانت الرجعية تعد لضربة توجهها للوحدة السورية المصرية .

فى هيئة أركان عبد الكريم قاسم عقد اجتماع عاجل ، نوقشت فيه الخطة القديمة للقيام بانقلاب حكومى . وقرر الضباط الوطنيون بأنه قد جاء دورهم للتحرك .

وأكدت الاتصالات بالشخصيات السياسية ذات الميول الديمقراطية أن أية محاولات عسكرية ستحوز على تأييد الشعب لها .

وفى ليلة ١٣ ، ١٤ يوليو حاصرت قوات الفريق عبد الكريم قاسم القصر الملكى . وهب أهالى العاصمة العراقية لمساندة الثوار . وأعلن راديو بغداد فى صباح يوم ١٤ يوليو قيام الثورة فى العراق . وأن الملك فيصل ونورى السعيد وغيرهم من ممثلى النظام السابق قد قتلوا .

وبدت الثورة العراقية كعنصر عربى جديد فى حركة التحرر الوطنى .

وأصبح معروفاً فى نفس هذا اليوم ، أن الأسطول السادس الأمريكى تلقى أوامر بالتوجه إلى شواطىء لبنان وأرسلت قوات إنجليزية إلى كل من الأردن والكويت . فقد خشى الإمبرياليون من امتداد حركة التحرر الوطنى إلى النظم العربية الأخرى ، خاصة تلك التى لها بها ارتباط حقيقى ومباشر :

كان العالم العربى يغلى كالبركان . وظل عامل اللاسلكى على اليخت « الحرية » يعمل دون راحة . كانت المعلومات الجديدة تصل إلى عبد الناصر الواحدة تلو الأخرى . واحتفظ عبد الناصر بالاتصال المستمر بالقاهرة من خلال الراديو . واضطر رئيس ج.ع.م. إلى قطع زيارته ليوغوسلافيا .

نصحه تيتو بعدم العودة بحراً ، كذلك كانت المخابرات المصرية تخشى أن يقوم الأسطول السادس بأى عمليات استفزازية فى مياه عايدة ، كذلك كانت العودة جواً فيهـــا كثير من الخطورة ، فالقاذفات الإسرائيلية كانت منذ فترة قد قامت بهجوم على طائرة مصرية . كان المفروض أن يستقلها المشير عبد الحكيم عامر .

ومع كل هذا قرر عبد الناصر العودة على يخت « الحرية » ، ومن على ظهر السفينة أعطى أمراً بأن يتوجه وفد عسكرى إلى بغداد ، وأصدرت أوامر إلى فرقة عسكرية موجودة بسوريا للاستعداد لمساندة النظام الثورى فى العراق .

وما أن وصل اليخت إلى المياه الدولية ، حتى وصل تلغراف من تيتو ، الذى ألح بإصرار بأن يعود الرئيس ناصر إلى أقرب ميناء يوغوسلافى ، إذ أن الاتحاد السوفيتى قد أرسل طائرة خاصة إلى يوغوسلافيا ، لتكون تحت إمرة عبد الناصر يتصرف فيها كما يرى.

وفى ليل متشح بالسواد ، مرت فوق اليخت طائرات استطلاع إسرائيلية ، فتوقف عن السير ، وفى الصباح ترك ناصر اليخت وانتقل إلى مدمرة تاركاً اليخت ليكمل سفره إلى بريونى وعليه أفراد عائلته .

ولكن التمعت فى ذهنه خطة جديدة ، فبدلا من العودة إلى القاهرة مباشرة فكر فى القيام بزيارة لموسكو ، ففى هذا الوقت والاضطراب يعم كل البلاد العربية أراد التشاور مع القادة السوفيت وطار عبد الناصر فى الليلة التالية إلى موسكو .

فى مطار «فنوكوفا» الذى أصبح معروفاً لعبد الناصر ، فى صباح ١٧ يوليو هبطت فيه طائرته ، وكانت فى انتظاره سيارة بها ستائر تخفى من بداخلها ، وفى الطريق علم عبد الناصر بأن القوات الأمريكية أنزلت فى لبنان .

وفى العاشرة صباحاً بدأت المحادثات مع القادة السوفيت ، وسريعاً ما غادر عبد الناصر موسكو .

ومارا بأجواء العراق ، أرسل عبد الناصر برسالة تحية إلى قيادة

الثورة ، ومن شرفة قصر الرئاسة بدمشق وجه ناصر خطاباً إلى الشعب حلل فيه الموقف السائد فى الشرق الأوسط ، وما تقوم به الدول الاستعمارية من مؤامرات فى المنطقة ، وأعلن أيضا أن الاتحاد السوفيتى سيؤيد تأييداً كاملا الشعوب العربية ، كما سبق وأن فعل الاتحاد السوفيتى فى أيام أزمة السويس وكيف طالب فى بيان له بالإيقاف الفورى لإطلاق النار .

وهنا شعر الامبرياليون أن محاولتهم فى الشرق الأوسط ، أخذت طابعاً خطيراً بالنسبة لهم ، فما كان أمام القوات الأمريكية والانجليزية التى استدعيت إلا أن تلم رجالها وتعود مرة أخرى .

* * *

أصبح الموقف يحتاج إلى اتخاذ الحلول المناسبة بالنسبة للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية .

حفرت مع صخور النوبة تلك الكلمات :

المجد لك يا نيل ... يا من نشأت فى هذه الأرض .

أنت تقدم لكى تحى مصر ...

غنيت له الأناشيد التى ألهوه فيها . فحياة المصريين على مر آلاف السنين كانت مرتبطة دائماً بنزوات النيل العظيم ، إذا ماهاج ،

يدمر الشواطىء ، ويهدم القرى ، ويغرق الزرع ، إن أمل المصريين في الحرية كان دائماً أملا غير منفصل عن الأمل في بناء سد ...

جلب تأميم قناة السويس على الجمهورية العربية المتحدة بعض الموارد المالية ... وتقرر أن تستخدم هذه الأموال في بناء سد عال على النيل . ولكن الموارد لم تكن بكافية . وكان إمتناع أمريكا عن تمويل السد يرجع إلى اعتقادها أنه ليس في مقدور الاتحاد السوفيتي مساعدة مصر في بنائه . وهذا ما أعلنه دالاس في ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٧ في اجتماع لمجلس الشيوخ الأمريكي « ولنفرض مبدئياً ... أن الاتحاد السوفيتي وافق على تقديم المساعدة لمصر كعملية استدراج ... ولكن ليس في إمكانهم مطلقاً أن يبنوا سداً » .

وهذا خطأ جسيم لدلاس . لأنه في ديسمبر سنة ١٩٥٨ وقع الاتحاد السوفيتي الاتفاق الخاص بمنح المساعدات الاقتصادية والتكنيكية لبناء المرحلة الأولى من السد العالى . وعلى هذا الأساس أخذ بالمشروع الذى قدمه الفنيون السوفيت ، والذى حاز على الأولوية في مسابقة دولية .

لم يحدث من قبل أن استقبل ميناء الأسكندرية كل تلك الأعداد من الطرود كما حدث في تلك الأيام . كانت تفرغ السفن على أرصفة الميناء مساءاً وصباحاً . واصطفت على الشواطىء أهرامات كاملة من الصناديق تفوح منها رائحة الشحم .

وكانت الأرض تهتز اهتزازاً من زمجرة العربات والبلدوزورات والحفارات السوفيتية ذات الأوزان الضخمة . ووضعت قصاصات ورقية مكتوب عليها « سد أسوان العالى » على كل عربات السكك الحديدية المكونة لمجموعات كاملة متجهة لأسوان .

والنيل أيضاً كان إحدى الوسائل التى عن طريقها نقلت الطرود على عجل . فاستخدمت العوامات ، والصنادل ، والفلوكات . وكانت وهى تسير على النيل تستقبل بالغناء والطبول من الفلاحين الذين يخرجون لملاقاتها . كما يطلق البدو من على ظهور الجمال الأعيرة النارية تحية لها إذا ما شاهدوها خلال تلك الصحراء .

وفجأة استحوزت محطة السكك الحديدية بجنوب أسوان على اهتمام كبرى الوكالات والمجلات والصحف الأجنبية ، تلك المحطة التى كان من الصعب العثور عليها على الخريطة ، حتى أن كبار رجال الوزارة المصرية اضطروا إلى حجز الأماكن فى فندق أسوان الوحيد « كتاراكت » حتى يناير سنة ١٩٦٠ .

وجاء يوم الاحتفال . وعلى بعد عشرات الكيلومترات من المدينة وأعلى ميدان صخرى ، حيث يرى النيل واضحاً . ومطوقاً بالصخور ، شيد سرادق ضخم ، يكفى لعدة آلاف من الأشخاص ، وبجواره أقيمت قاعدة صخرية مجوفة ، على مقربة منها وقف الفلاحون بجلاليبهم الزرقاء .

ولعدم كفاية السرادق جلس بعض الحاضرين على الصخور المتناثرة على الشواطىء . وجلسوا كذلك على طول امتداد الطريق الموصل لأسوان .

وفجأة كما لو أنه أعطيت إشارة سحرية ، بدأت تتردد آلاف الهتافات فى المكان . وذلك لقدوم صف من العربات السوداء التى ظهرت عند المدخل وكان أول من دخل السرادق عبد الناصر . كان يبتسم فى سعادة ظاهرة . رافعاً يديه محييا الجماهير المحتشدة . وكانت الآلاف تصيح كالجنود فى لحظات الهجوم . ورجال الأمن يحيطونه بأيديهم مبعدين بالكاد ضغط الجماهير من عليه . وكان مع عبد الناصر عدد من الضيوف يمثلون عدة دول ، من بينهم الوفد الحكومى السوفيتى ، وبإشارة منه دعى الحاضرون لمشاهدة نموذج السد المنتظر . ووضعت الوثائق المتعلقة بعملية بناء السد والقرآن وبعض النقود فى القاعدة الصخرية . وهى للأجيال القادمة .

وانتهت مراسيم الاحتفالات التقليدية . كما تعود المصريون دائماً يبدأوا الأعمال العظيمة .

دخل عبد الناصر والضيوف السرادق . وعلى المنصة المزدانة بالأعلام المصرية والسوفيتية . شكر عبد الناصر بحرارة الاتحاد السوفيتى لمساعدته فى بناء السد . ثم ضغط عبد الناصر والضيوف بأصابعهم على الزر ، فى وقت واحد ، الذى سيفجر عملية البناء

وتهاوت الصخور السوداء . وتصاعدت غيوم بنية اللون من الرمال والصخور إلى الأجواء . واندفع إلى مكان الانفجار ، الآلاف ممسكين بالمعاول والمجارف . وزمجرت الحفارات والبلدوزورات بقوة معلنة بدء عمليات الهدم . وبدأت أكبر عملية لإخضاع النيل والتحكم فيه ...

وعثر بعد عدة سنوات على خطاب فى أحد صناديق البوسته فى أسوان .

جدى العزيز ..

كنت دائماً توصينا بحب البيت ، وأن لا نترك الأرض التى ولدنا عليها . ونحن هكذا فعلنا . مهما جرفنا القدر إلى أى مكان ، فإننا نعود إلى قريتنا الأصلية ، وإلى بيتنا الذى على مقربة منه تعطى حتى يومنا هذا نخلتك الغالية ثمارها . أنت تعلم ... كم هى فقيرة أرضنا .. . أسرتك زادت وكبرت ، فى العام الماضى رزق كل من حسين وعبده بولدين .. فأصبحنا ثلاثة أبناء شباب ، يجب علينا أن نبحث عن كسب آخر . يشيد الآن بجوار كوم امبو سد . فقررنا الذهاب إلى هناك بالقوارب لحمل الأثقال .

وإذا كنت يا جدى تستطيع أن تعود الآن إلينا ، لما عرفت بلدك . لقد تغير كل شىء أمام النظر . مصر كلها بدأت تتغير . فتسير العربات فى الشوارع ليلا ونهاراً ..

النيل سريعاً ما سيندفع إلى الأماكن التى كانت تكسوها الصحراء . وسوف تبنى عليها المنازل . وهنا ستقوم تربة جديدة .

أمس وصل أفندى وقال أن قريتنا هى الأخرى ستتحول إلى مكان جديد . ستكثر الحياة وستزيد الأرض . فى الأزمنة السابقة كانت قريتنا كثيراً ما تغرقها المياه . ولكننا سنأسف فقط على ترك نخلتك الغالية . فهل يطيب لك هذا العالم ؟

حفيدك حسن شحاته

يعثر على العديد من مثل هذه الخطابات يوميا فى صناديق البريد المصرية . وهى عادة قديمة ، إذ يظل الفرد يكتب للأجداد الراحلين طوال وجوده فى مصر . فمثل تلك الخطابات يكتبها الشباب والأطفال فى لحظات الحزن الأهل والأقارب يكشفون لهم فيها عن أسرارهم متمنين أن يشاركونهم فى حلها . وهذا الخطاب كما هو واضح خطاب لفلاح نوبى إسمه حسن شحاته . مشدود إلى دوامة الأحداث التاريخية . فمع بداية العمل فى إنشاء السد العالى ، هاجر أهالى النوبة . وهى لحظة درامية . وكيف لا يأسف حسن شحاته على موطنه الأصلى ، وعلى النخلة التى رعتها أيدى جده ... ولكن هناك فى الموقع الجديد ستكون « الأرض والمياه كثيرة » وتهدم وصايا الأجداد . « بدأت مصر كلها تتحرك » فى هذه الكلمات محاولة للتعبير عن صدق ذاتى وعن الشعور بالمشاركة فى هذه المتغيرات الجذرية التى تمر بها البلاد .

فى ١٨ يناير سنة ١٩٦٠ أعلن راديو القاهرة بدأ العمل فى المرحلة الثانية من السد العالى . وأن الاتحاد السوفيتى هو أيضا الذى سيقوم بها . وفى زيارة نيكسون للسد العالى فى سنة ١٩٦٣ قال « والآن أنا أومن إيماناً أكيداً بأن السد العالى بعد تشييده سيكون إحدى المعجزات .

وكان يصل يومياً للرئيس عبد الناصر التقارير الخاصة بحالة سير العمل فى السد ، كما لو كانت نشرات واردة من الجبهة .

وكانت الدعاية الإمبريالية ، تبذر بذور عدم الثقة . فى قدرة الخبراء والتكنيك السوفيتى . فظهرت على صفحات الجرائد البرجوازية ، مؤلفات وآراء اقتصاديين ، اتجهت جميعها لإثبات ، أن بناء السد العالى سيجلب على الاقتصاد المصرى خسائر جسيمة ، وحاولت البرجوازية المصرية إيقاف البناء ، وقطع أواصر الصداقة والتعاون بين المصريين والعمال السوفيت ، وهم يدركون أنهم بهذا ينظمون حملة ضد الشيوعية . ولكن كان من الصعب خداع المصريين البسطاء والكذب عليهم ، فهم كانوا يدركون ويرون بأى حماس يعمل إلى جانبهم السوفيت .

اكتسبت وظيفة التشييد والبناء مكانة عالية فى مصر . ويبشر بناء السد العالى بالكثير من الخيرات للبلاد . فأراضى ومساحات شاسعة ستروى من مياه السد العالى ، وبنيت محطة ضخمة للكهرباء

ومن نتائجه أيضا أن الدخل القومى المصرى سيرتفع كثيراً .

وعلق المؤرخان « أ . بيلياييف ، و « ا . بريماكوف » « بأن أيديولوجية ناصر — كمسئول حكومى وسياسى — هى أيديولوجية تلك الشخصيات من الفئات المتوسطة ، منطلقين من الوطنية الثابتة التى لا تنحرف ، وتقترب بالتدريج من الاشتراكية العلمية . وهذه المرحلة الانتقالية ، عند هذه النوعية من الشخصيات ، تمتد لفترة طويلة . وواضح فى نفس الوقت ، أن تطور الاتجاه الفكرى عند عبد الناصر كان محدداً بقدر كبير .

تلك الشخصيات لمجموعة حكومات العالم الثالث — مثل شخصيته — ساروا ويسيرون إلى اليسار ، قائدين شعوب بلادهم وراءهم ، وتجربة عبد الناصر الذى حقق فى هذا البلد الإصلاح الزراعى والتحولات الاجتماعية ، تستحق دراسة جادة وحقيقية ، ففى تلك التجربة توجد الجوانب الإيجابية والسلبية ، فعبد الناصر كثورى وسياسى ، وحركة التحرر الوطنى والثورى فى مصر ، فى كل أشكالها العديدة ، تضع أمامنا العديد من الصعوبات والتناقضات » .

رأى عبد الناصر أن النظام السياسى الموجود فى مصر ، لا يقدر على مسايرة حجم التغيرات التى تحدث . فكان يجب تجنيد وتوجيه الجماهير الشعبية لحل أعقد المهام الاقتصادية . وقد أعلن مراراً

عن رغبته فى خلق مجتمع « الكفاية ، والرفاهية . وتكافؤ الفرص » .

وتحدث أيضا عن نيته فى بناء المجتمع التعاونى الاشتراكى . وتأميم البنوك الأجنبية ، وشركات التأمين . والشركات الصناعية ، وتدعيم القطاع العام ودوره الذى كان يقوى باستمرار .

حاولت القوى الإمبريالية خنق مصر بفرض حصار اقتصادى حولها . فما كان منه إلا وأن اتجه فى مجال التجارة الخارجية إلى المعسكر الاشتراكى ، وحكومات كل من آسيا وإفريقيا .

ولكن تلك السنوات شهدت زيادة هائلة فى دور البرجوازية الوطنية الكبيرة . فحصة الأسهم التى كانت من قبل ملكاً للأجانب عادت كلها إلى أيدى المصريين . وبجشع رأت البرجوازية أن تملأ هى هذا الفراغ الناتج عن إنهاء سيطرة رأس المال الأجنبى . فلفترة ما كانت بداية « للعصر الذهبى » بالنسبة لها .

وأثبتت التجربة أن البرجوازية الكبيرة تعيش دائما فى أنانية وتعمل لمصلحتها الذاتية . فلم تقدم على الاشتراك فى تصنيع البلاد . ففى الوقت الذى جمعت فيه البلاد كل قواها لكى تبنى السد العالى ، حول الصناعيون المصريون كل رؤوس أموالهم للخارج .

وهنا وضعت الحكومة وفقاً لتوجيهات عبد الناصر الخطة العشرية للنمو الاقتصادى والتى بدأت فى سنة ١٩٦٠ . وكان بحسب

لإتمامها توجيه ضربة قوية للبرجوازية الكبيرة . فكلف عبد الناصر الشخصيات الموثوق بها بدراسة دقيقة لكل الجوانب الاجتماعية ، والتنظيم الاقتصادى فى البلاد الاشتراكية ، فى أثناء الرحلات التى تمت ، وفى نفس هذا الإطار كانت رحلته إلى الاتحاد السوفيتى ، والتى كان لها تأثير كبير فى هذا المجال .

وفى يوليو سنة ١٩٦١ ، صدرت القرارات التاريخية الخاصة بتأميم القطاع الخاص . وكل البنوك الخاصة ، والصناعات الكبيرة ، وشركات التأمين ، وطبق من الآن القرار الخاص بأن الفرد لا يحق له امتلاك أسهم تزيد قيمتها عن ١٠ آلاف جنيه . وفرضت على الدخول الكبيرة ضرائب تصاعدية .

واتجهت بالتالى البيوت المالية لاحتكار الأراضى . ولكن سرعان ما ضربت الحكومة ضربتها الجديدة ، فصدر قانون تخفيض الملكيات الزراعية .

وحصل العمال على امتيازات جديدة ، وخاصة تلك الخاصة بمجانية التعليم .

ولم يسلم بهذا كل من الإقطاعية والبرجوازية الكبيرة . ولكنهم هرعوا إلى الأسلوب التقليدى — التخريب .

فإذا كان زعماء مصر قد تحدثوا فى السابق عن التضامن والتعاون

الطبقى ، إلا أن عبد الناصر أعلنها صريحة ، أن فى البلاد الآن يحتدم الصراع الطبقى .

وتم حل الاتحاد القومى فى فبراير سنة ١٩٦١ ، وذلك لاتخاذه موقفاً معارضاً للتحولات التقدمية . وابتعد عن عبد الناصر بعض الأنصار المقربين . فاستقال عبد اللطيف بغدادى نائب رئيس الجمهورية . وهو من أسرة غنية ، ودائماً كان مناصراً للبرجوازية المصرية . كما أنه كان معارضاً أيضاً للحصول على السلاح من الاتحاد السوفيتى .

كان عبد الناصر يعلم أنه يمكن توقع هجوم مضاد للثورة فى أية لحظة فى سوريا وفى مصر أيضا ؟ والذى قاد فعلا المعركة الحامية ضد القرارات الجديدة كانت البرجوازية السورية .

وعلى الرغم من ذلك لم يحد عبد الناصر عن هدفه المحدد . فوضع تحت الحراسة ٦٠٠ مالك من أكبر أغنياء مصر . واعتقل حوالى ٤٠ فرداً منهم . ومع أنه أطلق سراحهم بعد عدة أشهر — إلا أنه — أصدر قراراً بمنع كل من فرضت عليه الحراسة من الاشتراك فى الحياة السياسية بالجمهورية العربية المتحدة .

وتألبت الصحافة الغربية مرة أخرى على عبد الناصر : إن أسماء العائلات الغنية التى فرضت عليها الحراسة ليست بالأسماء المصرية .

وكان هذا فى حد ذاته كافياً لكى يلصقوا بعبد الناصر تهمة « معاداة السامية » وتهمة « الفاشية » .

ومن بين قارئى الجرائد الصباحية اليومية قليل من سأل نفسه هذا السؤال : كيف حدثت وفجأة كل هذه المساندة المالية لمستغلى الشعب المصرى ؟

فى الأيام التى كان المذيعون يفسرون للجماهير الشعبية معنى ومضمون هذه الإجراءات الجديدة . كانت الرجعية السورية تعد لإحداث انقلاب فى البلاد . وزاد من تفاقم الوضع ، تلك الأخطاء التى سمح بوقوعها فى فترة الوحدة بين سوريا ومصر . فى أثناء المناقشات التى جرت لإتمام الوحدة ، طالب عبد الناصر بحل الأحزاب السورية . وكانت النتيجة لم يظهر أى تنظيم أو منظمة واحدة يستطيع عبد الناصر الاعتماد عليها . فالبعثيون الذين كانوا يؤيدونه فى الماضى . . . وقفوا الآن فى موقع المعارضة وتحركوا سراً ضده .

وكانت التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى طبقت على سوريا ، على نفس النموذج المصرى ، بدون أية دراسة للظروف المحلية الخاصة بها . وبدأ عدم الرضا ينتشر فى البلاد . وهو ما يرجع أيضاً بدرجة ليست بالقليلة ، إلى خشونة وعدم لياقة بعض الشخصيات المصرية الرسمية ، التى سافرت للعمل فى سوريا .

ووقع الانقلاب فى سوريا فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ . وقدر العدو أن عبد الناصر سيرسل بقواته إلى سوريا . ولكنه لم يرض محاربة الشعب السورى . وتحكم عبد الناصر فى نفسه فى تلك اللحظات الصعبة . « يجب علينا أن نكون قادرين دائماً على الاعتراف بأخطائنا » . قال ذلك عبد الناصر . وهو الذى كان يتخذ القرار الواقعى والسليم فى أشد المواقف تأزما . وأعلن بعد عدة أيام أن سوريا يمكنها أن تنسحب الوحدة . وفى نفس الوقت فإن مصر ستحتفظ باسم الجمهورية العربية المتحدة . وسيظل علمها هو نفس العلم السابق كرمز للوحدة العربية .

وظن الكثيرون أن مصر سوف تحيد عن الخط التقدمى ، وهو ما لم يحدث . واستمرت السفينة فى طريقها إلى الأمام ، موجهة بأيد حازمة وحاسمة .

وفى ٣٠ يونيه سنه ١٩٦٢ قدم ميثاق العمل الوطنى ، على أثر مناقشات طويلة اشترك فيها نواب يمثلون كل المجموعات الاجتماعية فى البلد . وحدد الميثاق تطور النظام السياسى والاقتصادى فى مصر .

وفى مقدمة الميثاق شرح عبد الناصر الأسباب التى جعلت ثورة سنة ١٩١٩ لا تجنى نتائج ملموسة ولعدم إدراك قياداتها لأهمية الإصلاح الاجتماعى فى البلاد . إنهم لم يدرسوا استراتيجيتهم .

ولهذا لم يعط الاستعماريون للبلاد إلا الاستقلال الشكلى . فبدلا من الحرية حصل المصريون على دستور ، بدا وكأنه « مجرد مظهر » يغطى سيطرتهم .

وبهذا الشكل فإن الديمقراطية البرجوازية فى مصر تحولت إلى « مهزلة مخجلة » واستطاع كل من استغل العمال والفلاحين المصريين ، أن يملى عليهم إرادته . فى حين أن الديمقراطية تقوم أساساً على الأفكار الاجتماعية . ولهذا فإن من حق كل مواطن فى ج . ع . م . أن يضمن حريته من جميع أشكال الاستغلال ، والإيمان بالمستقبل ، وفى هذه الظروف تم التخطيط لتوجية ضربة إلى القطاع الخاص .

وعلى أساس ما جاء فى الميثاق أعلن عن تكوين تنظيم سياسى — الاتحاد الاشتراكى العربى — يعد المؤتمر القومى فى هذا الوقت كهيئة برلمانية للاتحاد الاشتراكى . وعلى قمته وجـــدت اللجنة المركزية برئاسة رئيس الدولة . الذى يشغل فى نفس الوقت رئيس الاتحاد الاشتراكى .

مبدأ تكافؤ الفرص كان أحد الأسس الرئيسية للميثاق . فلكل فرد الحق فى التمتع بالخدمات الطبية ، وفى التعليم ، والعمل ، وفى التأمين الاجتماعى . وإن المرأة تتمتع بحقوق متساوية مع الرجل .

ويعد الميثاق وثيقة رائدة فى حركة التحرر العربى .

فهو يعتبر كأساس نظرى للإصلاحات التقدميـة الإجتماعية الاقتصادية التى تتم فى مصر . ويلاحظ فيه تأثير أفـكار الاشتراكية العلمية ، وكأنه يعمم تجارب الحـكومات النامية .

وشن حكام المملكة العربية السعودية واليمن هجوما على اشتراكية ناصر ونعتوه « بالملحد » . كما اتهمته البرجوازية السورية المتسلقة إلى السلطة بأنه « طاغية » ، وزعم الرجعيون بأنه يهـدم التضامن العربى . وكانت إجابة ناصر بأن مصر ليست فى حاجة إلى التضامن مع الرجعية ..

٧

فى هذه المرة . وصلت الثورة إلى أكثر ركن ملسى فى الشرق الأوسط ــ وهو اليمن . حكى أحد الوطنيين بحرارة ذات مرة لعبد الناصر حكاية ذات مغزى: « من فترة قرر الله ، خالق الكون إرسال آدم ليشاهد ماذا حدث على الأرض وكيف يعيش أبناؤه البشر . وجد آدم أن كل شىء قد تغير الدخان يتصاعد من مداخن المصانع ، وفى مكان الصحراء أخضرت الحقول وشقت القنوات لتربط بين الأنهار . ولم يستطيع أن يتعرف على أى مكان وبينما هو طائر فوق المناطق المختلفة من سطح الأرض صاح آدم فجأة بسرور « أنا أعرف هذا المكان ، إنه اليمن » .

لم يغير الزمن أى شىء فى هذا البلد فعلا . حتى الآن يسيطر على اليمن العلاقات القبلية والاقتصاد الطبيعى . لا يوجد فى اليمن خطوط سكك حديد وحتى الطرق المرصوفة بالأسفلت عبدت منذ زمن غير بعيد . بأمر سرى من الملك منعت فى البلاد : السينما ، الرقص والأدب الأوروبى، نقل الدم وكذا لبس القبعات الأوروبية كانت ممنوعاً .

وفى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ تم خلع إمام اليمن الجديد الذى تولى لقوة العرش بعد وفاة أبيه . خرج المتظاهرون إلى شوارع المدن اليمنية حاملين أعلام الجمهورية كذا يدقون الطبول بلا إنقطاع ويرقص الرجال رافعين فوق رؤوسهم الخناجر المقوسة فى جرأة وشجاعة . جاءت وفود كثيرة من أقاصى البلاد وأدناها إلى القصر الذى أصبح مقر حكومة الجمهوريين لكى يعلنوا تأييدهم ومساندتهم للجمهورية .

فر الإمام المخلوع — البدر — وسرعان ما كون جيشاً من فلول الملكيين والمرتزقة وذلك بمساعدة المملكة العربية السعودية والبلاد الإمبريالية . وتحركت هذه القوات العسكرية إلى اليمن .

طلب الرئيس عبد الله السلال المساعدة من مصر . فى خلال يومين وصلت سفن مصرية إلى ميناء الحديدة حاملة أول قوات مصرية . « هذه الحرب المناوئة لمصالح الشعب التى تقودها العربية السعودية فى اليمن لمساندة النظام المخلوع جلبت للملك سعود نتائج خطيرة » — هكذا أذاع راديو « صوت العـــرب » من القاهرة .

فى مارس عام ١٩٦٤ صدر فى مصر مرسوم بقرار يلغى تعويض الإقطاعيين عن أراضيهم التى صودرت وفقاً لقانون الإصلاح ... . أصبح الجزء الأعظم من الأرض الزراعية

فى أيدى الفلاحين . من الآن فصاعداً أصبح ممنوعا على الأجانب إمتلاك أرض مصرية .

إرتفع عدد التعاونيات فى مصر . تمد هذه التعاونيات الفلاحين بالبذور والأسمدة والآلات الزراعية وتساعدهم فى بيع المحصول أقيمت فى الأرض المستصلحة من الصحراء مزارع دولة كبيرة . فى سنة ١٩٦٣ استصلح ٢٩٥٠٠ فـــدان فى مديرية التحرير . تحولت الصحارى إلى حدائق مزهرة . وضعت خطط طموحة للمستقبل .

علاوة على ذلك فى فبراير سنة ١٩٦٤ أعلنت قوانين جديدة بدعوة الناخبين لانتخاب أعضاء مجلس الأمة . كانت أغلبية النواب المنتخبين من العمال والفلاحين وفقاً للقانون . إنتخبت سيدات كنواب فى مجلس الأمة الجديد . كانت مهمة مجلس الأمة تأكيد سلطة الشعب فى إصدار التشريعات الجديدة .

كان لمجلس الأمة الحق فى معارضة الوزراء . وفى الحقيقة اعترف ناصر بنفسه أن مجلس الأمة استطاع أن يذلل الكثير من العقبات وأنه يجب على المجلس أن يكون هو السلطة الفعلية .

وفى هذا المجال قال عبدالناصر يوم افتتاحه «مازالت الحكومة تضع نفسها فوق مساءلة الشعب . . . » .

أعيد إنتخاب جمال عبدالناصر رئيساً للجمهورية لمدة ست سنوات . خلال دورة مجلس الأمة قدم اقتراح بأن يكون عبدالناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة مدى الحياة . وعندما علم بذلك قال : « إن الرئيس يتمتع بصلاحيات كبيرة ولا حدود لها . هل نقبل هذا الاقتراح ؟ بالطبع لا . . . أشكركم على شعوركم . وأرجوكم ألا تأخذوا الموضوع من الناحية العاطفية بل كونوا عمليين عند التفكير فيه . . . . » .

أعلن فى حديثه عن حلول عهد جديد . فقد تم توجيه ضربة قاسية لطبقتى الاقطاع والرأسمالية ، وهذا بدوره أدى إلى تعاون عبد الناصر ورفاقه الوثيق مع الماركسيين . من الآن فصاعداً شارك الماركسيين المصريون بنشاط كبير فى المصالح والهيئات والمؤسسات الحكومية ، كذا اختير البعض منهم فى الاتحاد الاشتراكى العربى. كما شاركوا فى مناقشة مشاكل البناء الاشتراكى على صفحات الجرائد والمجلات .

مع مرور الأيام بدأ يقترب على ما يبدو ، موعد تحويل مجرى نهر النيل ، كانت هناك قوافل من القلابات تتحرك بموقع بناء السد الذى يشبه ظهر تمساح نيلى ضخم كونت جلاميد وكتل وجنادل جرانيت أسوان الأسود والأحمر أكوام وتلال غريبة الشكل ، وهو يلمع تحت أشعة الشمس الناصعة ، والتى بسببها تبد شواطىء النيل الخضراء كالزمرد .

استعدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة ليوم تحويل مجرى النهر كأحسن ما يكون الاستعداد للاحتفال بعيد قومى عظيم. وصلت وفود الكثير من الدول إلى أسوان ومن بينهم وفد الاتحاد السوفيتى.

فى مساء ١٤ مايو كان بريق أضواء سد أسوان العالى يشبه شروق الشمس. فى هذا اليوم فى الساعة الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة ضغط جمال عبد الناصر على زر الإنفجار فى حضور ضيوف مصر. واندفعت مياه النيل إلى مجراها الجديد. واستمر التحويل منذ لحظة الانفجار حتى صباح اليوم التالى. وجاءت لحظة اندفع البناؤون فيها الموجود على شـــاطىء النيـل يرتمون فى أحضان بعضهم البعض مهنئين. فى المساء عبر عبد الناصر وضيوفه النيل بسياراتهم على الطريق الجديد.

ظهرت الميداليات والنياشين السوفيتية على صدور بناة السد العالى من لابسى الجلاليب الزرقاء وكذا الميداليات والنياشين المصرية على قمصان الخبراء السوفيت.

حصل جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة وفقـاً لمرسوم مجلس السوفيت الأعلى على لقب « بطل الاتحاد السوفيتى » أقيم حفل إستقبال رسمى فى قصر القبة حضره حوالى خمسة آلاف مدعو. ألقى عبد الناصر فى هذا الحفل كلمة جاء فيها :

« سأتكلم عن بلد عظيم وشعب عظيم — سأتكلم عن صديقنا الذى وقف بجوارنا وساعدنا فى سنوات الشدة — سأتكلم عن الاتحاد السوفيتى ! . . » .

كانت عملية التحويل التى تمت بنجاح تعنى أن مصر ستحصل خلال عدة سنوات على طاقة كهربية غير محدودة . الآن عندما يتكلم عبد الناصر فى اللقاءات الجماهيرية ، يتحدث كثيراً ودائماً عن ضرورة قيام صناعة ثقيلة فى مصر . كان يتم تعميق مفهوم الطريق غير الرأسمالى للنمو والتطور . وقد كان الحديث يدور فى سنوات التأميم الأولى عن « الاشتراكية العربية » أو حتى « الاشتراكية الاسلامية » فإن عبد الناصر قد وصل إلى مرحلة ضرورة حسم هذا الموضوع بوضوح .

فى مارس ١٩٦٦ سأل عبد الناصر : « ما هى نوعية اشتراكيتنا . . علمية أم عربية » ؟ رد عبد الناصر مباشرة بكلام واضح لا يحمل إلا معنى واحداً : « ميثاق العمل الوطنى يتحدث عن الاشتراكية العلمية . . . فى مضمون مصطلح « الاشتراكية العربية » ينعكس العديد من العيوب القومية . . » .

فى سنة ١٩٦٦ انتهت أول خطة خمسية . نما الدخل القومى بما يوازى الثلث . وتحولت ج . ع . م بفضل هذه الخطة من بلد زراعى إلى بلد زراعى — صناعى .

وفقاً للخطة السباعية الجديدة كان من المفروض أن يتضاعف توظيف رأس المال فى الصناعة مائه مرة ، كذلك وضع برنامج واسع يشتمل على العديد من الإجراءات لتحسين الأحوال المادية والمعيشية للعمال . تقرر أن يكون يوم العمل سبع ساعات فقط ، كما رفع الحد الأدنى للاجور . فى سنة ١٩٦٤ جرى تنفيذ قانون التأمين الاجتماعى الاجبارى

صاحب تأميم المؤسسات الصناعية أعمال تخريبية واستفزازية. كذا عارض الإقطاعيون فى الريف تطبيق قانون الإصلاح الزراعى الثانى .

لقد دخلت قرية كمشيش بمحافظة المنوفية تاريخ مصر كرمز للنضال ضد الرجعية والإقطاع . تقع قرية كمشيش على بعد بضعة كيلومترات من قرية دنشواى التى ثار فلاحوها قبل الحرب العالمية الأولى ضد الاستعمار الإنجليزى . دنشواى . ثم كمشيش رمز لمراحل نضال الشعب المصرى المختلفة لتحقيق التحرر الوطنى ثم التحرر الاجتماعى .

فى ٣٠ أبريل ١٩٦٦ انطلقت قذيفة نارية ، تردد صداها المدوى فى كل مصر . وبيد القاتل سقط عضو الاتحاد الاشتراكى العربى النشيط صلاح حسين صريعا . دبرت عائلة الفقى الاقطاعية المالكة

السابقة — بدون منازع — لقرية كمشيش عملية القتل . حاول عمدة القرية وشرطة المحافظة إخفاء الجريمة .

حينئذ توجهت زوجة القتيل شاهندة — ذات السبعة والعشرين ربيعا — إلى القاهرة وطالبت بأن يسمعوا قصتها — وحكت فى الاتحاد الاشتراكى العربى عن نشاط الإقطاعيين الإرهابى كمحاولة لإعاقة تطبيق قانون الإصلاح الزراعى .

وعرف عبد الناصر بكل شىء ، وسافر مسئـــول الاتحاد الاشتراكى العربى بسرعة إلى كمشيش . أبعد رجال السلطة المحلية عن التحقيق . وأعيد النظر فى الواقعة .

اتضح أن عائلة الفقى سممت المواشى فى القرية فى وقت العدوان الثلاثى ، لـكى يستفزوا الفلاحين إلى التظاهر ضد الحكومة . كذلك عندما جرت إنتخابات أجهزة الحكم المحلى زيفوا أوراق الانتخابات لـكى يدفعوا برجالهم ، وعلاوة على ذلك كتبت عائلة الفقى الأرض الزائدة بأسماء أشخاص فارقوا الحياة لـكى لا يستولى عليها الإصلاح الزراعى .

لـكن صلاح حسين ، أحد أبناء القرية ، الذى يعرف حياة الفلاحين جيداً ، أشرف على تطبيق قانون الإصلاح الزراعى فى كمشيش . بعد الثورة مباشرة كون صلاح حسين لجنة فلاحية . وبسبب دسيسة دبرها له الملاك ، اعتقل صلاح حسين . بعد ذلك

اضطر صلاح حسين إلى ترك جامعة القاهرة التى كان يتلقى العلم فيها . بالرغم من هذا استمر صلاح فى النضال . وحذر رجال الاتحاد الاشتراكى من الاستهانة بنشاط الإقطاعيين وملاك الأرض . حينئذ قررت عائلة الفقى التنكيل بصلاح حسين أثبتت التحريات أن قاتل صلاح حسين استلم سلاحاً و ٢٠٠ جنيه من أحد أعضاء عائلة الفقى .

كنتيجة لهذا أعيد النظر فى أعمال القتل الأخرى فى القرى ، واتضح مقتل أحمد دسوقى أحد أعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى النشطين فى قرية محمد سلطان ، وكذا أخفى عشرة إقطاعيين بمحافظة كفر الشيخ خمسة آلاف فدان أرض زراعية منزوعة الملكية .

فى هذه السنوات تغير فى البلاد الكثير جداً . فقط لم يطرأ على النمط المعيشى لعبد الناصر أى تغييرات . استمر الرئيس يعيش فى الفيلا الصغيرة التى استأجرها وهو مدرس بالكلية الحربية .

كان ناصر أول من يهجع إلى فراشه فى المنزل . كان يستيقظ عادة فى حوالى السادسة صباحا ، يشرب الشاى ويتناول إفطاره المكون من الجبنة البيضاء وطبق الفول الذى يأكله كل الناس البسطاء ثم يخرج إلى مكتبه . وفى الوقت الذى يستيقظ فيه المنزل يكون ناصر قد استغرق فى عمله . ويجرى أطفاله صاخبين لغسل وجوههم .

كان وقت الفراغ لدى عبد الناصر قليلا جداً . ولكنه حافظ على قاعدة واحدة بدون تغيير عندما يكون موجوداً فى القاهرة . تجتمع كل الأسرة فى الساعة الثالثة ظهر كل يوم على مائدة الغذاء . كان الأطفال ينتظرون هذه الدقائق بفارغ الصبر — لقد كان عبد الناصر أباً مثالياً . لم يرفع صوته مرة واحدة على أولاده ، ولم يتدخل إطلاقاً فى شئونهم الخاصة ولم يفرض نفسه على أمزجتهم ، لكن تابع ناصر باستمرار أحوالهم المعيشية واهتماماتهم . وكان يقول لهم وجهة نظره فى أى موضوع أو أى مشكلة بلباقة وبدون قسر ويوجه طاقاتهم إلى كل ما هو مفيد . كانت كل كلمة يقولها الأب أو أى حركة يأتى بها تعتبر عند الأطفال مثالا يحتذى ويحاولون تمثلها .

فى أيام الإجازات النادرة كان عبد الناصر يسافر إلى ضاحية القناطر الخيرية .

هناك استمتع عبد الناصر كثيراً بالطبيعة عندما كان يلعب مع أولاده فى الحديقة . كان لدى عبد الناصر هواية وحيدة شملت أولاده . استهواه التصوير كثيراً جداً . وبفضل ذلك احتفظ عبد الناصر فى ألبوم الأسرة بلقطات كثيرة ، صورها بنفسه ، فى أوقات النزهة . أحب الرئيس أيضاً الأفلام السينمائية التى كان يعرضها فى المنزل كسينمائى أصيل .

كانت أعياد ميلاد الأطفال هى أكبر أعياد الأسرة حيث تقام فيها حفلات الشاى . واقتطع عبد الناصر سويعات أخرى من أجل أن يهدى أطفاله فى أعياد ميلادهم هدايا ويلعب معهم .

لم يحب عبد الناصر الاحتفال بعيد ميلاده ، كانت هناك تعليمات للصحف بمنع نشر أى شىء فى هذا الخصوص . إذا حضر أى زائر فى هذا اليوم يتبادل مع الضيوف الشاى وبعض الفطائر التقليدية من جاتوه وتورتات . كان عبد الناصر يحب الحلوى ، لم يشرب عبد الناصر الخمور إطلاقا وكان فى الحقيقة يدخن كثيراً . وسابقاً أحب عبد الناصر تدخين السيجارة الأمريكية « كنت » ولكنه أصبح الآن يدخن السيجارة المصرية « كليوباترا » فقط .

ذات مرة أثناء ترميم فيلا عبد الناصر وإصلاحها ، اقترحوا عليه أن ينتقل وأسرته إلى قصر القبة ، حيث حصل كل فرد فى الأسرة على غرفة ضخمة . لكن الحياة فى القصر أقلقته كثيراً وبدا أفراد الأسرة كما لو كانوا منفصلين .

تذكر عبد الناصر أن الأطفال يجرون بطرقات القصر ويمكن أن يكسروا أى شىء من فازات ومحتويات القصر النادرة . وسيكون من المحتم عليه دفع ثمن أى تحفة مكسورة قال أنا لن استطيع تحمل فترة المعيشة فى القصر .

كان عبد الناصر شريفاً ونظيف اليد وحازماً مع نفسه . أرسلت إلى عبد الناصر ملايين الجنيهات كتبرعات بهدف أن يوجهها إلى أى جهة تحتاجها . وقد تم تحويلها إلى البنك بالحساب الجارى تحت رقم « ١ » وكانت هذه المبالغ توظف لصالح مصر ، وعندما مات الرئيس كان يوجد حوالى ٢٫٥ مليون جنيه فى هذا الحساب بينما احتوى حساب عبد الناصر الخاص على ٦١٠ جنيه مصرى .

كل هذه الموضوعات كانت معروفة جيداً للمصريين . لأول يقود البلد التى ساد فيها الفساد سنوات طويلة رجل غير مغرض . وفى هذا الخصوص يكمن سر نجاح عبد الناصر العظيم كرجل دولة .

بقدر ما كتبت عنه الصحف الإنجليزية والأمريكية ، وبمقدار ما أهالت الدعاية الإسرائيلية عليه من براميل القاذورات ومهما كانت الأخطاء التى ارتكبها ناصر بنفسه والصعوبات التى تعرض لها ، فلم يستطع شىء أن ينال من حب وإيمان شعبه به .

لم تصبح القاهرة قبلة تمثل حركات التحرر الوطنى فى العالم العربى فقط بل أيضاً عاصمة إفريقيا المناضلة .

فقد انعقدت مؤتمرات دولية كبيرة فى القاهرة . فى عام ١٩٦٤ مثلا ، اجتمع رؤساء الدول الأفريقية فى مؤتمرهم الثانى .

قدمت الجمهوريه العربية المتحدة مساعدتها المادية والعسكرية لشعب الكنغو فى نضاله ضد الامبريالية . لعبت مساندة الجمهوريه العربية المتحدة لثورة الجزائر دوراً كبيراً فى انتصار ثورة .

قاتل الجنود المصريون فى اليمن . ساندت ج . ع . م شعوب المغرب والسودان والعراق وسوريا واليمن الجنوبى. آمن عبدالناصر بأن مساندة الشعوب الأخرى هو مهمة ثورية ملقاة على عاتق ج.ع.م. ردد عبد الناصر فى خطبه بثبات وعناد فكرة وحدة عمل الدول المتحررة فى النضال ضد الامبريالية ارتبط ناصر بصداقات كثيرة مع القاده التقدميين . كان هناك شعور خاص يربط بين عبد الناصر وإرنستو تشى جيفارا وفيدل كاسترو ، فى عام ١٩٦٢ تقابل عبدالناصر وكاسترو فى حى هارلم بنيويورك حيث كان يقيم كاسترو فى فندق متواضع وذلك خلال دورة انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة التى حضرها رؤساء كثير من الدول. وقد أبدى عبد الناصر إعجابه الشديد بثورة كوبا .

فى فبراير ١٩٦٥ وصل تشى جيفارا ثانية إلى القاهرة . وزار عبد الناصر مع ضيفه جيفارا أسوان . وقد أعلن الضيف أنه لم يشاهد بعد بناء كهذا السد فى أى بلد من البلاد النامية .

تحدث ناصر :

— قال دالاس لنا أننا سنحلل هذا اليوم — الذى نبنى فيه هذا

السد لأن شعب مصر سيكون مضطراً للتضحية كثيراً . . . لكن الثورة الحقيقية تتحدد بمدى استعداد الناس لتحمل الحرمان فى سبيل التنمية . . .

حينئذ ، عندما انتهت المرحلة الأولى من بناء السد العالى ، رأى كل العالم كم أخطأت البلاد الامبريالية التقدير ، هل فهموا هذا فى واشنطن ولندن ؟ قررت حكومة واشنطن أن « أحسن طريقة لإبقاء ناصر خارج كتلة السوفيت — هى مساعدته » . فعلا فقد فشلت سياسة التهديدات فى تحقيق أية نتائج . فقد قال كيندى بعد وصوله للسلطة أن الولايات المتحدة الأمريكية مستعدة لمساندة العرب . استجاب ناصر لهذا الإعلان بهدوء وبحذر . وكما أظهرت الأحداث التالية . . تصرف ناصر ببعد نظر ثاقب . ومضى وقت ليس بقليل . أرسل كيندى خطابا لعبد الناصر طلب فيه الكف عن شراء الأسلحة السوفيتية .

رداً على الرسالة نبه عبد الناصر كنيدى إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية هى التى امتنعت عن إمداد مصر بالأسلحة وعن تحويل بناء سد أسوان العالى فى الوقت الذى عرض فيه الاتحاد السوفيتى مساعدته للشعب المصرى . كذا أخبره رئيس الجمهورية العربية المتحدة أنه سيحافظ على علاقاته الحسنة مع الاتحاد السوفيتى طالما أن ذلك هو رغبة الشعب المصرى .

بعد ذلك استمر لنيدى فى ممارسة الضغط على عبد الناصر . فى ذلك الحين وصل بادو سفير أمريكا الجديد لدى الجمهورية العربية المتحدة الذى شغل منصب مدير الجامعة الأمريكية فى القاهرة لمدة عشر سنوات . إبتسم عبد الناصر عفواً ، فإنه ما زال يذكر محادثاته مع إيدن المحسوب خبيراً فى الشئون العربية

على أية حال ، مارس بادوا فورا عمـــله بنشاط وأجرى اتصالات مع رجال الصناعة المصريين ومع رجال الإدارة والكتاب ورجالات المجتمع . وتواجد رجال الكونجرس فى مصر واستخدم بادو كل نفوذه وتأثيرة من أجل مساعدتهم فى مقابلة ناصر . وضع رجال السياسة الأمريكية كل ثقلهم لكى يكسبوا عطفه . عند عودة رجال الكونجرس إلى الولايات المتحدة أدلوا بأحاديث ضد عبد الناصر وطالبوا بمحاصرة الجمهورية العربية المتحدة إقتصادياً . واستمرت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى مساعدة إسرائيل عسكرياً .

فى نوفمبر عام ١٩٦٤ تم إسقاط مظليين بلجيكيين فى الكونجو دبرت الولايات المتحدة هذا الهجوم وكان موجهاً ضد الشعب الكونجولى . خرجت مظاهرات فى شوارع القاهرة تعارض سياسة أمريكا . بعد عدة أيام أعلن ناصر أن الجمهورية العربية المتحدة تساند نضال الشعب الكونجولى .

« إذا لم يعجب السفير الأمريكى هذا ، فليذهب ويشرب من البحر الأبيض — هكذا قال عبد الناصر وسط صيحات المصريين الحماسية ثم أكمل — وإذا لم تكفيه فليشرب البحر الأحمر أيضاً ».

أدرك عبد الناصر أن هناك خطراً جديدا يخيم فوق مصر . فى هذه المرة استعدت إسرائيل لحرب أكثر إتقاناً من حرب ١٩٥٦ . وصل موشى ديان إلى فيتنام بوصفه مراسلا حربياً لجريدة « معاريف » الإسرائيلية . هناك لاحظ الأعمال العسكرية للقوات الأمريكية وشارك حتى فى معركة دانانج . أجرى ديان مناقشات مع الجنرالات ، وعن وجه العموم استحوذ على خبرة حرب فيتنام ولهذا ارتدى ديان فى تلك المدة الزى العسكرى الأمريكى . قبل هذا تقابل ديان فى واشنطن مع ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكى والجنرال ماكسويل تايلور ، وكان تحت رعاية الجنرال وستمورلند شخصياً .

بعد عودته إلى إسرائيل لم يكتف ديان بنشر مقالات عن رحلته فى فيتنام . بل ألقى العديد من المحاضرات المغلقة على الضباط والجنود .

فى عام ١٩٦٦ . وقعت ج . ع . م . معاهدة دفاع مشترك مع سوريا والتى بمقتضاها تتشكل قيادة موحدة لجيشى البلدين فى حالة وقوع حرب .

سرعان ما قررت إسرائيل جس نبض موقف الدول العربية بالنسبة للاعتداءات العسكرية . تصفت القوات الإسرائيلية ثلاث مدن أردنية . وحاولت إسرائيل أن تبرر أعمالها الهجومية المستمرة بهجمات الفدائيين الفلسطينيين ، لم تكن كلا من مصر أو سوريا مرتبطة بالأردن بأى اتفاقيات . ولكن هل هذا يعنى أنهم لا يجب أن يشاركوا فى رد الفعل ؟ .

قامت فى الأردن موجات من المظاهرات الجماهيرية تطالب الملك حسين بالسلاح . بدأت عملية تبادل الاتهامات ، بدأت صحافة السعودية والأردن فى توجيه اللوم إلى عبد الناصر لأنه لم يطالب بسحب قوات الطوارىء الدولية من سيناء لكى يمكن غلق خليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية .

تبجحت إسرائيل بوقاحة وعدوانية قصوى .

فى يوم ٧ أبريل توغلت قاذفات القنابل الإسرائيلية إلى داخل سوريا بحوالى ٧٠ كيلو متراً وضربت أهدافاً سورية فى العمق . كذا استعمل العدو فى العمليات الأرضية الدبابات والمدفعية وكانت هذه الحملة تشبه «بروفة» الحرب .

فى ٢٧ أبريل أذاعت وزارة الخارجية السوفيتية بياناً نبهت فيه إلى أن اسرائيل تقوم بلعبة خطرة ، عندئذ . بدأت انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية تظهر قلقها ، تم وضع الأسطول

السادس الأمريكى المتواجد فى البحر الأبيض فى حالة استعداد عسكرى . وبدأ الطيران الإنجليزى يتمركز ويتجمع فى قبرص .

احتفلت إسرائيل فى مايو ١٩٦٧ بمرور تسعة عشر عاماً على إنشائها . . . أقيم العرض العسكرى فى القسم الإسرائيلى من مدينة القدس على الرغم من أنه كان معروفاً للعالم أجمع أن عاصمة إسرائيل هى تل أبيب ، بهذا الشكل العلنى أظهرت إسرائيل نواياها تجاه القدس .

فى نفس اليوم أعطى عبد الناصر أوامره لكى تتجه القوات المسلحة المصرية إلى قناة السويس .

فى ١٨ مايو تقدم رئيس الجمهورية العربية المتحدة رسمياً إلى سكرتير عام الأمم المتحدة يوثانت بطلب سحب ثلاثة آلاف فرد من قوات الطوارىء الدولية من سيناء .

أعطى عبد الناصر أوامره للأسطول المصرى بعدم السماح للسفن الإسرائيلية بالمرور بخليج العقبة وكذا سفن الدول الأخرى الحاملة لبضائع استراتيجية متجهة إلى إسرائيل .

تركت إسرائيل سوريا فى هدوء . واتجهت القوات الإسرائيلية إلى حدود الجمهورية العربية المتحدة .

في ٣٠ مايو طار الملك حسين إلى القاهرة ليوقع إتفاقية دفاع مشترك مع عبد الناصر .

لكن في نفس الوقت حاول ناصر تخطى أى صدام عسكرى حيث أنه رأى أن العرب غير مستعدين لحرب مع إسرائيل .

في الحقيقة ، اتهمه الصهاينة خداعاً فيما بعد أنه أعلن في واقع الأمر ، عن نية إبادة إسرائيل .

في ٢٥ مايو أعلن عبدالناصر خلال مؤتمر اتحاد المهنيين العرب المنعقد في القاهرة أنه إذا بدأت الحرب فقد تقود إلى تدمير إسرائيل سأل كريستوف ميخيو مندوب البرلمان الإنجليزى عبد الناصر عما يعني بذلك ؟. أوضح الرئيس المصرى أنه استخدم كلمة «تدمير» بمعناها العسكرى وليس بمعناها السياسى أى أنه يتكلم عن قوات إسرائيل المسلحة وليس عن شعبها .

بخصوص الضربة الأولى قال عبد الناصر ليوثانت خلال زيارته لمصر أن جمهورية مصر العربية لا تريد أن تبدأ الضربة الأولى بأى حال من الأحوال .

عندما بدأ الاجتماع العاجل لمجلس الأمن ، طار إلى الولايات المتحدة شازار رئيس إسرائيل وأجرى محادثات مع جونسون

ورئيس وزراء إنجلترا « ويلسون » الذى كان موجودا أيضاً فى أمريكا كتبت « أورشليم بوست » أنهم ناقشوا «خطة عمل مشترك ضد مصر » . بهذا الشكل حصلت إسرائيل على مساندة لندن وواشنطون .

تشكلت فى ذلك الوقت « وزارة حرب » فى إسرائيل . أعطى ديان الذى تولى مهام وزير الدفاع أمره بالتعبئة العسكرية القصوى .

٨

ما كاد الجنود المصريين يتمركزون فى مواقعهم الحربية فى سيناء ، حتى بدأ يومهم الجـــديد فى ٥ يونية ، كأى يوم عادى آخر .

بينما جهزت التليفونات فى المعسكر المعادى ، واندفعت عربات الجيب بضابط الاتصال فى كل الاتجاهات . وفى الثامنة صباحاً تقريباً كانت كل قوة الطيران الإسرائيلية فى الجو ، حيث دمرت الطائرات المصرية على أرض المطارات .

اختارت القيـادة الإسرائيلية خصيصاً للهجوم « الدقائق المحدودة ، التى يجرى فيها تغيير النوبتجية الليلية بأفراد الطاقم النوبتجى الذى يتسلم عمله صباحاً ، بحيث يكون أفراد الطاقم فى كابينة الطائرة .

وتلى ذلك الهجوم البرى . إذ اندفعت القوات الإسرائيلية فى أربعة اتجاهات : غزة ، وأبو عجيله ، والقنطرة ، وشرم الشيخ :

وهى قوات كانت على مستوى تنظيمى وتدريبى جيد .

أما مصر فلم تكن مستعدة بعد للحرب . كان الشعب المصرى مشغولا بالتعمير السلمى .

ومع تطورات الأحداث اتضحت حقيقة أخرى ، وهى أن جزءاً أساسياً من القوات المصرية كانت متواجدة فى اليمن، بعيداً عن أرض الوطن .

وعندما علم الرئيس ناصر بضرب الطائرات الإسرائيلية للمطار الحربى المصرى « الهايك إستب » أندفع فى التو إلى التليفون. ولكن عامل التليفون لم يستطع توصيله بالقائد العام المشير عبد الحكيم عامر ولا بوزير الطيران صدقى محمود .

إذ أنه فى هذه اللحظة ، كان المشير عبد الحكيم عامر ومعه بعض القادة العسكريين يحلقون فوق شبه جزيرة سيناء. ولم يستطع مطار العريش المضروب أن يستقبل طائرة المشير ، فصدر أمر للطيار بالعودة للقاهرة. ولكن اتضح أن الهبوط فى مطار « الهايك استب » ممنوع أيضاً .

وكان هناك أمر قد أعطى للمدفعية المصرية المضادة للطائرات بعدم فتح النيران والضرب، طوال فترة وجود الطائرة المقلة للمشير وأعضاء القيادة العامة فى الجو . فى هذا الوقت نجح الطيران الإسرائيلى فى إحداث الكثير من الخسائر .

وأخيراً هبطت طائرة المشير فى مطار مدنى ، وأسرع المشير بنفسه للإتصال بعبد الناصر . وأنه على الرغم من أن سير الحرب قد حدد ، خاصة أثناء ما كان المشير عامر محلقاً فى الجو ، فكان يعتقد أن « كل شىء مازال يسير سيراً حسناً » وهو نفس ما ردده وزير الحربية بدران .

وعندما بدأت القوات الإسرائيلية الهجوم ، أسرع الضباط المصريون إلى أجهزة التليفون ولكنهم لم يتمكنوا من معرفة أى شىء .

خيم على مراكز القـــوات المصرية سحابات من الرمال المتناثرة خلفتها ضربات الدبابات الإسرائيلية . وكانت الطائرات الإسرائيلية تقوم بالطلعة وراء الأخرى ، قاذفة بالقنابل المحرقة وحاملة النابالم . وبدأت القوات المصرية تنسحب من الممرات فى صحراء سيناء ، إلى قناة السويس ، بعد تكبدها خسائر فادحة .

ومع صباح ٦ يونية علمت القاهرة كلها بأخبار الهزيمة . وعلم عبد الناصر أيضاً بالوضع المتردى على الجبهة الأردنية ، إذ استولى العدو على القدس. طلب مجلس الأمن فى ذات اليوم وقف العمليات العسكرية .

وقرر عبد الناصر رغم كل هذا ، أنه فى إمكان القوات المصرية أن تتماسك وتصمد ، على الأقل على الضفة الشرقية لقناة السويس . حيث كان قد أعطى المشير عامر أمراً بالإنسحاب الفورى للقوات إلى الضفة الغربية .

استمرت القوات الإسرائيلية فى يوم ٧ يونيو فى هجماتها . قبلت مصر فى ٨ يونيو اقتراح مجلس الأمن الخاص بوقف إطلاق النار . فى الوقت الذى كانت القوات الإسرائيلية مستمرة فى تنفيذ عملياتها العسكرية على الضفة الشرقية للقناة. وأصبح الطريق مفتوحا أمامها للقاهرة ...

وإزداد الموقف خطورة وتعقيداً .

تم لقاء لقيادات الأحزاب الشيوعية ، وأيضاً لرؤساء الحكومات الاشتراكية فى موسكو فى يوم ٩ يونيه .

طالبت الحكومات الاشتراكية فى بيان خاص ، بأن توقف سرائيل فوراً عملياتها العسكرية وأن تسحب قواتها من الأراضى العربية المحتلة إلى خطوط الهدنة . وأعلنت الحكومة السوفيتية الولايات المتحدة بهذا البيان حتى توقف إسرائيل عملياتها العسكرية .

وأرغمت إسرائيل على التسليم بذلك .

وما أن مر اليوم الثالث على العدوان الإسرائيلى حتى كتب

الصهيونى « جون كيمش » فى الجريدة الإنجليزية « إيفنج ستندر » أن عبد الناصر مهموم بأحمال ثقيلة . حيث أن القيادة العسكرية أخذت جانب المعارضة له . » وأكد كيميش أيضاً أنه — بالتأكيد قد وقع فى القاهرة انقلاب عسكرى » .

وها هو واقع وحقيقة ما حدث . .

يوم ٨ يونية تم فى المبنى الضخم والجديد للقيادة العامة ، والواقع فى ضواحى القاهرة ، إجتماع للقيادة ، تكلم فيه كل من المشير عامر ووزير الحربية شمس بدران . وفى اليوم التالى حضر الرئيس عبد الناصر تلبية لدعوة من القيادة العامة . وفيه سأل وزير الحربية ناصر مثبتا نظره عليه :

— ما رأى فخامتكم فيما حدث ؟

فجاء رد عبد الناصر هادئا :

— الموقف معقد جداً .

وكان فى نية عبد الناصر مناقشة الوضع مع القادة .

ثم عاود بدران سؤاله مرة أخرى للرئيس :

— ومن المسئول عن الهزيمة ؟

وأحس عبد الناصر أن فى حديث بدران نبرة استخفاف — وسأل بحذر — مدركا . أن المجتمعين قد أعدوا خطة ما :

— أترى أنه من الملائم مناقشة مثل هذا الموضوع الآن ؟

أجابه وزير الحربية :

— بالقطع . . وعضده فى كلامه فى نفس اللحظة قائد آخر. وهو جلال عبد الله . فكان واضحاً أن القادة يخشون تبعة يكونوا هم المسئولون مباشرة عن الإجابة عن سبب الهزيمة .

أجاب رئيس الوزراء زكريا محي الدين متدخلا فى الحديث:

— نحن جميعا مسئولون .

أجاب شمس بدران محدقا بنظره فى عينى عبد الناصر .

— ولكن الأمر أصدره الرئيس ولم نصدره نحن .

دار هذا الحديث يوم الخميس وكان اليوم التالى يوم الجمعة . . . وفيه تقام صلاة تقليدية فى مسجد الحسين . . . حيث تتوافد عليه عادة جماعات شعبية كبيرة من مختلف أنحاء البلاد .

تابع عبد الناصر حديثه قائلا :

— حسناً . . كنت سأقدم استقالتى غداً فى المسجد ، ولكن سأعلنها مساء اليوم . لو كان هذا هو ماتريدونه .

وظهر عبد الناصر شاحباً متعباً مكتئباً على شاشات التليفزيون .

هذا الصوت كم من مرة سمعته مصر كلها . كان يخطب من قبل

بقوة وحماس . يستمع إليه اللغويون والمتخصصون فى اللغة فى دهشة ، ذلك أنه إذا ما تحدث ، تأتى لغته وبها لكنة إسكندرانية ، مستعملا لغة الشارع ، مبتعداً عن أصول وقواعد اللغة الأدبية ، إلا أنه كان مفهوماً واضحاً لكل أبناء البلاد العربية .

حقيقة أنه كان دائماً يتحدث عن الإنتصارات عن نجاحات الثورة ، السيطرة على النيل ، إنهاء العدوان الثلاثى ، والقضاء على الإقطاع ، محاربة البطالة ، محاربة الفقر والعوز ، فاقترنت الكثير من الإنتصارات باسم عبد الناصر .

... وتستمع الجماهير لخطابه . تلك الجماهير التى لا تعرف القراءة والكتابة فتردد وراء الخطيب تلك الكلمات الجديدة عليها غير المألوفة بالنسبة لها . وتعلموا منه معنى « الثورة » ، « التطور » « الاشتراكية » ...

الاشتراكية . وما هى معانيها ؟ .

هى « بيت سعيد » ، هى « ضمان العمل » ، هى « العدالة » هكذا كان تفسير وشرح ناصر لأفكار الثورة للعامة والبسطاء .

ولكنه فى هذه المرة ، أعتزم الحديث عن شيء آخر ... شيء مختلف تماماً ... « هذه ساعة للعمل ، وليست ساعة للحزن » بهذه الكلمات بدأ ناصر أكثر أحاديثه شهرة وتأثيرا .

« أيها المصريون .. إن قلبي .. دائماً معكم .. » بصوت حزين متقطع ، تحدث عبد الناصر للشعب عن النجاحات التي تحققت بعد الثورة ، ثم كيف يعيش الوطن الآن محنة قاسية .

أخذ ناصر على عاتقه المسئولية كاملة عن الهزيمة . « أما عن باقي حياتي فقد قررت أن أعيشها كأي مواطن عادي بجوار مواطني بلدي » .

وأعلن قراره بالاستقالة ، ووعد بأنه لن يتدخل في السياسة بعد الآن .

« وليكن زكريا محي الدين رئيسكم » قالها عبد الناصر مقدماً زكريا محي الدين .

عندما بدأ خطاب عبد الناصر في التليفزيون ، كان القادة ما زالوا مجتمعين . وذهلوا جميعاً عند سماع ناصر يعلن إسم زكريا محي الدين خليفة له ، إذ أن رأيهم كان أنه لا رئيس جديد إلا عبد الحكيم عامر .

ولكن الآن وبعد خطاب عبد الناصر ، شعر عامر أنه كقائد عام يجب عليه أن يتصرف هو أيضاً فأعلن بعد دقائق معدودة إستقالته .

وكان هذا هو أول حدث من نوعه في تاريخ مصر ؛ أن يحدث

خطاب مسئول سياسى مثل هذا التأثير المذهل فالمذيع الذى قدم الرئيس للميكرفون ، أراد أن يعقب بشيء ما ، فلم يقو إلا على السكوت والبكاء .

وفى أكبر شوارع القاهرة كان الرجال والنساء ينتحبون .

فى هذه اللحظات كانت تعلو صفارات الإنذار ، التى كانت تدوى عادة لإخطار السكان بالغارات الجوية وتمهيداً لدوى إنفجارات هائلة . واعتقد الناس أنها ليست إلا بداية جديدة لإحدى الغارات الاسرائيلية .

ولكن لم يترك أحد الشارع ، رغم محاولات بعض رجال الأمن المضطربين لتفريق التجمعات ! وكانت جميع تلك المحاولات بدون نتيجة ، واتجه القاهريون على ضوء مشاعل أوراق الصحف وهم يهتفون « عد يا جمال » ، قودنا يا ناصر » إلى منشية البكرى حيث يعيش جمال .

هامت الكتلة البشرية طوال الليل فى شوارع القاهرة ، مئات الآلاف من المصريين ، وصلوا صباحاً إلى مبنى مجلس الأمة هاتفين « ناصر ! » « ناصر ! » ، مهددين بالتنكيل بالأعضاء الذين لا يقترعون مع جمال

جميع الشوارع فى منشية البكرى حتى وسط العاصمة ، كانت

مزدحمة بالمتظاهرين ، ملايين المصريين تدفقت من جميع أنحاء مصر إلى القاهرة

وهبت عاصفة المظاهرات المؤيدة لناصر ، لا فى مصر وحدها بل تعدتها إلى كل العواصم العربية الأخرى ، وظهر الطلبة العرب حاملين صور عبد الناصر أمام سفارات مصر فى البلاد المختلفة التى يدرسون بها .

واتجه زكريا محى الدين حاملا خطابه المعد إلى مبنى الاذاعة والتليفزيون إلا أن المتجمهرين أمام المدخل تصدوا له واعترضوا طريقه ، وفى هذه الأثناء أتخذ زكريا محى الدين قراراً . فبعد دقائق إتجهت سيارته إلى منشية البكرى.

— « جمال — إذا لم تقرر الآن سحب استقالتك ، سأطلق على نفسى الرصاص » قال هذا زكريا محى الدين ووضع أمامه المسدس وابتسم جمال ، وأخذ المسدس

وسحب الرئيس استقالته

« باسم الملايين — الذين يذكرون كيف أنك أشعلت الثورة بقيادتك الحكيمة لنا فى يوم ٢٣ يوليو ، باسمهم جميعا نقول لك لا . لا . أنت زعيمنا ورئيس جمهوريتنا ، وستظل قائدنا ورئيسنا» جاء هذا فى بيان لمجلس الأمة

« كنت أنوى تنفيذ قرارى الخاص بالاستقالة . . . ولكننى لم استطع أن أقاوم صوت الجماهير . ولهذا فإننى لن اتنازل عن منصبى ، سأظل فيه وفقاً لإرادة الجماهير ، لحين إزالة آثار العدوان . وسيجرى بعد هذا استفتاء عام » .

وعندما عرف الضباط الذين اشتركوا فى المعارك الأخيرة مع المعتدين بما جرى فى هيئة أركان الحرب سرعان ما طلبوا من القيادة العامة إجراء محاكمة عسكرية لأولائك الذين طالبوا بتنازل ناصر واتجهت قوة من مائة حارس من المكلفين بحراسة منزل عبد الناصر إلى القيادة العامة. وأعتقلوا شمس بدران والقادة وإن كان للحقيقة إن بعضاً منهم قد تمكن من الهرب .

وكأن ناصر قد ولد من جديد . فقد سانده الشعب وأحس عامر بالاستياء .

كان يتمنى أن يعامله الشعب كما يعامل جمال . وسرعان ما عرف أن القائد العام السابق ، سافر إلى موطنه الأصلى فى صعيد مصر. وإن كان ناصر قد أدرك مايمكن أن يفكر فيه صديقه لمعرفته القوية به .

وأصبح على عبد الناصر الآن أن يقرر أصعب مسألة : من أين يبدأ بناء الجيش ، وإعادة النظام إلى البلاد ؟ كان معروفا

لجمال خاصة فى فترة الاستقالة ، أن جزءاً من زملائه برئاسة زكريا محى الدين ، يعتقد أن الهزيمة العسكرية التى منيت بها مصر تحتم الإتجاه لأمريكا . وهذا ما يفسر اقتراح عبد الناصر بأن يكون زكريا محي الدين رئيساً .

فالأختيار كان واضحاً إما استمرار الحرب ، وإما الاتفاق مع أمريكا . وهذا الأخير فى حقيقته ليس إلا إجهاضاً لكل إنجازات الثورة . لقد اختار الشعب عبد الناصر وهذا يعنى أن المصريين على استعداد للاستمرار فى الحرب .

مسئولية الهزيمة تحملها بالطبع الجميع . وفى نفس الوقت كشف المصريون عن رؤوس الجريمة : غرور وتشيع البيروقراطية والتصاقها بالنظام ، أولاد الأغنياء المرتدين للزى العسكرى كحرفة أو منصب ، المستثمر المستغل الذى لم تمسه الثورة بعد .

هؤلاء الذين لا مبادىء لهم ، كانوا دخلاء وغرباء على مصالح البلاد .

ودب اليأس فى نفوس المصريين باتضاح حجم المأساة . وهو ما استغله أعداء الثورة . فبدأوا ينشرون إشاعات تهدف إلى إلقاء مسئولية الهزيمة على الاتحاد السوفيتى . وجند الرجعيون كل

قواهم لهدف واحد ، وهو الإساءة إلى الصداقة التقليدية المصرية السوفيتية .

ولكن لم تفلح حساباتهم . ففى ١٠ يونيو تسلم عبد الناصر رسالة ، أكد فيها الزعماء السوفيت للشعب المصرى وللرئيس عبد الناصر ، أن الاتحـــاد السوفيتى سيساعد لإعادة بناء القوة المصرية وإزالة آثار العدوان . وبعد عدة أيام طار الرئيس الأردنى لمجلس إتحاد الجمهوريات السوفيتية بود جورنى للقاهرة ، وعقد مع الرئيس ناصر العديد فى المحادثات .

وعندما نوقشت مسألة الاعتداء الإسرائيلى ، فى جلسة خاصة فى الجمعية العامة سافر شخصيا رئيس الوزراء السوفيتى كوسجين إلى نيويورك ، ليرأس بنفسه الوفد السوفيتى فى المحادثات فى الأمم المتحدة .

ولم يضيع ناصر ، بحيويته الخاصة ، دقيقة واحدة فى سبيل إعادة بناء القوات المسلحة وأجبر على الإستقالة ٥٠ قائداً وضابطاً برتب عالية .

طالب قادة فى الجيش فى ١١ يونيو بإعادة عامر إلى منصب القائد العـام . واتجهت ست عربات مدرعة لمنزل عبد الناصر ، ولم يخضع عبد الناصر لهذا التهديد .

وكان هذا الحادث هو بداية النزاع بين عبد الناصر وعامر وأدرك عبد الناصر أن جهاز القيادة العسكرى البيروقراطى برئاسة عامر لا يقدر على تنظيم دفاع البلاد .

كان عبد الناصر ، فى كل مرة يرى فيها ولديه ، خالد ، وعبد الحكيم يتذكر صداقته بمن سميا على إسميهما . أما خالد محيى الدين ، فقد ضحى بالصداقة من أجل تلك المبادىء التى آمن بها إيماناً قوياً ، وهو ما كان يعلمه جمال جيداً وصفح عنه .

والآن كان على ناصر نفسه أن يختار .

وصلت التقارير لعبد الناصر أن منزل عامر تحول إلى وكر للمتآمرين ، حيث يجتمع فيه الضباط . وحذر عبدالناصر عامر مرتين وطلب منه أن لا يعقد مثل هذه الاجتماعات المشبوهة .

وبالتدريج أصبح يجتمع فى منزل عامر محافظون لمحافظات مختلفة ، ووزراء الحربية والداخلية مما أثار شك قوات الأمن . وأصبح معروفاً أن عامر يتحدث أمام ضيوفه بصراحة ، منتقداً الطريق الذى تسلكه ج .ع .م . من وقت قيام الثورة . واعترض أول ما أعترض ، على التحولات الاجتماعيه . وطالب عامر أيضاً بالعفو عن كل المسجونين السياسيين (وأساسا الاخوان المسلمين ،

المعروفين بكراهيتهم الشديدة للنظام الثورى) معلناً أن هذا سيساعد على تعزيز الوحدة الوطنية .

فى هذا الوقت كانت الحركة النشطة لإعادة تنظيم الجيش قد بدأت فى مصر .

فى ١٩ يونيو شكل عبد الناصر حكومة جديدة . وبتماسك وصبر فسر للشعب أن « الهزيمة العسكرية لا تعنى الانهيار » وأن ج . ع . م لا يجب أن تحيد عن طريقها السابق . وهدفت الرجعية استغلال الظروف الصعبة التى تمر بها البلاد برفع الشعار الديماجوجى « الوحدة الوطنية » .

وتم لقاء فى ٢٩ يونيو بين عبد الناصر وعامر . طالب فيه الأخير بالإفراج عن كل القادة المعتقلين . ووافق عبد الناصر على ذلك . متمنيا تحقيق وحدة فعلية وطالبه بالكف عن الأعمال الانشقاقية . ولكن القادة الذين أفرج عنهم لم يعودوا إلى منازلهم بل توجهوا مباشرة إلى عامر فى بيته .

وأخذت حركة عامر طابعاً أكثر تحدياً . فبدأ عامر وأتباعه يوزعون وسط الضباط مذكرة محددين فيها المطالب التالية :

تعطيل نشاط الاتحاد الاشتراكى العربى ، الإفراج عن كل المعتقلين السياسيين ، وإنشاء حزب معارضة ، تحقيق حرية الصحافة

وإقامة الديمقراطية . وكان بدران فى نفس الوقت يجند المؤيدين من أفراد القوات المسلحة .

فى يوم ٢٦ يونيو إعتمد عامر على تأييد ٤٠٠ دارس من مدرسة المظلات للإستيـــلاء على قيادة الجيش . متصوراً أنه سيستطيع إعتماداً على تأييد الجيش له . أن يملى شروطه على عبد الناصر .

ولـكن تأخر الرفقاء . إذ وقعت تحت أيدى عبد الناصر كل الدلائل القاطعة على نشاطهم التآمرى . وقبض على المتآمرين قبل ٢٤ ساعة من قيامهم بحركتهم . ولـكن أبقى عبد الناصر أيضا على عامر : وأمره بالإعتكاف فى منزله . واتضحت أشياء جديدة حول الموضوع أثناء الاستجواب . وانـكشف أن أحد الرؤوس المدبرة لهذا الانقلاب كان شمس بدران ، الذى كان يريد شخصيا تشكيل الحكومة . واشترك فيه أيضا عدد من قيادات الجيش . الذين تركوا فرقهم أثناء القتال فى سيناء . . .

صرف إنقـــلاب العسكريين انتباه عبد الناصر عن المشكلة الرئيسية .

العدو مرابط على ضفة قناة السويس — القناة التى يعتبرها المصريون رمز استقلال بلادهم . وهؤلاء المعتـــدون ينظرونه

بغطرسة وغرور من أعلى قمم الجولان السورية. والجنود الاسرائيليون يغسلون ملابسهم فى مياه نهر الأردن . ورفرف العلم الاسرائيلى ذو نجمة داوود على قمة أحد المساجد الكبيرة فى القدس .

ولكن على الرغم من كل ذلك لم يتحقق الهدف الأساسى من العدوان .

فأولا يثق العرب فى النظم التقدمية . ولم « ينهار » أى نظام من تلك الأنظمة التقدمية ، كما كان يتوقع الإمبرياليون .

الشرق الأوسط كان يغلى غضبا . تقرر عقد مؤتمر للرؤساء العرب فى الخرطوم . .

ووقع على عاتق عبد الناصر مسئولية كبيرة . كيف يجسد أفكار الوحدة العربية ، كان يريد أن يصل إلى توحيد كل الحكومات العربية ، واتفاقها على استمرار الحرب ضد المعتدى ، وأن تساعد ليس فقط بالمشاركة المعنوية ، ولكن بأن تقدم المساعدة المادية أيضا للدول التى أضيرت فى وقت الحرب .

وكانت المعارك مستمرة على قناة السويس فى العديد من المواقع وعمل المصريون كل ما فى إمكانهم للتحكم فى نقطة أرضية كمدخل القناة . وكان هذا تأكيدا للأعضاء المشتركين فى مؤتمر قمة

الخرطوم أنه بالرغم من الهزيمة إلا أن الجيش المصرى أولا وأخيراً ما زال موجوداً .

وفى داخل المؤتمر تحدد وبسرعة اتجاهان · الاتجاه المعتدل ، والاتجاه الراديكالى .

فالدول العربية المرتبطة ارتباطاً وثيقا بأمريكا أو على سبيل المثال بالسعودية خشيت الإضرار بمصالحها الاقتصادية ، وهو ما حدث فى أغسطس سنة ١٩٦٨ ولم يأخذ بالإقتراح القائل بحظر تصدير البترول للدول التى تساعد إسرائيل .

وأصر ناصر على رأيه ، إذ أنه لم يشأ تعقيد الموقف ، فعلى العرب أن يظهروا وحدتهم · وهو ما استطاع تحقيقه . فتوصل إلى اتفاق مع السعودية حول مسألة اليمن . ورداً على انسحاب القوات العسكرية المصرية من اليمن ، وعد الملك فيصل ملك السعودية بالكف عن الاستمرار فى مساعدة الحكم الملكى اليمنى .

وهو ما مهد لحل مسألة هامة : هى موافقة الدول المنتجة للبترول على إعطاء مساعدات مالية للدول والحكومات العربية التى أضيرت بالعدوان فحصلت مصر على ٩٥ مليون جنيه استرلينى سنوياً كتعويض عن إغلاق قناة السويس المؤقت . وكان من نتائج مؤتمر الخرطوم أن الدول العربية وقفت مع استمرار المعركة مع العدو الإسرائيلى .

فى ١٣ سبتمبر طلبت المحكمة العسكرية مثول عبدالحكيم عامر أمامها للاستجواب .

واحتراما لتاريخ خدمة عامر ، اتجه القائد العام الجديد الفريق محمد فوزى لإبلاغه هذا الخبر ومعه قائدالاركان عبدالمنعم رياض .

رفض عامر الإدلاء بشهادته . وعلى أثر سماعه لهما وعصبيته فى حديثهما دخل حجرة نومه . بعد أن فعل شيئاً ما . وعاد ناظرا فى ساعته .

وعندما عاود الحديث معهما ، لاحظ الفريق رياض أن عامر يمضغ شيئا .

وبعد هذا حدث له شيء ما غير مألوف .

وسأله رياض بعد إدراكه أن عامر يفقد وعيه . ما الأمر .

فأجابه بأنه « أى عامر » تناول سما .

وتوا نقل عامر إلى مستشفى المعادى العسكرى ، وأجريت له عملية غسيل معدة وبعد ساعة تحسنت حالته ، وتحت الحراسة نقل إلى فيللته .

استيقظ عامر متأخراً فى اليوم التالى . فحصه الأطباء . فكان التنفس طبيعيا ، ولم يبق أثر فى معدته . ولكنه كان يشكو من

الإعياء . قدم له الطبيب على الغذاء كوبا من عصير الجوافة ومعه قرصان من الدواء . وعاود المشير بعد ذلك النوم .

وفى السادسة مساءاً لاحظ النبوتجى أن عامر استيقظ ودخل الحمام .

وبعد بضع دقائق أسرع أحد الممرضين إلى الدكتور معلقاً أن المشير وقع فاقداً الوعى ، ولم تفلح محاولات إعادته لوعيه . وعندما وصلت عربة الإسعاف من مستشفى المعادى كان عامر قد فارق الحياة .

قطعت إذاعة صوت العرب برامجها فى يوم ١٥ سبتمبر معلنة أن القائد العام السابق للقوات المسلحة المصرية عبد الحكيم عامر مات منتحراً بتناوله السم .

كان عبد الناصر فى هذا الوقت فى الإسكندرية للإستجمام . وما أن سمع الخبر حتى عاد للقاهرة مسرعاً فى نفس اللحظة .

دخل عبدالناصر المنزل الذى رقد فيه جثمان صديقه فى الساعة العاشرة مساء ... وبدأ زملاؤه أعضاء مجلس قيادة الثورة يتبعون الواحد تلو الآخر .

« إن ما حدث لعامر لا يمحو نضاله فى تلك السنوات التى

شارك فيها فى المعارك كصديق وأخ لعبد الناصر ..» هذا ما كتبته جريدة الأهرام فى اليوم التالى .

ولكن من الجدير بالملاحظة أن القائد العام السابق ، لم يسرع بإزالة سيطرة التقاليد القديمة فى الجيش . ومنها أولا عدم وصول العساكر والضباط الشبان من أبنـــاء الشعب إلى المراكز القيادية . بالإضافة إلى كونه لم يول الاهتمام الكافى موضوع الضبط والربط فى صفوف الجيش .

قدم المحاكمة بعد ثلاثة أشهر ونصف ٥٥ شخصاً لمسئوليتهم عن القيام بمحاولة إنقلاب ، هادفين بذلك إلى إحداث تغير فى نظام الحكم عن طريق القوة العسكرية .

وكشفت الدلائل والحقائق عند محاكمة المتهمين الحجاب عن نوع العلاقات التى كانت موجودة بين عبد الناصر والمحيطين به فى فترة ما قبل حرب يونيو ، وضح أن الصفوة العسكرية وعلى رأسها الوزير الحربى بدران لم تكن تذعن لأوامر عبد الناصر . بل إنها فى حقيقة الأمر فرضت نفسها فوق الحكومة . فكثيراً ما كان يقدم بدران لعبد الناصر معلومات كاذبة عن عمد . وخاصة بعد رحلته للاتحاد السوفيتى غداة العدوان العسكرى الإسرائيلى . ففى تقريرة المقدم إلى عبد الناصر ، حرف وزير الحربية مضمون المحادثات مع القادة السوفيت .

ولم يشأ رئيس ج.ع.م أن ينتقم من زملائه السابقين . فأصدرت المحكمة العسكرية أحكاماً مخففة . وبصفة عامة برأت العديد من المحرضين على الإنقلاب . ولكن سرعان ما قامت المظاهرات الشعبية فى القاهرة بعد عدة أيام . طالب المشتركون فيها بإعادة ومراجعة الاحكام .

الشعب يعلم من المذنب والمتسبب فى الهزيمة . وانعقدت المحكمة مرة أخرى وأصدرت أحكاما بالأشغال الشاقة المؤبدة على أكثر المتآمرين نشاطاً .

فى ٢١ فبراير سنة ١٩٦٨ أثناء المظاهرات التى نظمها الاتحاد الاشتراكى العربى خرج سكان حلوان — وهى واحدة من أكبر المدن العمالية فى ضواحى القاهرة . أيد فيها العمال طلبة جامعة القاهرة — وللطلبة دور كبير فى الحياة السياسية فى مصر — طالبوا فيها الحكومة بالإسراع بإصلاح الأخطاء التى وقعت فى فترة الحرب ، ومحاربة الرجعية بحسم .

أعاد ناصر تشكيل الحكومة . أعفى زكريا محى الدين من منصب رئيس الوزراء . وأخرج من الوزارة ضباطا أربعة إدراكا منه بعدم شعبية العسكريين مستبدلا إياهم بأربعة أساتذة مدنيين من الجامعات .

وخطب عبد الناصر فى مارس وسط عمال حلوان . وهو الذى أكد فى تلك الايام فى حديث له مع الصحفيين مرة أخرى أن إسرائيل تتبع مع العرب الآن سياسة الحرب الباردة .

« إن إسرائيل تدعى أن مليونى إسرائيلى هزموا مائة مليون عربى .

فالمسألة مائة مليون عربى لم يستخدموا إمكانياتهم ، لم يجمعوا كل قواهم . . .

بينما معسكر القوى الإمبريالية الذى وقف ضد العرب ، فكان سنداً كبيرا لإسرائيل وقويا للغاية . .

إننا خسرنا معركة . . والهزيمة ليست جريمة . . ولكن الجريمة أن نحيد عن مبادئنا » .

لم يكن فى مصر كلها فرد لم يسمع خطب عبد الناصر الحماسية .

« العمال يقاتلون من أجل حقوقهم ، والفلاحون يقاتلون من أجل حقوقهم ، والطلبة أيضا يقاتلون من أجل حقوقهم ، كل قوى الشعب العاملة تدافع عن حقوقها » .

يشرح عبد الناصر هذا بطريقته الخاصة — مدركا أن كلماته ستصل وسيفهمها كل فرد حتى العامى منهم — وبالطبع فإنه فى أيام

الأزمة وأيام الهزيمة التى نعيشها الآن تظهر أيضا القوى الإنتهازية»

ولكن — أضاف عبد الناصر مقنعا الجماهير — إن تطور البلد فى مجمله يعتمد علينا نحن . مصير الثورة مرتبط بنا نحن ، فإذا أردنا أن تستمر وإذا كنا حقيقة نريد بناء البلد .. فعلينا إذا أن نتماسك » .

من المشكوك فيه أن نجد فى مثل هذه الأيام كلمات تؤثر بقوة فى الناس مثل كلمات عبد الناصر . لقد ضحى عبد الناصر بنفسه ، وهو ما كان يعلمه كل فرد فى مصر .

اختلف شكل عبد الناصر كثيرا عن ما كان عليه فى أيام شبابه عندما كان يوزباشى . فمشيته اختلفت كثيرا عن أيام اليوزباشى «جيمى» ، الذى كان يتنزه بلاهدف مع أصدقائه فى ضواحى منقباد . فهى الآن ثقيلة — حزينة تدل على المتاعب الدائمة و يعبر شيب شعره عن الشعور بالمسئولية عن البلد .. تلك المسئولية التى لم يتهرب منها أبداً . ومنذ اليوم الذى كانت فيه ج . ع . م على حافة الهاوية لم يغادر منزله إلا فى القليل النادر .

وفى حديث له فى تلك الفترة سئل سؤالا خبيثا وإن كان يبدو عادياً « ألم يتمنى جمال عبد الناصر بعد مرور سنوات عديدة حرم فيها من سعادة الحياة المادية الإنسانية أن يكف عن قيادة مصر ؟ »

وفكر عبد الناصر . . حقيقة إنه حرم من الكثير ، فهو مثلا لم يعد يستطيع التجول براحته فى شوارع القاهرة . . أو أن يجلس على مقعد فى مكان عام وأن يتحدث مع المارة وكان هذا فقط ما يتعلق بالجانب الخارجى ولكن الصحفيين كانوا يهدفون بسؤالهم إلى شىء آخر ، وهو ألا يتمنى عبد الناصر الآن وبعد الهزيمة أن لا يكون مصيره قد ارتبط بثورة سنة ١٩٥٢ ؟ .

— لا — أجاب عبد الناصر فى النهاية — أنا لست بنادم على حرمانى من متع الحياة الخاصة .

فأنا عندما أتذكر هذه السنوات الخمس عشرة فأعتقد أننا استطعنا فى خلالها أن نفعل الكثير . . . فالثورة أعطت حق العمل للجميع ، إزداد دخلنا القومى ٦ مرات . عندنا الآن المدارس والمستشفيات ، أطفالنا يستطيعون إكمال تعليمهم وفقا لقدراتهم وليس بفضل وضع آبائهم فى المجتمع .

فابنتى على سبيل المثال لم تستطع الإلتحاق بجامعة القاهرة لأن مجموعها يقل نمرتين . وابن سائق تمكن من دخول الجامعة .

بعد الحرب شعر الشعب المصرى كما لم يشعر من قبل بقيمة التغيرات التى حدثت فى البلد بعد سنوات الثورة . الجماهير الشعبية بدأت تتحرك ونشطت الحياة السياسية .

نجح عبد الناصر فى أن يتلمس نبض البلد — ومهدت اللقاءات العديدة مع العمال والفلاحين وممثلى المثقفين لحدث حاسم . فى ٣٠ مارس أعلن عبد الناصر بيانه . وطالب عبد الناصر فى خطابه فى هذا اليوم بتدعيم الإتحاد الإشتراكى كتنظيم سياسى ، وكذلك محاربة البيروقراطية وأكد بشدة على أهمية بناء الإشتراكية فى البلاد ، وتجنيد كل مصادر الجمهورية العربية لتحقيق هدف واحد ألا وهو تحرير الأرض المحتلة .

وطالب عبد الناصر كل مصرى بالعمل بكل قواه لتحقيق النصر فقال :

« لعبد الناصر عينان فقط ، ولديه ٢٤ ساعة فقط فى اليوم . . . ونحن فى مصر ٣٠ مليون ... لكل واحد عينان : . كل واحد فينا يرى .. إننا نستطيع أن نحارب معا الرجعية ، إننا نستطيع أن ننتصر على أى عدو .. إذا ما شعر كل فرد بمسئوليته عن نفسه وعن بيته وعن أولاده »

وأضاف قائلا :

« أنا عاوز أقول الآتى .. إذا كنا بنعيش فى دولة تفجرت فيها ثورة .. فيجب علينا إذا أن نقف ضد أعداء الثورة . من هم أعداء الثورة ؟ أعداء الثورة هم تحالف الإقطاعيين والرأسماليين ، تحالف الامبريالية والرجعية » .

« الخطوة الأولى التى يجب علينا إتخاذها — هى إعادة إنشاء القوات المسلحة . دعم الإقتصاد ، إن قنـــاة "سويس مغلقة . . فيجب علينا أن نحصل على أموال من مصادر أخرى تعوض الأموال التى كنا نحصل عليها من تشغيلها — زيادة طاقة الصناعة الثقيلة والتى أنشأت بالدم فى السنوات الماضية للمعركة .

المـال — هو عصب الحرب ، كيف نحارب إذاً ولم ندعم إقتصاديا ! »

وعاد عبد الناصر وشرح ما هى الثورة بقوله :

« الثورة هى اختيار الطريق الصعب .. إننـا لم نختر الطرق السهلة ... إذا ما جاء اليوم الذى نختار فيه الطرق السهلة .. ففيه نـكف عن أن نـكون ثواراً .

الطريق السهل — يعنى رفض كل الخطط الجديدة ، الرغبة فى الحياة كما نعيش اليوم . الذى يجد عملا يعمل والذى لا يجده لا يعمل — كل فرد حر .. وكل فرد يلبى حاجته . هـذا هو الطريق السهل

أما الطريق الصعب فهو صعب لأنه يحتم التغيير تغيير المجتمع ، وخلق المساواة القـائمة على أساس من الـكرامة والحرية والاشتراكية »

أكد البيان على الدور الرئيسى للعمال فى مختلف مجالات النشاط ، وعلى أهمية النقابات . وأشارت أيضاً هذه الوثيقة إلى أهمية تدعيم وحدة الشعب والجيش . وجاء فيها أيضاً أنه من الضرورى إعداد دستور جديد يتمشى ومستوى التطور فى البلد .

بهذا يكون البيان قد أكد على الأفكار التى سبق واتخذت قبل الحرب فى ميثاق العمل الوطنى . وفى نفس الوقت فإنهما يكونان الآن قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بالواجبات العصرية والمحددة التى تواجه الجمهورية العربية المتحدة .

فنجد على سبيل المثال أن البيان حدد المفهوم القاطع للوحدة الوطنية . وقد تفجر نقاش واسع حول هذا المصطلح ، خاصة بعد أحداث هزيمة سنة ١٩٦٧ فطالب البعض بعودة أصحاب الملكيات المؤممة السابقين كى تتحقق الوحدة الوطنية . وكشف عبد الناصر على الدور الجوهر الطبقى لهؤلاء الذين نادوا بمثل هذه الشعارات وهى طلبات كان مصدرها أساساً الرجعيين ، منطلقين من موقف الاستغلال . فتحدث البيان مباشرة عن أن الدور القيادى فى « الوحدة الوطنية » يجب أن يكون لطبقة العمال ويجسدها من خلال التنظيم السياسى .. الاتحاد الاشتراكى .

أجرى فى ٢ مايو إستفتاء عام حول ما أكد عليه البيان . وعلى أثره أجريت انتخابات المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى

العربي ، الذى بدأ نشاطه فى ٢٣ يوليو . وكان روح كل هذه الأحداث هو ناصر .

شعر عبد الناصر بالتعب فى صيف سنة ١٩٦٨ . أكد الأطباء أن مرض السكر ازداد عليه . ووفقاً لنصائح الأطباء المعالجين ، سافر عبد الناصر للعلاج فى الاتحاد السوفيتى . وقد أدهش الأطباء المعالجين بقوة إرادته و بنظامه ، فى نفس اللحظة التى منعه فيها الأطباء من التدخين ، أخرج من جيبه السجائر والولاعة وأهداهما للمترجم . ولم يستطع عبد الناصر البعد عن الوطن لأكثر من شهر ، ورغم إرشادات الأطباء بأهمية الاستمرار فى العلاج . . عاد فالوطن كان يتطلب تواجده هو شخصياً .

مع بداية سبتمبر سنة ١٩٦٨ بدأت المدفعية المصرية فى الرد على اعتداءات العدو بالقصف على مواقع القوات الإسرائيلية على القناة . فدمرت بشدة المنشآت الدفاعية للعدو على الضفة الشرقية من قناة السويس ، التى أقيمت لتعزيز قوة خط الدفاع « بارليف » وكان عبد الناصر يكرر دائماً أن الشعب المصرى ليس وحده فى المعركة ، فالاتحاد السوفيتى والبلاد الاشتراكية الأخرى تقف معه وتساعده .

فى نفس الوقت كان المحتلون مستمرون فى اختبار مدى صبر المصريين . ففى أحد أيام أكتوبر سنة ١٩٦٨ اخترقت المدمرة

الإسرائيلية إيلات مياه خليج بورسعيد . وصدر الأمر بفتح النيران من أحد الزوارق الصاروخية المصرية . وعلى أثر أول صاروخ تهاوت المدمرة إيلات .

من هنا بدأت إسرائيل فى قصف المدن الواقعة على امتداد القناة . واشتعلت النيران فى مصنع تكرير البترول فى السويس . فكان أمر عبد الناصر بإخلاء وتهجير السكان المدنيين من المنطقة إلى عمق ج. ع. م.

وكان إغراق « إيلات » يعتبر أول نصر مصرى بعد حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . زد على ذلك أثبت فعالية وكفاءة السلاح السوفيتى .

غير أنه فى نوفمبر سنة ١٩٦٨ بدأت حالة تذمر بين الطلبة ، وهى كما وضح كانت بإيعاز من الرجعية .

وقد وصف عبد الناصر فى خطابه أمام المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى العربى تلك المظاهرات بأنها « غير مسئولة » وضد الثورة ، وطالب الطلبة بتقوية وتعزيز الوحدة الوطنية وحذرهم من أن الحكومة لن تتحمل أى محاولة للاخلال بالأمن .

(*) هذا رأى الكاتب ، وإن كنا نختلف معه . فظاهرات ١٩٦٨ انفجرت احتجاجا على أحكام الطيران وكان بيان ٣٠ مارس استجابة لمطالب الجماهير فيها .
(الناشر)

وعاد عبد الناصر بعد إلقاء خطابه إلى منزله . فشعر بتعب شديد . وبعد ارتداء البيجاما ، جلس على حافة السرير ، ووضع قدميه فى إناء ملىء بالماء الساخن « طريقة قديمـــة لعلاج كل داء » يعرفها جيـــداً فلاحو بنى مر . وأدار الراديو الترانزستور . فهو يعرف تماماً متى وأين الموجات التى يجب تغييرها للوصول لمحطات أخرى . ومن الواحدة تلو الأخرى كان المذيعون يقرأون ملخصاً للأنباء : باريس ، لندن ، موسكو ، بيروت ، القاهرة . يقدمون عرضاً للحفل الذى عاد هو منه فى التو . وفى الحجرة تعالت أصوات وزفير آلاف الجماهير « بالروح ، بالدم ، نفديك يا جمال ! » .

وحتى فى هذه الساعات المتأخرة ، عندما ينام جميع من فى البيت ، باستثناء ابنته هدى ، يظل عبد الناصر يعمل . وهدى لا تخلد للنوم طوال سهر والدها ، فهى جالسة بجواره وبيدها ورقة وقلماً . . منتظرة سماع ندائه لهـا ، طالبـاً منها تدوين شيئاً ما .

فى بعض الأحيان كان ناصر لا يقوم بعمل شىء فى المنزل مساءاً من كثرة الإرهاق . وكانت الذكريات كحمل ثقيل .

حزن عبد الناصر بعد وفاة عامر ، فقد كانت تربط بينهما صداقة قوية ، وقد كان شخصاً يمكن الاعتماد عليه وتنظر إليه الملايين بحب وأمل .

« أيها المواطنون! إنذار! خذوا أماكنكم فى المخابىء وانتظروا الأوامر التالية! ».

ترددت هذه الكلمات فى مكبرات الصوت، وأصبحت مألوفة للأشخاص الذين ظلوا يعيشون فى المدن الواقعة فى منطقة القناة، بور سعيد. وبور توفيق، وبور فؤاد، والاسماعيلية، والقنطرة، كانت جميعها معرضة وبانتظام لقصف المدفعية والقصف الجوى فظهرت ثغرات سوداء فى حوائط المنازل، وتناثرت أشلاء المبانى تحت الأقدام، ويصفر الهواء فى الكنائس التى مالت الصلبان على جوانبها، وفى المساجد التى إنهارت قبابها، واحترقت شجيرات المانجو والبرتقال. وتناثرت على الأرض بقايا شظايا القذائف.

وما أن يعلن الإنذار حتى يتصل ضابط الاتصال المقيم فى إحدى المناطق القريبة من الضرب بالقاهرة. مبلغاً سير عمليات القصف، التى يقوم بها المصريون ضد الإسرائيليين، وهى بدورها تبلغ فوراً، بتليفون خاص ومباشر لعبد الناصر. وعادة ما كان يقطع كل الأعمال ويدرس باهتمام هذه النشرات. فتلك العمليات كانت تجعل العدو فى حالة قلق دائم، وتجعل الجيش المصرى أيضاً فى حالة استعداد للحرب. وكان عبد الناصر مدركا أن الجيش

ما زال فى حاجة إلى مزيد من الوقت والجهد ليصبح فى وضع يمكنه من القيام بمهمة أكبر تعقيداً .

وكان قرار مجلس الأمن فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٧ يعد الأساس للحل السياسى لأزمة الشرق الأوسط ، والذى أشير فيه إلى حتمية إنسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى العربية المحتلة. وصوت على هذا القرار كل من الاتحاد السوفيتى وحكومات أوربا الشرقية وأغلبية الدول النامية . . . ومنذ هذا الوقت وناصر كان يؤيد أية محاولة تخدم تطبيق هذا القرار وسريان مفعوله .

وطلب أوثانت سكرتير الأمم المتحدة من الدبلوماسى السويدى يارنج أن يكون مندوبه الخاص فى الشرق الأوسط . وسافر يارنج فوراً إلى المنطقة، وبدأ يجرى إتصالات مع الحكومات العربية وإسرائيل . ولكن إسرائيل رفضت الاعتراف بقرار مجلس الأمن .

واستناداً على تأييد أمريكا قام الحكام الإسرائيليين بعمل كل شىء من أجل تعطيل وإفشال مهمة يارنج . فأولا رفضت إسرائيل الإنسحاب من الأراضى العربية ، وطالبت بالمفاوضات المباشرة مع الدول العربية ، حتى تكون ظروف احتلال جزء من أراضيها عامل ضغط وإنتقاص من استقلالها .

عقد عبد الناصر منذ البداية على الحرب الدبلوماسية آمالا كبيرة .

وفى سنة ١٩٦٩ وقع حادثان غيرا تغييراً عميقاً موقف الجمهورية العربية المتحدة .

ففى مايو سنة ١٩٦٩ وصل إلى الحكم فى السودان أثر إنقلاب عسكرى ، سياسيون استطاع عبد الناصر أن يقيم معهم علاقات قوية .

ووقعت فى سبتمبر ثورة فى ليبيا . كان قائدها القذافى الذى عرف فى القاهرة بأنه أثناء الاعتداء الإسرائيلى فى سنة ١٩٦٧ على مصر ، حاول أن يجتاز بفرقته الحدود الليبية ، هادفاً مقاتلة المعتدين . وأصبح الآن على كل من الأمريكيين والإنجليز تصفية قواعدهم العسكرية فى ليبيا فورا . تلك القواعد التى كانت تمثل تهديدا لأمن الجمهورية العربية . وسافر عبد الناصر لليبيا لحضور الاحتفالات بمناسبة الجلاء عن القاعدة الجوية الأمريكية العسكرية . واستقبلت الجماهير الليبيـــة المبتهجة عبد الناصر استقبالا حافلا .

بينما كانت الأمور الداخلية قد بدأت فى التحسن ، فها هو عبد الناصر يعلن فى يوليو أنه ولأول مرة بعد ثلاثين عاماً يحدث

توازن فى ميزان التجارة الخارجية. وأن ثلثى صادرات مصر تصدر إلى الدول الاشتراكية .

فى سنة ١٩٧٠ كان يجب البدء فى تشغيل العمل فى السد العالى بمساعدة الاتحاد السوفيتى . وأستمر ناصر فى ضربه لأصحاب المشاريع الخاصة . وأقترح منح ٧٠٠ ألف فدان من الأراضى المستصلحة نتيجة لبناء سد أسوان ، إلى التعاونيات الحكومية .

وفى سبتمبر سنة ١٩٦٩ أصيب عبد الناصر بجلطة . وعاش فى إحدى الفيلات وسط حدائق القناطر الخيرية ، على بعد عدة كيلو مترات من القاهرة .

وكان الجميع لا يعلم مدى خطورة حالة عبد الناصر ، إلا أنه الرئيس كان دائماً محيطاً بكل الأمور .

فى هذه الأيام كانت قوات الصاعقة قد بدأت تقوم بعمليات فدائية فى الأراضى المحتلة . كذلك الطيارون المصريون بدأوا بطلعاتهم القتالية .

وكان مجلس الوزراء يجتمع يوم الأحد من كل أسبوع . وفى يوم السبت يجتمع أربعة أو خمسة وزراء لبحث المشاكل الاقتصادية ولم يصبر عبد الناصر على هذا الوضع ، وانتقل للعمل بالقاهرة .

أراد الإسرائيليون الإيهام بأنهم لا ينوون الإنسحاب من القدس ، ولا من مرتفعات الجولان ، ولا من بعض المناطق فى الضفة الغربية لنهر الأردن ، ولا شرم الشيخ ، ولا من ممرات سيناء التى تؤدى إلى شاطىء خليج العقبة الغربى ، ثم فيما بعد أعلنوا أنهم سيبقون أيضاً فى غزة .

وأعلنت إسرائيل أنها ستدافع عن هذه الإدعاءات بالقوة .

وفى صباح أحد أيام شهر يناير الباردة ، مرقت طائرة ميراج إسرائيلية فكادت تلمس أسطح منازل ضواحى القاهرة بسرعة مذهلة . موزعة الإنفجارات المكثفة الرهيبة .

وبذا بدأت الغارات الإسرائيلية فى عمق الجمهورية العربية المتحدة . فالصقور الإسرائيلية : كانت تقوم كل ثلاثة أو أربعة أيام بطلعات همجية فاسقطوا القنابل على ضواحى العاصمة ، المعادى ، حلوان ، وأنزلت بعض قوات المظلات على ضفة البحر الأحمر ، ونجع حمادى .

وفى الصباح الباكر ليوم من أيام مارس ، فى مصنع الحديد والصلب بأبى زعبل . فى وقت استلام عمال الصباح لعملهم ، أغارت الطائرات الميراج الإسرائيلية وقصفته بالقنابل .

ولم يهتز المصريون ، بل زاد معدل الإنتاج فى مصانع البلاد ،

وأعلن عبد الناصر أمام العالم كله أن إسرائيل ليست المسئولة الوحيدة عن هذا الإعتداء بل أيضاً الدول الاستعمارية التى تمدها بالطائرات المغيرة .

واستمرت إسرائيل فى اعتداءاتها ، واختارت فى هذه المرة هدفاً لصواريخها مدرسة أطفال إبتدائية . فى قرية بحر البقر — لا يوجد حولها - مثل أبو زعبل - أية أهداف عسكرية .

وأدرك عبد الناصر أنه يجب بدون تباطؤ القضاء على هذه الهجمات . فسافر إلى الاتحاد السوفيتى . وسرعان ما بدأ تفريغ شحنات الأسلحة السوفيتية الجديدة بميناء الإسكندرية . تلك الأسلحة التى كانت ضرورية للدفاع عن الوطن .

وذهبت جميع المحاولات لحل مشكلة الشرق الأوسط على أساس من قرار مجلس الأمن بدون جدوى بسبب رفض إسرائيل القاطع والمستمر له .

فلم تعط رحلات يارنج العديدة أى تأثير إيجابى . كما لم يعط اجتماع القمة الرباعى بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا وانجلترا وفرنسا أية نتائج مثمرة وكذا كان الحال بين ممثلى القمة الثنائى بين أمريكا وروسيا .

وكان للنجاح فى صد العديد من الغارات الإسرائيلية باستخدام

محطات الصواريخ أثر أكيد ... وأدرك عبد الناصر أن الحرب الجديدة ستكبد البلاد خسائر جسيمة ، ولهذا لم يرغب فى أن يفوت أية إمكانية ولو ضئيلة لحل النزاع سلميا .

وفى أول مايو فى أرض شبرا الخيمة حيث كان العمال فى الثلاثينات ينظمون الاحتفال بأول مايو ، أقيم سرادق ضخم ضم مئات الآلاف من العمال استمعوا لخطاب الرئيس فى احتفال أول مايو . حمل عبد الناصر أمريكا مسئولية مساعدة المعتدين . وتمشيا مع سياستها المشكوك فيها فى الشرق الأوسط ، تقدمت أمريكا فى ٥ يونيه بما يسمى مبادرة روجرز ، وفيها اقترح وقف الأعمال العسكرية فى خلال ٩٠ يوماً ، وبواسطة الأمم المتحدة تبدأ محادثات لانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المحتلة ، وكذلك إتمام معاهدة سلام على أساسها تعترف الدول العربية بإسرائيل وحل مشكلة فلسطين . ولكن لم تذكر المبادرة شيئا عن الحدود المستقبلة فهى ببساطة تخطيط مبهم ، أثار الشك والنقد منذ اللحظة الأولى . ولكن قرر عبد الناصر أنه بالرغم من كونها محاولة أمريكية ، إلا أنه سيقع على عاتقها تنفيذها . وقرر الموافقة على مبادرة روجرز لكى يثبت مرة أخرى نيته – كرئيس مصر – فى السلام .

وأصبح على عبد الناصر أن يفصح عن مراميه للمصريين . ولكن كيف يكون ذلك ؟

فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة للثورة المصرية ، قال عبد الناصر : « نحن نريد السلام ، ولكن السلام بعيد . إننا لا نريد الحرب ، وإن كانت الحرب من حولنا . فأمامنا إذاً أن نزيل العقبات مهما كانت . إن الدفاع العادل عن حقنا ، لا يمكن تحقيقه إلا فقط عن طريق انسحاب قوات العدو من كل شبر من الأرض العربية التى احتلت فى سنة ١٩٦٧ ، وانسحابه من القدس ، ومرتفعات الجولان السورية ، ومن الضفة الغربية لنهر الأردن ، ومن غزة ومن سيناء . إن العدل لا يمكن أن يستتب بدون حقوق الشعب الفلسطينى .

وجرت داخل مصر لمدة أيام مناقشات جادة حول مبادرة روجرز .

وفى جلسة مغلقة للجنة المركزية للإتحاد الاشتراكى أعلن عبد الناصر — أنه من الحتمى الموافقة على وقف إطلاق النار . وبدأ حوار عاصف . غمره الأعضاء باستفساراتهم وعلى مدى ثلاثة أيام أجاب عبد الناصر بصبر على كل تلك الأسئلة . وفى النهاية ومن قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة ، أعلن للشعب عن قراره وبتصديق من اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى .

واعتبر عبد الناصر الموافقة على مبادرة روجرز ضرورة حتمية لالتقاط الأنفاس . فهو الذى حذر أكثر من مرة الزعماء العرب بأن لا يعلقوا كثيراً من الآمال على أمريكا .

فى بداية أغسطس ١٩٧٠ سكتت المدافع على ضفتى القناة . وبدأ يارنج جولة مباحثات جديدة . وفى ٦ سبتمبر عرقل المسئولون الإسرائيليون سير المباحثات بحجة زعمهم أن المصريين اخترقوا وقف إطلاق النار ، بنقلهم صواريخ جديدة (بعد سريان الموافقة على وقف إطلاق النار لم يكن من حق كل من مصر وإسرائيل نقل معدات عسكرية لمدى منطقة طولها ٤٠ كيلومتراً على جانبى القناة).

وعلى الرغم من كون المصريين قد نقلوا هذه الصواريخ قبل سريان وقف إطلاق النار ، بدأت إسرائيل فى إعادة تحصين خط برليف على الضفة الشرقية لقناة السويس . وبذا لم تخرج مبادرة روجرز إلى خير التنفيذ .

وكان عبد الناصر يدرك أن الموافقة على المحاولة الأمريكية ، يمكنها أن تحدث إنشقاقاً فى العالم العربى ، إلا أنه رأى أنه لا يجب أن يؤثر هذا على الخـــط السياسى المستقل الذى اختارته مصر . وظل لإسم عبد الناصر شعبيته الواسعة وسط الجماهير .

إنفجر النزاع المسلح فى عمان عاصمة الأردن بين الثوار الفلسطينيين والجيش الأردنى . وتمكن رؤساء بعض الدول العربية ومن بينهم عبد الناصر منه مساعدة كل من الملك حسين والفلسطينيين للوصول إلى اتفاقية ولكن الموقف فى عاصمة الأردن بقى متأزماً وخطيرا .

نظم اتحاد الطلبة الفلسطينيين فى بداية سبتمبر ندوة عالمية فى عمان حول المشكلة الفلسطينية . لحضرها بجانب الشخصيات الإجتماعية المعروفة بعض الوجوه تحت إسم مساعدة الفلسطينيين بجوازات سفر بلجيكية وفرنسية وأمريكية على « أنهم أصدقاء العرب » أثاروا الشك ، فهم فى حقيقة الأمر كانوا يهدفون إلى تمزيق الحركة الفلسطينية وجعل القيادات الفلسطينية تأخذ مواقف عدائية تجاه الجمهورية العربية المتحدة .

فوجهوا العديد من الهجمات لشخص عبد الناصر والسلطة الأردنية .

وظهرت شوارع عمان فى هذه الأيام وكأنها حقيقة مقسمة بين الجنود الأردنيين والفدائيين . وكانت تسمع ليلا أصوات الانفجارات الشديدة ، فكل فريق منهما يستعرض قوته .

وفى ٦ سبتمبر وهو آخر يوم لأعمال المؤتمر ، أذيع خبر حول إستيلاء الفلسطينيين ، على طائرات الركاب الواحدة بعد

الأخرى . وازداد الأمر تعقيدا عندما أجبرت إحدى الطائرات التابعة للشركة الامريكية « بان أمريكان » على الاتجاه إلى القاهرة .

كان المتشددون يريدون إحراج مصر ، ووضعها فى موقف صعب ، وكذا تعميق النزاع بين الفدائيين والمسئولين فى الأردن .

وشجعت مصر وبعض الحكومات العربية الأخرى عمليات التخريب والهجوم على الطيران الدولى . ولعب الدبلوماسيون المصريون دوراً هاماً فى إطلاق سراح الرهائن .

بينما بدأت فى الاردن جولة دموية جديدة بين الفدائيين والنظام الاردنى .

وكانت كل هذه الأحداث . أينما وقعت ، سواء كانت على متن طائرة إسرائيلية فى أحد مطارات لندن ، أو فى شوارع عمان ، فهذه أو غيرها كان المقصود بها عبد الناصر .

ثم وقع الملك حسين والفدائيون على معاهدة . إلا أنه وبعد عدة ساعات اشتعل القتال بينهما مرة أخرى .

كان من الممكن أن تؤدى الحرب الأهلية فى الاردن إلى تدخل أمريكا أو إسرائيل . وهو ما بحث فعلا ، إذ نوقشت مسألة التدخل فى ٢١ سبتمبر فى واشنطن .

وأرسل عبدالناصر برسالة إلى برجنيف زعيم الحزب الشيوعى السوفيتى. وقدعاود الاتحاد السوفيتى إعلان بيان له حذر فيه الدول الامبريالية من التدخل .

فى نفس الوقت كان يجب أن يبدأ مؤتمر لرؤساء الدول العربية وفى أثناء دخول الملوك والرؤساء إلى القاهرة ، كانت المدفعيـــة الأردنية مستمرة فى ضرب القواعد الفلسطينية ومعسكرات اللاجئين فى عمان .

ووصل عدد القتلى وفقا لتأكيدات الفلسطينيين أنفسهم إلى حوالى ٢٠ ألف شخص .

وفى النهاية قرر المشتركون فى المؤتمر إرسال لجنة إلى عمان لكى يتوقف الجانبين عن إطلاق النار والقتال . وتم فى ٢٦ سبتمبر تنفيذ إتفاقية وقف إطلاق النار . واقترح أن يسافر كل من الملك حسين وياسر عرفات إلى القاهرة .

وكانت القوات الأردنية تحاصر قوات الفدائيين ، ولهذا كان على ياسر عرفات أن يرتدى زياً بدوياً ليتمكن من اللحاق بالطائرة وسرعان ما وصل الخصمان المتنافسان إلى فندق « هليتون » . وكان الإثنان مسلحين .

ووصلت درجة العلاقات بينهما أنهما لم يتبادلا الحديث .

ولكن ناصر أشهر من جانبه سلاحا آخر وهو الحجة والمنطق .

وأكد الملك حسين أنه فى استطاعته الإجهاز ببساطة على الفلسطينيين، أجابه عبد الناصر : حسناً . ولو سلمنا بأنه باستطاعتك ذلك لكن فى بلدك قتل ٢٣ ألف فلسطينى . وبعد انتهاء الحرب الأهلية ، فإن شبح هذه الحرب سيلقى بظله على إدارتك لحكم المملكة . كتب ذلك حسنين هيكل الذى كان حاضراً المحادثات .

وقال للفلسطينيين فى نفس الوقت : هل تعتقدون أنه فى مقدوركم الوقوف ضد جيش حديث . لا داعى للمغالاة فى قوتكم . حاولوا إيجاد حل يسمح لكم بالعيش والاستمرار فى المعركة ضد الإسرائيليين المحتلين .

ولكن الملك حسين وياسر عرفات . لم يسرعا بالتصافى فقد قال عرفات « بحر الدم يفصل بيننا » . كما اتهم آنذاك الملك حسين الفلسطينيين بالخيانة .

واضطر عبد الناصر لاستخدام كل نفوذه وهيبته حتى يبعد المحادثات عن نقطة اللاعودة . وكان يظهر عليه التعب . فقد أعيته المناقشات التى لا تنتهى . وانتابه ارهاق عصبى .

« نحن فى سباق مع الموت . فهناك يموت الرجال والنساء والأطفال » .

أجاب بذلك عبد الناصر عندما طلب منه زملاؤه الخلود الراحة .

وفى ٢٧ سبتمبر عقدت الجلسة الختامية للمؤتمر . جلس الملك حسين وبعض ضباطه فى ناحية ، وعرفات فى ناحية أخرى . فالاثنان تحكما فى نفسيهما بصعوبة ، ولم تفارقهما المسدسات .

« كتب هيكل فى مذكراته » اقترحت على الملك فيصل مازحة « بأن يقوم بعملية نزع سلاح الاثنين » فكان رد الملك فيصل عليه أن من يستطيع أن يفعل ذلك هو جمال عبد الناصر ولا أحد غيره » .

وبعد ساعتين من المناقشات . . وعندما أصبح "هناك إحتمال" لاعداد بنود الاتفاقية . عاد عبد الناصر إلى حجرته فى الطابق" الحادى عشر . وخلد للنوم .

وبعد ساعتين عاد عبد الناصر يقود المباحثات . وفى هذه الاوقات وصل خبر عاجل يفيد أن الجيش الأردنى استأنف هجومه على الفدائيين مستهدفاً إخراجهم تماما من عمان ، وأرسل عبد الناصر فى طلب ياسر عرفات وفى النهاية انتهى المؤتمر من أعماله على أثر توقيع الاتفاقية وبعدها شعر عبد الناصر بمدى التعب الذى عاناه .

فى هذه الليلة نام عبد الناصر نوماً هادئاً . وفى الصباح فحصه طبيبه الخاص الصاوى محمود حبيب . كان النبض طبيعيا . وعاود عبد الناصر بعد الغذاء الشكوى من الارهاق . ونصحه الدكتور الصاوى بالراحة للعلاج ولكن عبد الناصر لم يوافق . لأنه أراد أن يكون فى وداع آخر ضيف له وهو أمير الكويت الشيخ صباح سالم الصباح .

واقترب الوقت من الثالثة . وفى صالون مطار القاهرة الدولى جلس كل من نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة أنور السادات وحسين الشافعى وأمير الكويت ووزير الدفاع والداخلية الكويتى سعد آل عبد الله .

وفقط فى الثالثة وصل عبد الناصر . سار ببطء فى لقائه بأمير الكويت .

وكانت تظهر على وجهه علامات التعب . سلم كل منهما على الآخر وجلسا .

هل هناك أية أنباء جديدة ؟ سأل أمير الكويت عبد الناصر باهتمام لعل ذلك هو سبب قلق واضطراب عبد الناصر

لا — لا — لا شىء . أجابه عبد الناصر .

— هل هناك أخبار من عمان .

— حتى الآن لا شيء .

استمر عبد الناصر فى إدارة الحوار متغلباً بكل إرادته على الإرهاق الذى أثقل عليه ، .

وعندما اتجه إلى الطائرة كان بالكاد يحرك قدميه . وما كاد الضيف يصعد إلى الطائرة ، حتى طلب عبد الناصر أن تحضر إليه السيارة . وانطلق إلى البيت . وساعده الدكتور — الذى استدعى بالتليفون — فى ارتداء البيجاما . واشتكى عبد الناصر من دوار شديد . وجلست زوجته وأولاده فى الحجرة المجاورة ، ولكن فى هذه المرة لم يستطع أن يدخل إليها .

— إنحنى عليه الدكتور لكى يسمع ضربات قلبه . . . وفجأة وفى فزع . . رجعت إلى الوراء . . » متذكرا الموقف الدكتور الصاوى .

وفى الحال اجتمع كونسولتو من أفضل الأطباء المتخصصين ، وفى أثرهم وصل زملاء ناصر .

انتهى . . .

هذا لا يمكن أن يحدث . . . شهق واحد . . وبكى الدكتور .

وفى مساء ٢٧ سبتمبر أعلن نائب رئيس الجمهورية بيانا فى

الراديو عن وفاة ابن شعب مصر العظيم جمال عبد الناصر .

وما أن عرف خبر وفاة ناصر ، حتى توافدت جماعات المصريين من أقصى الجمهورية إلى القاهرة . جاءوا فى العربات ، فوق عربات القطارات ، جاءوا سيراً على الأقدام . . وبدا المنظر وكأن سكان مصر قد انتقلوا إلى القاهرة . ونام الناس فى مداخل المنازل ، وعلى أرض المساجد ، وعلى الأرصفة .

وتوافدت وفود الدول الصديقة إلى القاهرة . وأعلن المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى أن الاتحاد السوفيتى سيستمر فى الوقوف بجانب مصر فى كفاحها ضد الإمبريالية. وزار الزعماء السوفيت فى موسكو سفارة مصر فى تلك الأيام . وحضر إلى القاهرة وفد حكومى برئاسة ا . ف . كوسجين .

بعد ثلاث ليال حمل الهليوكوبتر جثمان عبد الناصر فى الجو .

الإنسان الذى أعاد لشعب مصر كرامته ، ودع القاهرة بنيلها الخالد ، وشوارع عاصمتها المكتظة بالجماهير .

وعلى طول امتداد شريط النيل الفضى الممتد وسط الحقول الخضراء التى انتزعت من الصحراء ، كانت تمرق عربات السكك الحديدية ، حاملة المعدات اللازمة للانشاءات الجديدة .

وبعد أن حلقت الهليوكوبتر فوق القاهرة عدة مرات ، هبطت أمام المبنى الذى كان يشغله مجلس قيادة الثورة فى وقت ما .

وضع النعش وبه جثمان عبد الناصر على عربة مدفع ...

وتحرك الموكب ببطء شديد على كوبرى قصر النيل ، مزيناً بأعلام الحداد .

وتسلق الأطفال أعمدة الكهرباء والتلغراف والأشجار .

وفى كل مكان ، كان لا يوجد إلا بشر ، بشر ، بشر .

وصنعت تلك الجماهير حائطاً لم تتمكن من اختراقه كاميرات وأجهزة التليفزيون ، ولم تتمكن من القيام بتغطية الحدث الضخم .

فكل فرد كان يطمع فى الوصول إلى عربة المدفع ، ولمس النعش . وكثيراً ما كان الزحام يعوق طريق الموكب .

وبجوار جامع أبيض فى هيليوبليس — وقف الموكب أمام المدخل .

وكون الحرس — من طوال القامة فى زى رسمى — ممراً حمل من خلاله نعش عبد الناصر . ورفع شيخ الأزهر يديه إلى أذنيه واتجه بجهه السماء مؤديا للصلاة .

وعمت البلاد كلها كلمات الصلاة الحزينة ، ثم دوت طلقات المدافع . ووضع زملاء عبد الناصر جثمانه فى القبر .

وأوقف التليفزيون إذاعة برامجه العادية ، وغادر القاهرة أعضاء الوفود الأجنبية الذين حضروا تشييع الجنازة ، ولكن وبعد مرور عدة أيام ، وفى المساء وأمام مسجد عبد الناصر ، وقف آلاف المصريين ، كما لو أنهم يأملون فى معجزة . وظلت لأربعين يوما أعلام الحداد تعلو شوارع القاهرة .

فى جريدة الأهرام ، دار حوار بينى وبين حاتم صادق ، زوج إبنة الرئيس ناصر . وقد ترامت إلينا ضوضاء شوارع القاهرة من نافذة غرفة التحرير ، وبدت لنا أوراق الشجر أكثر نضارة بعد مطر منعش .

وكنت من فترة أريد معرفة شيء عن أرشيف عبد الناصر . فكان سؤالى لحاتم — ما هو حجم الأرشيف هل هو ضخم ؟ ضخم جداً — أجابنى حاتم — إذ يوجد فى مكتب الرئيس مجموعة كبيرة من الكتابات ، والمسودات ، ومجلات وكتب مدون بها بعض الملاحظات بخطه ، فناصر كان محباً للقراءة ، كان مشتركا فى كثير من المجلات ، فيها المجلات المتخصصة والتكنيكية ، ولكن للأسف لم يجمع الأرشيف بعد .

هل هذا يعنى أنه يمكن العثور فى أرشيف عبدالناصر على وثائق غير معروفة ؟

لا أظن — واستطرد حاتم قائلا : لم يخف الرئيس شيئاً عن شعبه ، فكان يعلن صراحة عن أفكاره ومبادئه . وأحد هذه

المبادىء هى الصداقة مع الاتحاد السوفيتى ، والتى قدرها كثيراً عبد الناصر واعتبرها أساساً فى سياسة مصر .

وهل نتوقع فى القريب أن تجمع الأرشيف ؟ سألته متعجلا نافد الصبر لأهميته الحيوية لكل كاتب .

لقد مر وقت قصير جداً على وفاة عبد الناصر ، حتى أننا لم نقرر بعد الاقتراب من أرشيفه .

نعم — لم يمر حقيقة إلا فترة زمنية قليلة . . .

ولم يهدأ النقاش حوله بعـــد ، بل على العكس ، سرعان ما احتدم . ولهذا فإن كتابة تاريخ جمال عبد الناصر عمل صعب وشاق .

مات عبد الناصر كمحارب فى موقعه . فى لحظة من أدق وأصعب اللحظات فى التاريخ . مات فى الوقت الذى يستمر العدو فى انتهاكه للأرض العربية المحتلة ؛ فى الوقت الذى وصل فيه النزاع بين الفدائيين والجيش الأردنى إلى أعلى نقطة ، كادت أن تقوض المجهودات التى قام بها عبد الناصر ، ويصعب كتابة تاريخ عبد الناصر كذلك لأن عبد الناصر حركة دائمة ، تتطور باستمرار ، لم يعط شيئاً ببساطة — بدون معارك ، إن وجوده ذاته كان منسوجاً بالمعارك .

نشرت جامعة أكسفورد فى حياته بيانات إحصائية . . .

إستخلصت منها أن جمال عبد الناصر — واحد من أكبر ممثلى الحكومات الشعبية فى العالم ، فكتب عنه ٢٨٧ كتاباً بسبع عشرة لغة حتى سنة ١٩٦٨ . وزاد مجموع الكتب عن رئيس ج. ع. م. عدة مرات بعد وفاته . إن كل هذا الاهتمام بشخص عبد الناصر كان يمكن أن لا يفهم ، لو أن الأفكار التى قدمها صارت فى ذمة الماضى بعد رحيله .

درس الخبراء المتخصصون فى الأجهزة الأمريكية عبد الناصر على مر سنوات عديدة . درسوا شخصيته ، خطبه ، طريقته فى الحديث ، حتى ثقل خطوته لم تفلت من نظر المتخصصين .

فحصوا بعناية شديدة صوره ، أمضوا ساعات طويلة أمام شاشات السينما ، آمرين عامل التشغيل بإعادة عرض الفيلم المأخوذ لعبد الناصر لأكثر من مرة . وحاول علماء النفس من على بعد آلاف الأميال ، توقع تصرفات عبد الناصر إزاء مواقف بعينها . جربت « مجموعة العمليات » المرة بعد المرة جميع الاحتمالات المتوقعة لسلوك عبد الناصر . ومرت سنوات عمل متواصلة ، وفقاً لتوزيع الجهاز الحكومى فى أمريكا ، فأنشأ « مركز اللعب » وهدفه الأساسى هو صنع « نموذج » يتصرف كما لو أنه عبد الناصر شخصياً .

أحضر المركز أعظم الدبلوماسيين وأقدر الجواسيس فى

السياسة الدولية ، لتصب فى هذا المركز كل ساعة ، أحدث الأخبار من الجهاز الحكومى ، والمخابرات المركزية الأمريكية ، ومن ممثلى أمريكا فى الخارج ، حيث تسجل على كروت يستخدمها رجال الكومبيوتر ، ويأتى دور المتخصصين بالتنبؤ بسلوك كبار الشخصيات العالمية .

وفى دور الزعماء العالميين ، يقوم أشخاص معينون بأداء أدوارهم . أدى دور عبد الناصر فى هذه « التمثيلية » ميلس كوبلاند . وهو ذو خبرة واسعة ، ويفخور بعمله كعميل أمضى فى الشرق العربى سنوات عديدة . إلا أنه لم يفلح فى تقديم شىء لمساعدة الولايات المتحدة فى رسم سياسة معقولة للشرق الأوسط .

ظهرت أعمال ليست قليلة فى الفترة الأخيرة حاول فيها أصحابها أن يلحقوا تراث ناصر بالإطار الذى صنعه كوبلاند تصور هؤلاء جميعاً ناصر « شخصية قوية » ولكن تصوروها بمفهوم نموذج القوة الغربى . واتسمت محاولاتهم بالتقليل من دور عبد الناصر كبطل قومى . كما أنهم فهموا حرب عبد الناصر المستمرة ضد الإمبرالية على أنها لعبة على التناقضات بين القوتين الأعظم .

حاول الرجعيون كذلك وبكل الوسائل تسخير الناصرية لأهدافهم ، فهم يفهمون أن مناصرة الناصرية ما هى إلا تعبير عن وطنية الناس البسطاء .

فبعد حرب سنة ١٩٦٧ اتضح أن المصرى المحب لعبد الناصر يحب أيضاً وطنه . فبفضل عبد الناصر اتحدت الشعوب العربية فى مصر وسوريا لأول مرة وشعرت الشعوب العربية بأنها صاحبة الحق فى تقرير مصيرها بنفسها .

وعندما علمت مصلحة الاستعلامات فى ج م.ع[1] أن هذا الكتاب يعد للطبع ، تلقيت دعوة لزيارة قرية بنى مر .

— ... وها نحن قد وصلنا القرية ، ودخلنا أحد البيوت العادية المبنى من الطوب اللبن .

— هنا فى هذا البيت — عاش والدى الحاج حسين — جد رئيسنا — هكذا قال عطية عم جمال .

بعد الشمس الساطعة لا تعتاد العين النظر مرة واحدة فى الظلام . وفى النهاية أصبحت أميز حزم الحطب المكتظة ، التى جمعها الأهالى للشتاء ، وصورة عبد الناصر المقطوعة من الصحف ملصقة على الحائط .

صدر عن الباب الخشبي مراراً أثناء فتحه أزيزاً .. أثناء دخول أهالى القرية

---

(١) ج م.ع جمهورية مصر العربية . هكذا أصبحت تسمى مصر منذ سبتمبر سنة ١٩٧١ .

لتحية الضيوف ، وسرعان ما امتلأ المكان الرحب بأناس كثيرين. وهنا دعانى عطيه للصعود إلى سطح المنزل . وبدا عطية فى جلبابه الطويل الأزرق ممشوق القامة . كثرت فى وجهه التجاعيد ، يديه غليظة مشققة ، ولكن كم من الهيبة والجمال تجدهما فى حركات هذا الفلاح ؟ ...

أفسحت النساء اللاتى على السطح المنبسط والمشتغلات فى إعداد الخبز . وذهبن إلى زاوية أخرى بعيدة . وأشار عطية إلى فتاة شابة. وقال تلك أختى وابنة عم جمال عبد الناصر . وتلك جدته ، أخت الحاج حسين ، والتى عمرت فهى الآن فوق المائة سنة . إنها خبزت العيش الفلاحى لجمال .

حدثنا عطية : إن أول مرة رأينا فيها جمال . كان فى الثالثة من عمره . وكنت أنا أكبر بست سنوات فقط .. ولهذا عهد إلى الكبار بمراقبة الصغير . ويجب أن أقول ، أنه لولا جسامة المسئوليات التى وقعت على عاتق جمال لعاش أكثر من ذلك ، إن أسرتنا معروفة بطول العمر .

فجد جمال الحاج حسين عاش ١٠٧ عاماً ، وتزوج وهو فى الخامسة والستين للمرة الثالثة ، وآخر أبنائه (طه) ظهر إلى الوجود عندما أكمل الحاج عامه التسعين ، كما عاش أخى عبد الناصر طويلا ..

وكانت المرة الثانية التى نرى فيها جمال عندما كان ضابطا شابا . ثم سمعنا فى يوم أنه منضم إلى هيئة مجلس قيادة الثورة ... «هل هذا هو إبننا جمال ! » صحت وأنا أستمع إلى آخر الأنباء . ولم يصدق أبناء القرية الأكثر غنى . وقال جار لنا « كيف يمكن أن يظهر من أسرتكم الفقيرة تلك .. مثل هؤلاء ؟ » .

لم نستطع حقيقة أن نفتخر بالغنى . ثلاثة أفدنة ، موزعة فى أماكن متفرقة ... إضطر الحاج حسين إلى تقسيمها بين الأولاد .

وأصبحت لا أملك أرضاً ، ولهذا فعندما قامت الثورة كنت أريد أن أسأل جمال عن ما سيكون عليه الأمر فى المستقبل . كيف يمكن أن يعيش الإنسان معدماً . وقابلت إبن أخى مرتين فى سنة ١٩٥٣ و ١٩٥٤ عندما حضر إلى بنى مر . ولكنى أحرجت من سؤاله ، خاصة وهو وسط إخوانه الضباط . لم أشأ أن أتحدث أمامهم عن حاجتى . وفهم جمال والجميع .

فى إحدى المرات دعا مأمور المركز جمال على الغذاء . وذبح له ذبيحة . وجلسنا نحن ووالدنا فى زاوية بعيدة . وهنا وقف جمال وقال بحيث لا يحرج الداعى ولكى يفهم الجميع « إنكم تعلمون من أنا ؟ أنا حفيد الفلاح الحاج حسين » قالها وكان واضحاً فى كلماته الفخر .

من النيل حمل لنا النسيم الهادى رائحة التوابل الحادة . وسريعا ما أظلمت الدنيا . وأوقد واحد وراء الآخر لمبات النور فى القرية وتسمع رنين أصوات النساء يتصايحن فى مكان ما ، فتيات حافيات يسقن الجاموس الاحدب فى طريقهن إلى البيت ، أولاد يمتطون الحمير يحملون فى أيديهم الحزم لتوصيل العشاء لآبائهم فى الحقول .

موسم الحصاد يسير على قدم وساق . وعطية لا يسرع بالذهاب للحقل . — « هل مطلوب الكثير لفلاحة فدانين — شارحا بذلك عدم سرعته . فإذا ما كانت القوة موجودة ومتوافرة ، فهذا يعنى أننى قادر على إصلاح كل شىء . مظهرا سواعده . لقد علمنا والدى أن طعام الإنسان هو العمل » ، ويدرك الجميع فى أسرتنا هـذا تماما . ولهذا فأنا انتظرت طوال حياتى شيئا واحداً ... الأرض ، التى أستطيع أن أضع يدى فيها . »

وأشار عطية إلى الحائط ، إلى مكان عزيز ، حيث علقت صورة جمال .

وانتظرنا وصول الثورة إلى الريف . عقليا كنا مع جمالنا فى أيام العدوان ، وتتبعنا بعد ذلك كيف سيبنى سد أسوان . وبدأت التغيرات تحدث عندنا فى قريتنا . فوصلت الكهرباء ، وظهرت المدارس ، والمستشفيات ، ومراكز مساعدة الفلاحين المعدمين ،

كنا نعلم أنه فى قرى أخرى ، تأخذ الأرض من الإقطاعيين ، وتوزع على الفلاحين . بينما فى قريتنا لم تكن موجودة أساسا العائلات التى يمكن انتزاع الأرض منها . إذ أنه من حولنا كان الفقر واحدا ، وهذا ما جعلنا بعد الإصلاح لا نحصل على شىء يذكر . فدان واحد قمت باستئجاره من الحكومة ، وحصل فرد له صلة قرابة بالعائلة على ما هو أكثر قليلا . حقيقة أنشأت فى القرية التعاونيات الزراعية . ومن خلالها يتم تسويق المنتجات ، ومنها يمكن استلام الأدوات الزراعية ، وأخذ القروض المالية .

وفى أحد الأيام نصب على حدود القرية عمود علقت عليه يافطة . كتب عليها أنه هنا ستنشأ قرية بنى مر النموذجية . وكان كل شىء قد أعد ، ودرسه المهندسون حتى أنه حدد مكان فيلا الرئيس وظل كل من العمود واليافطة فى مكانهما على حدود القرية ، فى وسط الحقل ، حيث يرى الآن من حوله شونة القطن . ولم تبنى القرية النموذجية بعد .

قال جمال فى البداية يجب أن تبنى فى مصر ٥ آلاف قرية نموذجية ، ثم يجىء بعد ذلك الدور على قرية بنى مر .

تحدث عطية عن هذا الموضوع بشىء من الفخر وأيضا بشىء من الأسف . جمالنا لم يكن يريد أن يقول البعض أنه ميز قريته ومنحها الأفضلية .

إننى أتذكر الكلمات التى قالها الرئيس للفلاحين أثناء زيارته لأسيوط سنة ١٩٦٥ « لقد جئتكم وليست معى هدايا — بل كل ما عندى هو مسئولية كبيرة — مسئولية أريد أن ألقيها على أكتافكم » أن تبدعوا ، أن تحاربوا ، أن تبنوا ، تلك كانت المسئولية العظيمة التى أوصى بها جمال شعبه .

المراجع

١ — « رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر »
البرافدا ١٩٥٨ ، ٢٤ ابريل

٢ — جمال عبد الناصر (رئيس الجمهورية العربية المتحدة)
بيليو جرافيا — « دليل العصر الحديث » ، ١٩٥٨ رقم ٢٩ ص٣١

٣ — خطاب جمال عبد الناصر (فى أحتفال العمال فى بور سعيد)
« البرافدا » ، ١٩٦٤ ، ٢٠ مايو

٤ — « الابن البار للأمة العربية » (ذكرى جمال عبد الناصر)
« البرافدا » ١٩٧٠ ، ٣٠ سبتمبر

٥ — ى. ياكوموف. المقاتل من أجل مصر جديدة (الذكرى
الثالثة لوفاة عبد الناصر) ١٩٧٣ ، ٢٨ سبتمبر

٦ — جمال عبد الناصر « فلسفة الثورة » القاهرة ١٩٥٥

٧ — جمال عبد الناصر ، مجموعة خطب وكلمات وتصريحات
الرئيس . القاهرة

٨ — أنور السادات ، ثورة على النيل . القاهرة

٩ — أنور السادات ، يا ولدى هذا عمك جمال . القاهرة

١٠ — أنور السادات ، حديث طويل عن الثورة . بيروت

١١ — راشد البراوى ، من حلف بغداد إلى الحلف الإسلامى
القاهرة ١٩٦٦

١٢ — رفعت السعيد ، تاريخ الفكر الإشتراكى في مصر
بيروت ، ١٩٧٠

١٣ — محمد حسنين هيكل ، عبدالناصر والعالم ، بيروت ١٩٧٢

١٤ — Peter Mausfield, Nasser, London· 1971.

١٥ — Robert Stephens, 'Nasserlltical Biograrhy
Landon 1972 .

يعرب الكاتب عن شكره العميق لأسرة جمال عبد الناصر ووزارة الإعلام المصرية وللعضو الدائم للجنة مجلس السلام العالمى والشخصية الاجتماعية المعروفة خالد محى الدين ، وكذا اللواء حسن البدرى ، ويوسف صديق ولآخرين من الأخوة العرب والسوفيت للمساعدة فى إعداد هذا الكتاب .

الذكريات عن الابن العظيم للشعب المصرى وصديق الاتحاد السوفيتى جمال عبد الناصر ترتبط بالسنوات العديدة التى قضاها الكاتب فى القاهرة وهى التى ساعدته فى إعداد الكتاب .

تواريخ بارزة

فى حياة ونضال جمال عبد الناصر

١ — ١٥ يناير ١٩١٨ مولد جمال عبد الناصر

٢ — ١٩٣٣ اشترك فى مظاهرة الطلبة ضد الإنجليز

٣ — ١٩٣٦ التحق بكلية الحقوق

٤ — ١٧ مارس ١٩٣٧ التحق بالكلية الحربية

٥ — ١٩٣٨ التحق بالخدمة العسكرية ضابطاً فى منقباد

٦ — ١٩٤٢ — ١٩٤٤ أنشأ تنظيم الضباط الأحرار .

٧ — ١٩٤٤ تزوج من تحية عبد الحميد حازم

٨ — مايو ١٩٤٨ اشترك فى حرب فلسطين كضابط فى الجيش العامل هناك

٩ — ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قيام الثورة

١٠ — ١٩٥٣ إعلان الجمهورية المصرية

١١ — ١٩٥٥ صدر كتاب « فلسفة الثورة »

١٢ — ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ إعلان عقد إتفاقية شراء السلاح من تشيكوسلوفاكيا

١٣ — ٢٣ يونيو ١٩٥٦ انتخب رئيساً للجمهورية

١٤ — ٢٦ يوليو ١٩٥٦ تأميم شركة قناة السويس

١٥ — ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ العدوان الثلاثى

١٦ — ١٩٥٧ صدرت مراسيم تأميم البنوك الانجليزية الفرنسية وشركات التأمين

١٧ — ١٩٥٨ فبراير إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة

١٨ — ١٩٥٨ أول زيارة للاتحاد السوفيتى

١٩ — ١٩٦١ يوليو القرارات الإشتراكية

٢٠ — ١٩٦٢ إعلان الاتحاد الاشتراكى العربى

٢١ — ١٩٦٦ إعلان تشكيل لجنة تصفية الإقطاع

٢٢ — ١٩٦٧ العدوان الاسرائيلى ضد الدول العربية

٢٣ — ١٩٦٧ إصدار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢

٢٤ — ١٩٦٨ إعلان بيان ٣٠ مارس

٢٥ — ١٩٧٠ جمال عبد الناصر فى رحاب الله

رقم الإيداع ٧٧/٤٣١٢
دار المعلم للطباعة







هذا الكتاب

لعل زعيما معاصرا من زعماء العالم الثالث لم يحفر فى مجرى التاريخ أثرا مثلما فعل عبد الناصر ·· انه أول زعيم يفتح باب الامل أمام ملايين من ابناء شعوب ظلت مئات السنين ترزح تحت نير الذل والهوان ·· وجعل مطلب الحرية والاستقلال حقا مقدسا تبذل من اجله الدماء والارواح·· لقد كان صخرة تحطمت على جنباتها اطماع الاستعمار والامبريالية العالمية·· سلب النوم من جفون الرجعية العربية والمحلية·· حيكت ضده شخصيا المؤامرات ، ودبرت محاولات القتل والاغتيال ·· وظل هو بكل شجاعة واصرار المصرى يناضل من أجل حرية كل الشعوب المغلوبة على أمرها ·

ان عبد الناصر ليس ظاهرة وطنية مصرية نعتز بها ونفخر بانتمائها لنا ·· بل سيبقى ظاهرة عالمية ·· ملك كل الشعوب المضطهدة أبا للفقراء ونموذجا للمناضلين الشرفاء ملهما لكل من يرفض الخضوع والاستسلام ويتصدى للظلم والعنجهية ·

وهذا الكتاب اضافة جديدة لما كتب عن عبد
من وجهة نظر كاتب سوفيتى يكشف فيه عن اس
وخفايا لم تنشر من قبل عن حياة عبد الناصر و
حقبة كاملة من انصع صفحات التاريخ فى مص
فى شخصية الزعيم جمال عبد الناصر ·

الثمن ٦٠ قرشا

دار الثقافة الجديدة